
عبد الفتاح أبو مدين
حكاية الفتى مفتاح



الشيخ مصطفى بدر الدين

عبد الفتاح أبو مدين

حكاية الفتى مفتاح

(ح)

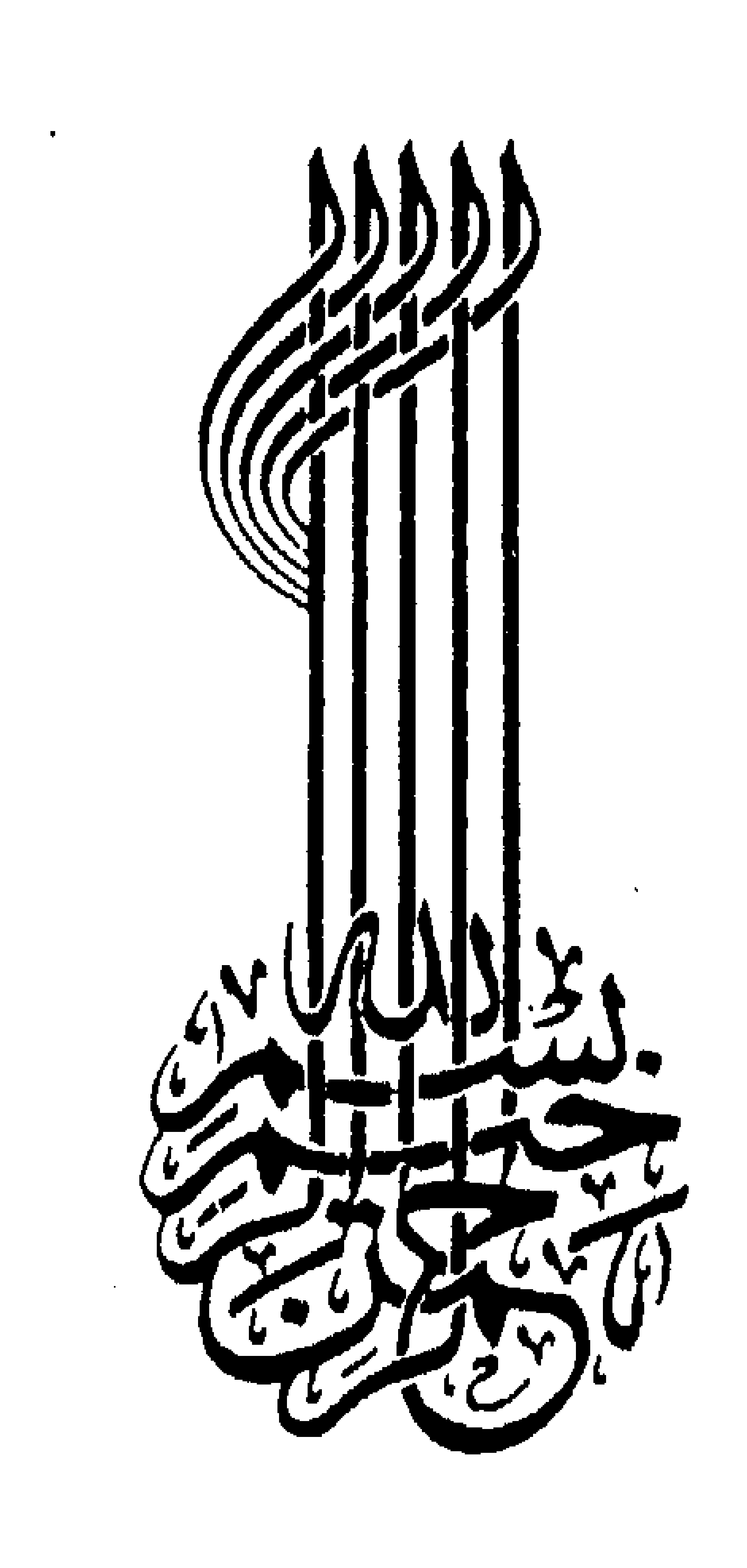
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
ابو مدين ، عبدالفتاح محمد
حكاية الفتى مفتاح .
... ص ؛ .. سم .-
ردمك ٠ - ٠٨ - ٧٥٧ - ٩٩٦٠
١ - التراجم الذاتية ٢ - ابو مدين عبدالفتاح محمد
أ - العنوان :
ديوي ٩٢٨,١٥٦٩ ١٦/٠١٢٢
رقم الإيداع : ١٦/٠١٢٢
ردمك ٠ - ٠٨ - ٧٥٧ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

رمضان ١٤١٦هـ الموافق فبراير ١٩٩٦م



الشركة السعودية للتوزيع
شارع الستين شرق جسر الملك فهد - جدة
تليفون: ٦٥٣٠٩٠٩ (٩٦٦٠٢) فاكس: ٦٥٣٣١٩١ (٩٦٦٠٢)



الإهـــــداء

إلــــى :

... ذلك القلب الحاني .. الذى أحب بغير حساب، حب الأم الرءوم الصادق . الذى لا يتناهى .

إلى أمى .. يرحمها الله بفيض رحماته ، كفاء عناء لا حدود له ، ويجزى عليه من خلق وقدر .

عبد الفتاح



مقدمـــة

عبد الله محمد الغذامي*

كانت البداية بسيطة ولكنها كانت تنبيء بشيء غير بسيط ، ذاك حينما أطلعني الأستاذ عبد الفتاح أبومدين على مخطوطة كتاب تحت الإعداد حول رجال عرفهم في حياته ورغب أن يكتب عنهم ، وحينما شرعت في القراءة توقفت عند حديثه عن خاله مصطفى بدر الدين – رحمه الله – إذ لمست أن وراء ذلك الحديث حكاية مطمورة ، وأن هناك قصة لفتى يافع كان يقف على ميناء جدة مع والدته ليضع نفسه بين يدى خاله وكأنه يقفز فاراً من بحر الظلمات إلى عتبات الأرض المقدسة.

كانت كلمات الأستاذ عبد الفتاح أبومدين عن لحظات

---

* أستاذ النقد والنظرية – جامعة الملك سعود – الرياض

لقائه مع خاله تفوح بنار المعاناة والمكابدة ، وأحسست وأنا أقرأ كلماته تلك بأن وراء المفردات ماوراءها من حكاية وحكايات لنفس بشرية لم تمر مرورا خفيفا ولكنها عبرت الطريق بكدح ورعب وألم .

عندها رحت أهاتف الأستاذ وأقول له ما حكايتك يارجل ..؟ فرد عليّ بصوت أثقلته الكلمات وضغطت عليه الأحاسيس قائلا :

إنها حكاية مؤلمة وقاسية وهى تخصنى وحدى ولا تهم أحدا سواى .

عندها قلت له إن الأمر ليس على ما تتصور فحكايات المصابرة والمجالدة هى من العبر الإنسانية التى يجب علينا أن نكشف أمرها للناس ليعتبروا بها وليستعينوا بها على فهم واقعهم ومصائر شؤونهم .

وظللت أحرضه على كتابة حكايته وأحثه على ذلك إلى أن ساومنى مساومة الصديق للصديق ، وقال : هل أكتبها على مسؤوليتك ..؟

فأجبته معلنا اعتزازى بهذه المسؤولية الأخوية

والأدبية ، وها أنذا أكتب هذه المقدمة لأسجل مسؤوليتى عن هذه الحكاية ، حكاية الفتى مفتاح امحمد بومدين ، هذه الشخصية المطمورة تحت الكلمات ومن وراء الحكايات .

ولقد ظللت زمنا أعرف عبد الفتاح أبومدين وأعرف عنه كل ما يمكن أن يعرفه الصديق عن الصديق ، وهى معرفة ثرية وعميقة بأدبياتها وأخلاقياتها ، ولكننى لم أعرف قط ذاك الفتى المدعو مفتاح بومدين ، وإن كنت قد أحسست دائما أن وراء صديقنا وأستاذنا حكاية غير عادية ، وما يظهر عليه من صبر وحكمة ورضا لا بد أن وراءها تجربة عميقة أفضت إلى هذه الصفات الحميدة غرستها في روح صاحبها غرساً ظل يستقي من ماء الحياة وسلسبيل الخبرة .

ولقد هممت مراراً أن أسأله عن (سره) أو (حكايته) غير أن انهماكنا معاً في عمل وطنى مشترك من خلال مشروعنا الثقافى المتمثل بالنادى الأدبى الثقافى بجدة وما يملأ حياتنا معاً من مصابرة ومكابدة لتحقيق وجود ومعطيات ذلك المشروع كان يشغلنا معا عن التفرغ لأحاديث الذكريات أو إعطاء الذات حقها من التحدث عن

ذاتها ، ولذا فإن كل هاجس يهجسه أحدنا يتعرض مباشرة لمباغتات اللحظة وشروط الراهنية والعمل المشترك وتحديات الظروف وملابسات المواجهة ، ولقد كانت لحظة العمل الثقافى لحظة عناد وكدح ومصابرة ومكابدة ، ولم تلك التحديات لتلين أو لتهادن مما كان يدفعنا دوماً للعمل ومزيد من العمل وموالاة العمل بالعمل ، حتى جاء اليوم الذى أضطررت فيه إلى مغادرة جدة ولكننى لم أغادر قط قلب عبد الفتاح أبومدين ولا قلب اللحظة ولا قلب النادى ومشروعاته وطموحاته .

وكان من الممكن أن تستمر حالة علاقتي مع عبدالفتاح أبومدين على وضعها ذاته من دون أن أتعرّف على الفتى (مفتاح بومدين) لولا بركة الحديث عن مصطفى بدر الدين - رحمه الله - الذى رفع الحجاب عن المطمور فكشف المغطى وأعلن السر وراح يسرد الحكاية ، حكاية فتي ذاق من الحياة كل مذاقاتها وطعم كل أطباقها المر والحامض والحار ، فتى عمل بنّاءً وخبّازاً وقهوجياً وانتهى صحفياً وأديباً وكاتباً ورائداً ثقافياً وأستاذاً في العمل والإنتاج والاخلاص لوطنه ولثقافته ولتاريخه ودينه ، هذا الذى رسب في مادة (الإنشاء) يتحول ليصبح

أستاذاً في الكتابة والخطابة . صنع من الاخفاق نجاحاً ومن الضياع هوية ومن الجوع رغبة في العلم والمحبة والعمل لا تشبع ، في حياة أبومدين نهم لا يرتوى ولا يقنع وهو نهم للعمل ومزيد من العمل وموالاة العمل بالعمل ، هذه هى الصورة التى تترسخ في ذهن كل من عايش هذا الرجل الصدوق الصادق .

إنها التحول من مفتاح بومدين إلى عبد الفتاح أبومدين، وما على القارىء المتطلع لمعرفة هذا التحول إلا أن يقرأ ما بين دفتيّ هذا الكتاب ليعرف الحكاية ، حكاية الفتى مفتاح الذى صار عبد الفتاح .

عبد الله الغذامي

الرياض

١٩٩٥/١/١٤



الفصل الأول

- ١ -

إنني أؤكـد .. من البداية أن حياتى ليس فيها شىء يستحق التسجيل والحديث ، لأنها حياة أمثالى ممن عاش اليتم والفقر والجهل . ولكنى أمام طلب ملح ، أملته رغبة كريمة ، لأكون موضع درس . وأؤكد مرة أخرى من غير احتياط .. بأن ليس في حياتى العامة والخاصة درس ما يستحق أن يكون موضوع - موضوع - إن صح هذا التعبير . وأنا أعلن أن الوفاء وحسن الظن .. يدفعان إلى شيء من لاشيء ، وتلك ثقة غالية ، وقدرة كذلك . وبهذه المناسبة أتذكر حديث الأستاذ العميد .. وهو يتحدث عن ياسر ، الصحابى الجليل ، أذكر قوله : "وكاد التاريخ أن ينسى ياسر ، وكان التاريخ أرستقراطياً لا يحفل إلا بالسادة"[١] . وأين أنا من ياسر .. الذى ضحّى بنفسه في سبيل العقيدة والايمان ، والصبر على البلاء المبين ؟

وحين دعتنى الطالبة الكريمة[٢] . إلى أن أمدها بتاريخ حياتى ، لكى تهيىء رسالتها العلمية .. من بضاعة مزجاة ، قلت في نفسى : ما عسى أن تقول عن نفسك ؟ وما أنت فاعل ؟ وما قيمة حياتك ؟ وماذا فيها ما يستحق أن يقال

وأن يذكر . وهممت أن أعتذر إلى فتاتي ! ولكني تراجعت ، حتى لايستمر ترديد التهمة ، أن المواطن لايستجيب لدعوة الاستعانة بما يقدر عليه ، وخاصة أولئك الذين يكتبون ويتحدثون .. ويسعون في الأرض ، وهم يُرمون بالخمول تارة .. وبالتقصير تارة أخرى ، وفي ذلك بعض الحق ، لأني عرفته من عملي في النادى الأدبي الثقافي بجدة ، وعرفت أن بعض التعلل مرده – الجبن – ، والخوف . ولست في مجال تفنيد هذه القضية .

وقبل أن أتلقى الدعوة الكريمة من الطالبة العزيزة ، كنت قد كتبت وريقات ، اتخذت لها عنوانا : "هؤلاء عرفت" ، تحدثت فيها عن بعض الرجال ممن عرفت ، ولهم في نفسى أثر وقيمة . وبعثت بتلك الوريقات .. إلى أخي الأعز ، والسمح خلقاً ووداداً ووفاءً وإيثاراً ومروءة ، الأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد الغذامى[٣] لينظر فيها قبل نشرها منجمة في الصحيفة التى أكتب فيها ، ثم تكون كتابا إذا شاء الله . ومن هؤلاء .. الذين عنيت بهم ، خالى الغالى .. الشيخ مصطفى بدر الدين رحمه الله برحمته الواسعة ، لان له فضلا علىّ لا أنساه . ومن خلال الحديث عنه ، كان الحديث عن نفسى .. في مرحلة من مراحل

حياتي المبتسرة .. محدودة أو ضيقة الحظ !

وحين جاءني الطلب من ابنتي .. الطالبة الطموحة ، أسرعت إلى أخي الغذامي أطلب إليه أن يقرأ الجزء الخاص بخالي .. من تلك الوريقات ، التي بعثت بها إليه لابداء المشورة فيها ، ولاحقته .. وأنا أدرك شواغله العلمية ، غير أنه وهو الرجل المحب الوفي ، شكر الله فضله ووفاءه وإيثاره ، وأدب نفسه قبل أدب درسه ، والشكر مجدداً له ، إنه الدافع والمشجع والسند الواقف معي .. منذ تعارفنا ، وأفضاله عليّ بعد الله لا تُنْسَى ولا تُمْحَى ، لاني لا أنسى ولا أنكر الجميل ، وهو الكاتب الصوال ، مد الله في عمره .. وزاده من فضله وعافاه وسلمه .

عجلت عليه برد الوريقات التي تتعلق بخالي الشيخ مصطفى بدر الدين ، لأعطيها للابنة الطالبة ، لعلها تجد فيها .. ما يرقع حديثها عني ، وأقول لعل! لأني أدرى بنفسي وحالها . غير أن أخي النصوح .. من باب التشجيع والوفاء .. وربما راقت له تلك الوريقات .. المتعلقة بخالي وبي ، إذا هو يلح عليَّ أن استكملها .. عن بدء حياتي وطفولتي ، لأن ما كتبت عن نفسي .. ضمن الحديث عن الخال رحمه الله ، كان في مرحلة ما بعد مرحلة حياتي

الأولى ، وأخي الغذامي – أحسن الله إليه – ، يفتح لي آفاقاً رحبة ، ويُذكّرني بالأستاذ العميد وأيامه . وأين أنا من ذلك الطود الشامخ العبقري ؟ أين أنا من طه حسين ؟ . ومن هو طه حسين في عالمنا .. وفي العالم ؟ .

وحاولت اقناع أخي الغذامي بأن ما كتبت لا يرقى إلى الدرس ، لانه لا قيمة له ، ولا يستحق شيئا من عناية ، لكنه كان ألحن بحجته مني ، حين أعلن أن صاحب الشيء لا يرى فيه ما يراه الآخرون ، وأعاد عليّ أن أيام طه حسين أعطته قيمة ، لأن حياته كانت كبدا ومكابدة .. لاسيما في مراحلها الأولى .

واقتنعت بأن تسجيل الأيام من حياتي .. هو مفتاحها ومنطلقها ، لعلها تكون مادة تسجيل . ودع القيمة العلمية جانباً .. بين مَنْ هو في القاع ومَنْ هو في القمة!، لقد أقنعني أخي بمنطقه وحجته وقدرته على الاقناع .. فاستجبت ، وأخذت أستعين الله .. وأسطر هذه الكلمات ، والتي سمتها الصدق ، ولن يكون فيها إن شاء ربي .. تزوير ، ولا تجاوز لحقيقتها . والله أسأل العون على إتمامها ، فإنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير !.

والشكر يزجى عاطرا .. للدافع الكريم[٤] لطالبته ، لتكتب عنى ، ذلك أنه حسن الظن بأخيه ، غير أن وفاءه العارم وحبه للخير وإيثاره وسماحة نفسه ، وسجاحة خلقه ، قيمة عالية ، لأنه رجل ذو مروءة .. ودأب في السعى وراء المعرفة ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

• • •

- ٢ -

مولدى .. كان في مدينة "بنغازى"[٥] بليبيا ، في ضاحية تلك المدينة ، تسمى "البرْكة" بكسر الباء وسكون الراء ، وفى جزئية من البركة .. التى تبعد عن وسط بنغازى بنحو أربعة "أكيال" . الجزئية هى – الرويصات – ، تكتسب بالصاد ، ويقال إن التسمية .. جاءت من نتوء حجارة تشبه الرءوس ، فسميت الرويصات .

ومن شبه المؤكد .. أن مولدى كان في أواخر عام "١٩٢٦"م وهو يوافق عام "١٣٤٥" هـ ، وما سجل في بطاقتى الشخصية الهوية .. هو ١٣٤٤/٣/٨هـ ، غير أن عام مولدى بالتاريخ الميلادى .. يوافق عام١٣٤٥هـ . وأن اسمى وأبى وكنيتى هـــو "مفتاح بن أمحمد بن عبد الله بومدين" . وحين جئت إلى الحجاز مع والدتى. . يرحمها الله سمّانى خالى – عبد الفتاح – وأبعدت أنا – الألف – ليصبح اسم أبى محمدا ، ولعلى نقلتها من مكانها إلى لقب العائلة ليصبح "أبو مدين" بدلا من – بومدين – . واللقب . جاءنا من الجد الولى الصالح – بومدين الغوث[٦] ، وربما كانت جذورنا من – المغرب الأقصى – ، ونحن على كل

حال من الشمال الافريقى ، في أي من أقطاره المتلاصقة ، ولدى بعض الأهل في بنغازى شجرة النسب . أما والدتى فهى حسبما سمعت منها فتنحدر من الجزائر ، وكان والدها عالِماً ، يسمى الشيخ بدر الدين الفليتى . بكسر الفاء المخففة . وقد وجدت في وهران بالجزائر أسرة لقبها لقب جدى لوالدتى ، حين زرتها عام ١٤٠٦ .

وأدركت أن والدى عليه رحمة الله تزوج أكثر من امرأة ، بدليل أنني وعيت أخوة لي من أبى ، رجلين من امرأة ، وكذلك أختا من امرأة أخرى .

والدتى رحمها الله .. أنجبت من أبى تسعة ، لم يعش منهم سوى بنتين وولد ، هم أختاى وإياى . وترتيبى في هذه الأسرة الأخيرة ، لان والدى كان آخر زواج له بوالدتى ، وترتيبى في التسعة – السابع – .

حين وعيت الحياة ، ربما كانت سنى في السادسة ، كان والدى رجلا مسنا ، في نحو الـ (٧٥) ، وقد توفى وعمره (٧٨) سنة .. على ما كان يقال ، والحساب هناك بالسنة الميلادية ، وكان له دكان يبيع فيه الفحم والحطب بالكيلو ، وكان ضعيف البصر ، واعتاد الذين يبيعون هذه الوقود للناس .. أن يبيعوا معها – القاز – السائل –

الكيروسين – ، لكن والدى كان يكـره رائحتـه ، فلـم يبعـه في دكانه . وهو يشترى الفحم أكياسا والحطب بالقنطار .. من "الفنـدق" ، كمـا يسـمي هنـاك ، ومـا نسـميه هنـا – الحلقـة – ، ثـم يـأخذ فـي تقطيـع الحطـب .. وهـو مـن الأشجار الكبار ، يؤتى به من الغابة ، في الجبـل الاخضـر ، شرق مدينة بنغازى بنحـو سبعين كيلو متراً ، ويمتـد هـذا الجبل الجميـل نحـو مـائتى كيلـو مترا .. مـن الغـرب إلـى الشرق ، وجنوبا نحو ثمانين كيلو مترا ، أما شـمالا فيحـده البحر الابيض المتوسط .

يقطـع أبـى الحطـب ليبيعـه بـالكيلو ، ليطهـو النـاس بـه طعامهم ، في عهد ما قبل الغـاز ، والفحـم للشـاى والتدفئـة في الشتاء ، حيث يوقد في كوانين . وبعض ربـات البيـوت يطهون طعامهن على الفحم ، فهـو ألـذ وأطيـب ، رغـم أنـه بطيء ، ولكن الأمهات يومئذ يستيقظن مبكرات ، ويشرعن فـي الطهـو مبكـرا ، وتتغـدى الأسـرة بعـد صـلاة الظهـر مباشرة ، أي في الواحدة ظـهرا .

• • •

- ٣ -

والدى إذن كان فقيرا ، ويبيع الحطب والفحم بالكيلو ليحصل على بعض ما يكفى الأسرة المكونة من خمسة أفراد ، لكنه ورث من أبيه أراضي .. كانت في تلك الأيام للزرع ، تُسْقى من آبار بدلاء .. وتستعمل الدواب لاستخراج الماء من تلك الآبار لسقيا الزرع أو قل الخضرة ، والآبار ليست عميقة ، فهى لاتتجاوز اثنى عشر مترا ، وحين تقلصت الزراعة ، واتسعت رقعة العمران ، كان ابى رحمه الله .. يبيع قطع الأرض لينفق بقيمتها علينا ، فهو يشترى بها حطبا وفحما ، وما يرد من بيعهما ينفقه على أسرته ، من خلال حياة فقيرة ، فالطعام الشعير المطحون .. الذى يصنع منه الخبز وبعض أنواع الطعام المعروف هناك كالحساء ومعجنات تشبه المكرونة ، لكنها من شعير تصنع في البيت . وفى بعض الأحيان .. يخلط الشعير بشيء من البر ، لأن القمح أغلى ، والأسرة فقيرة . وماء الشرب يأتي به ساق .. من خلال برميل محمول على - كروسة - ، تجرها دابة ، فيملأ - الزير - ، أما غسل المواعين ، وهى محدودة ، برمة فخار وقصعة ، وشىء

من زبادى – شينكو – ، فتغسل بماء البئر غير العذب ، وفى كل بيت تجد بئرا لهذا الغرض وللاغتسال كذلك .

ويصنع "القديد" ، من لحوم الأضحية ، ليؤكل في الشتاء، ، ويعمل السويق في الصباح بالتمر والزيت ، أو في المساء ، وهو من الشعير ، وخبز الشعير يبيت ليلة واثنتين وثلاثا ، و أحيانا يؤكل بالماء .. ليزدرد .. أو بحبة طماطم وثوم وشيء من زيت فيما يشبه السلطة مع الفلفل الحار .. ليؤدى به وجبة ، وفى الصيف و– الحر – يكتفى بالبطيخ مع الخبز كوجبة غداء ، ويسمى الحبحب – دلّاع – ، أو عنقود عنب مع كسرة خبز .

والبيوت مبنية من حجارة وطين وسقفها – قدد – من أشجار الغابة ، وفى البيت حجرة نوم للعائلة ، الأب والأم على ما يسمى – سدة – من خشب الواح ، تحملها .. قدد خشبية على شكل هرم ، أو ما يسمى– ظهر حمار – من الجانبين ، وعلى هذه السدة – بكسر السين – ، طراحة حشوها صوف ، وغطاء من الصوف ، عبارة عن بطانية ، وربما أستعين بعباءة .. إذا اشتد البرد . ويستر السرير إن صحت التسمية – "كِلّة" ستارة .

والأبناء يفترشون حصيرا .. عليها – نطع – جلد

خروف بصوفه للتدفئة ، وحتى في الصيف ليس سواه ، وقد تفضّل الحصير في الحر رغم صلابة الأرض ، والمخدات بعضها محشو صوف وفى حال الفقر تحشى بخروق قديمة لتكون وسائد ، والاضاءة لمبة قاز ، و أحيانا ينام الأبناء أو الضيف تحت السماء .. هروبا من الحر . ويكون في المنزل المكشوف السقف .. ماعدا الحجرات .. (مربوعة) ، ما نسميه مقعدا ، أو مجلسا باللغة الراقية وإمكانات الحياة ، لاستقبال الأهل فيها ، وفرشها أرضى ، هى الحصر فقط ولاشىء غيرها كالمساند وما إليها . وفى هذه الحجرات نوافذ للاضاءة والهواء ، والأرضية نورة مع رملة .. وربما خالط ذلك شيء من أسمنت عند القادرين ، والبلاط موجود ولكنه غال . إنها حياة بدائية ، قليلة الامكانات ، لأنها قليلة الموارد .

قلت إنه كان لي اخوان وأخت من أبى أسنّ منى . فالأخت متزوجة من قريب لها ، ولها أولاد . والاخوان كل منهما له دكان للبقالة المحدودة ، وأحدهما عقيم واسمه محمد ، والآخر منصور ، وله ابن وبنت . وكل منهما له بيته وحياته الخاصة ، ولم يتعلما ، لانهما كانا في زمن لا يوجد فيه سوى كتاتيب تحفيظ القرآن ، أو

المدارس الإيطالية ، بعد أن استعمرت إيطاليا ليبيا عام "١٩١١"م ، وفى العهد العثمانى .. لم يكن ثمة تعليم بالعربى . والقادرون يبعثون بأبنائهم إلى الأزهر وجامع الزيتونة بتونس ، أو إلى إيطاليا وفرنسا .. ليتعلموا العلوم العصرية .. ونحوها . أما الاستحمام في تلك البيوت القديمة ، فغالباً ما يتم في طشت كبير ، في أرضية غرفة النوم .. بعد استخراج حصرها ، ويسخن الماء على نار حطب في قدر نحاس ، ثم بقية الوسائل الأولية .. من ليفة وصابون وماء بارد ، و أحيانا كرسى صغير من خشب .. يوضع في الطشت . وعملية الاستحمام – الاغتسال – هذه نادرة .. إلا في فصل الصيف ، وربما وقف إنسان في وسط الحوش وأفرغ على جسمه سطل ماء من البئر ، أو في دورة المياه البدائية ، وعلى بابها ستارة ، عبارة عن كيس خيش .. بديل الباب الخشبى .. من القلة .

• • •

- ٤ -

وأنا في نحو السادسة من عمرى وحياتى البدائية ، لا أتذكر التاريخ بدقة ، ذهبوا بى إلى رجل يحفظ القرآن .. اسمه الفقى بوبكر الفزانى ، وفزان أحد أجزاء ليبيا الجنوبية .. على أطراف الصحراء ، وكانت ولاية أيام حكم الملك إدريس السنوسى رحمه الله . وحفظ الكتاب العزيز .. في هذه الكتاتيب ، على الطريقة التقليدية القديمة ، وهى أن كل طالب يأتي بلوح خشبى ممسوح .. مقصوص على شكل معين ، وله ممسك في اعلاه ، وفى غالب الأحيان يثقب هذا الممسك ليعلق اللوح في مسمار ، إجلالاً لآيات القرآن . ويكتب الفقى في – المُكتب – بضم الميم سطورا من القرآن ، تبدأ من البدء بسورة الفاتحة ، ثم سور الناس والفلق والإخلاص – صعودا – ، وليس من الفاتحة والبقرة .. كما هى الحال هنا في المملكة . وبالطبع الطالب لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ويبدأ بمعاونة الفقى في نطق الكلمات المشكولة ، بقراءة "قالون" .. على ما أذكر ، وفى شمال افريقية ، ينقطون "الفاء" من أسفل الحرف ، والقاف نقطة واحدة بأعلاه .

وبدأت أذهب إلى "المكتب" أو مانسميه في الحجاز الكتاتيب ، كل يوم من الصباح إلى الظهر ، ثم نعود عشية إلى الفقى .. ستة أيام في الأسبوع ، وأظن أننا في يوم الخميس ننصرف مبكرا ، أي في الظهر ، ولا عودة عشية .

ويعطى للفقى أجرة شهرية متواضعة لقاء جهده في تحفيظ الكتاب ، وفى يوم الأربعاء من كل أسبوع ، كل تلميذ يحضر قروشا للفقى .. كل على قدر حاله ، وهى عادة .. إكراماً وتقديراً من ولى أمر التلميذ ، قلت إنها – عادة – .

ومضيت في حفظ كتاب الله .. نحو ثلاث سنوات، وربما أربعا ، فوصل حفظى إلى منتصف سورة الحج ، وقد أشرت أن البدء تصاعدى في هذه الكتاتيب التى تسمى – الجامع – ربما لاجتماع التلاميذ طالبى حفظ القرآن فيها ، وعند هذا الحد .. توفى والدى رحمه الله . وأصبح لا يوجد مَنْ ينفق علينا . وذهبت شقيقتاى كل واحدة منهما إلى بيت من بيتى أخوى من أبى . وبقي والدتى وأنا .

وأذكر أن أستاذى الذى كنت أتلقى عنه القرآن ، كان يصحبنى معه بين الحين والحين .. حينما يدعى مع مشايخ تحفيظ القرآن إلى مناسبة وفاة مواطن لقراءة وختم

المصحف على المتوفى ، وأستاذى هو المقدم في هذه المناسبات ، فكان يصحبنى معه دون بقية زملائى .. إلى هذه المناسبات .. لاقرأ مع المشايخ جزءاً من القرآن مما حفظت ، ثم يقدم الطعام .. وهو أرز ولحم فأصيب منه بشبع ، لان اللحم لا يدخل بيتنا إلا نادرا ، وربما أتيح لنا مرة في الشهر شراء رأس شاة أو كرشة ، لكن بقية الأيام نكتفى بما تيسر من حساء بشحم جاءنا من أضحية العيد أو يشرى من السوق ، ويحمص في زيت الزيتون على النار مع القديد أو بدونه . وأحصل من صحبة أستاذى على قروش كأجر لقراءة القرآن ، فأسعى بها فرحا إلى والدتى ، وإن كنت أحزن لانى شبعت وهى لم تشبع مثلى من هذا الطعام الدسم ، ولكنها تفرح لان ابنها يقرأ القرآن وينال من طعام جيد ، وتهدّىء من روعه بأنها أكلت كثيراً في حياتها ، ولكن ابنها الصغير ، ابن العاشرة .. هو الذى في حاجة إلى غذاء يشد صلبه وجسمه النحيل . وشيخى كان يصحبنى لاحساسه بفقرى ، فكان ذلك عطفاً منه ، لانه جار لنا .. يعرف أحوالنا ، وأنا بطبعى هادىء خجول ، قليل المخالطة حتى مع زملائى ولداتى وكنت أقرب إلى الانطواء .

وحين قُسم الميراث مما ترك أبى ، كان نصيبنا ، والدتى وأختاى وأنا المنزل الذى نسكنه وقطعة أرض أمامه .. نحو خمسمائة متر مربع ، وأضطررت مكرها إلى ترك التردداد على الفقى .. الذى احفظ عنده القرآن الكريم ، فتأسّف الرجل ، وكان يتمنى أن أتم حفظ كتاب الله ، حتى قال لي : لا داعى لدفع شيء في آخر الشهر ولا ما يقدم من قروش كل يوم أربعاء ، وأعلنت له .. في ذلك الوقت المبكر .. إلى أن والدتى وأنا في حاجة إلى دخل نعيش به ويسد الرمق .. كيفما كانت الحال ، فأيقن الرجل أن الظروف الصعبة أوهت من قدراتى الواهية ، وقبل العذر على مضض ، ودعا لي ولوالدتى بالعون والسداد .

• • •

- ٥ -

ولكن ما عسى طفل أو غلام مثلى يعمل في الزمن الصعب وهو واهى القوى ، ضئيل الجسم ، لايحسن كتابة اسمه ، أو جمع ارقام أولية ؟ ماذا أمامه أن يعمل؟ .

إن الكثير من لداتي .. توجهوا إلى المدارس الإيطالية .. يتزودون من معارفها ، وأكثرها باللغة الإيطالية ، إلا بعض الدروس كالمطالعة ونحوها فهى بالعربية ، والمعلمون في هذه المدارس الابتدائية والثانوية .. ليبيون وإيطاليون ، والدول المستعمرة للشعوب العربية وغير العربية .. تريد نشر لغتها وثقافتها وإشاعتها.

إن والدتى حالت دون ذهابى إلى المدارس الإيطالية ، فأنا وحيدها ، وهى تخشى علىّ حين ألتحق بهذه المدارس .. أن أجند ثم أحمل إلى القتال مع الدولة المستعمرة ، والوالدة عليها رحمة الله ، وهى أمية .. لكن عقلها كبير ، رأت أبناء الليبيين يحملون إلى الحبشة لمقاتلة الأحباش .. حين غزت إيطاليا الحبشة في عام "١٩٣٦" ، وقد مات الكثير منهم في ذلك الغزو لانهم كانوا على ما يبدو في المقدمة ، وحرب الاحباش حرب ضارية عنيفة .

والدتى إذن خشيت علىّ من الموت في غير سبيل الله ، فاعترضت على الحاقى بالمدارس الإيطالية ، وكانت لها رؤيتها الثاقبة ، وإن حرمت من ثقافة ومعرفة لغة قوم ، أتقنها من التحق بهذه المدارس وأتاحت له العمل .. حيث أتيح له . وكل ذلك بقضاء الله وقدره .

وأعود إلى العمل ، وماذا أستطيع أن أعمل ؟ إنه سؤال محير ! لكن تيسير الله .. وهو سبحانه الرزّاق يجعل سبحانه بعد العسر يسرا ، ولست أدري مَنْ وجهنى إلى السعى نحو "مقهى" لأعمل فيها ، أمد الشاى والقهوة والمياه الغازية إلى رواد المقهى ، وأمارس كذلك صنع الشاى في – كفتيرة – كبيرة .. لأصب منه لمن يطلب كباية أو أكثر ، ولايوجد هناك نظام البراد .. الذى عندنا هنا في المملكة ، وأصنع كذلك القهوة التركى ، وأقدم لمن يأتي إلى المقهى ذلك ، وهذه المقهى عادة تكون مستأجرة ، ويهيىء لها المستأجر الوسائل اللازمة لتؤدى هذه الخدمات .. التى تتوفر في المقاهى .

وهذا يتطلب منى وأنا – صبى – في المقهى أن أصحو قبل طلوع الشمس .. لأفتح المقهى ، وتحت الرماد .. في – الوجاك[٧] – بقية نار من الليل ، أضع عليها الفحم

لغلى الماء في الغلاية الثابتة في موضعهـا ، ولأجهز الشـاى وأهييء القهوة لشاربها وطالبها . وصاحب المقهـى .. يـأتي نحو الساعة الثامنة أو الثامنة والنصف ، ليجـد العمـل يسير علـى يـدى الصبـى الصغـير .. القليـل الحيلـة والهـادىء والمطيع معا ، فيساعده إذا اقتضت الحال ذلـك . والصبى قد عمـل كـل شـيء ، مـن كنس للمقهـى ورص الكراسـى ورش الماء في الأرض ، وايقـاد النـار إلـخ ، وقـدم للزبـائن المبكرين مـا طلبـوا مـن شـاى وقهـوة ، لاسـيما العمـال وأمثـالهم . وفـى فصـل الشـتاء .. هنـاك مـا يسـمى بـ – السحلب – ، يصنع من الليل في حلـة ، وهـو يتكـون من الدُّخن المطحون والسكر والماء ، ويسخن في الصباح ، وهو يشبه الحساء .. لكنه حلو . ويقـدم إلـى الزبـائن فـي كبايات .. بعد أن يرش عليه شيء من القرفـة والزنجبيـل .. بغية التدفئة .

وكنـت سـعيدا بهـذا العمـل الـذى أحصـل مـن ورائـه قروشـا .. أقدمهـا إلـى والدتـى ، وأنـا سـعيد بهـذا النجـح وتوفيق الله . وفى أكثر الأحيان .. وأنا قد عملت في أكـثر من مقهى في تلك السن المبكـرة فـي مسـقط رأسـى ، فـي أغلب الأحيان أنال طعامى في مـنزل الـذى أعمـل عنـده أو

معه ، وجبة الظهر فقط ، أما في المساء .. فـإني أعـود إلـى المنزل الذى تقطنه والدتى .. لنتعشى معا ما يهىء لنا خالقنا من رزق ، وأجرى أتقاضاه كل أسبوع ، بمعــدل فرنكيـن ، أو ليرتين إيطالية في اليوم .

قضيت نحو ثلاث سنين في العمل فـي مقهيين ، وبعد ذلك زهدت في هذا العمل الردىء فتركته .

ولعل أخــي مـن أبى الأكـبر .. يريدنـى أن أعيـش معه وأترك والدتى ، ولكنى أبيـت ورفضـت ، ولمـن أتـرك أمـى وهى عندى بالدنيا ، حناناً وحباً وإيثاراً وعطفاً ! من لها بعـد الله سواى ؟

ولن أنسى ذلك اليوم العصيب ، قبل أن أتوجـه للعمـل في المقاهى ، فقـد كنـت أجلـس أمـام دكـان أخـي ، وفيـه يعمل قريب له ، ولأخى خادمة من البادية .. تأتى بعد الظهر إلى العامل فـي الدكـان بغدائـه .. ممـا يطبـخ فـي المـنزل ، وجاءت في ذلك اليوم بصحن فيه إيدام ، وهو صحن صغير يكفى لنفر واحد ، والخـبز يؤخـذ ممـا يبـاع فـي الدكـان ، وبقيـت أنـا أمـام الدكـان .. وكنـت جائعــا ، وعــزم علــىّ الرجل ، فشـاركته طعامـه المتواضـع ، وقبـل أن أعـود إلـى المـنزل الــذى فيــه والدتــى ، إذا بــأخى يــأتي فــي تلــك

الظهيرة .. وفى يده حبل ، وأخذ يجرنى من إحدى يـدى ، وبـالأخرى يضربنـى ضرباً مبرحـاً ، وأنـا أبكـى مـن الألـم والضرب حتى أوصلنى إلى المنزل الذى به والدتـى. . ثـم تركنى ، بعد أن عنفنـى وشـدّد علـىّ ، وجرمـى أنـني جـائع وأصبت لقيمات من ذلك الايدام مع الرجل الذى يعمل فـي دكان أخي .

وكانت قسوة لم أعهدها ، وكان درساً لي ، هو الـذى دفعنى للتوجه إلى العمل الشريف .. لأستغنى به ووالدتـى ، وكم تألمت وكم حزنت ، وأنا ابن السنين العشر ، والطفل لاينسى لا سيما الأيـام والسنين القاسـية ، لكـن القسـوة .. تشحذ النفوس وتربى ، فالشظف يبنى الإنسـان ويقـوى فيـه الارادة .. والاعتماد على النفس بعد الله عـز وجـل ، علـى حين أن الترف يدفع إلى الدعة والخمول والتسيب .. وإلـى العبـث وعـدم المبـالاة ودروس الحيـاة كثيرة ، والإنسـان البصير .. يأخذ منها عبراً وتجـارب وخـبرة ، ويـزداد علمـاً بها ، والعرب تقول : " نعم المـؤدب الدهـر " . ولا يكـون ذلك كذلك في أكـثر الأحيـان .. إلا من خـلال القسـوة ، والقسوة عامل للازدجار .. كما يقول أبو الطيب ، ولكن ما يعنيه المتنبى .. ليس حالي وظروفى وقسوتها . وأحمد اللـه

إليه ، فقد علمتنى الحياة كثيرا ، ومن هذه الـدروس الصبر علـى المكـاره والتجمـل والقناعـة ، والنظـر إلـى مَـنْ هـم دونـى ، وفـى التوجيـه الإسـلامى المزيـد مـن الحـث علـى تحمل الشدة ، والاتكال على الله .. والسـعى فـي الأرض، وأن الرزق والاجل بيـد اللـه ، وأن مـا أصـاب الإنسـان لـم يكن ليخطئـه ، ومـا اخطـأه لـم يكـن ليصيبـه ، فقـد رفعت الأقلام وجفت الصحف .. كما يعلـن الحديـث الشـريف ، فالحمد لله على كل حال إلا حال أهل النار !

• • •

- ٦ -

تركت العمل في المقاهى ، وتوجهت لأعمل في "فرن" ينتج الخبز الابيض ليلا .. ليوصل صباحا إلى الدكاكين لبيعه ، ثم يعمل الفرن نهارا .. لخبز البيوت والصوانى ، التى تحوى اللحم وما إليه ، حيث لم يوجد يومئذ أفران الغاز في البيوت ، والأفران العامة .. هى التى تؤدى هذه المهمة .

إن أجرتى في هذا الفرن الذى ذهبت إليه واستقبلنى وقبلنى ، كانت ثلاث ليرات إيطالية .. في اليوم ، وهى أجرة عامل ، يعمل دواما واحدا ، غير أن عملى كان شاقا ، لكنى كنت صغيرا وطموحا وفرحا ، لانه أصبح لي دخل يجزىء في حدود الكفاف .. والدتى وأنا ، وكنت سعيدا بهذه الحال التى وصلت إليها ، ولم أتضجر من كثرة العمل .. ليل نهار ، ولم أشك ولا أتأفف ، وإنما كنت مغتبطا ، وكانت أمى عليها رحمة ربى فخورة بى .. لانى أوشك أن أصبح رجلا ، وان كانت تشفق علىّ من التعب وكثرة العمل ، وكنت أصبرها وأطمئنها .. بأن العمل للرجال ، وهذا دورى في الحياة .. لأرد إليها شيئا يسيرا

من فضلها عليّ بعد اللّه ، فكانت تفرح وتسيل دموعها من الفرح ، وكانت كثيرة الدعاء لي بالتوفيق والنجح والسداد.

إن عملى في هذا الفرن الذى التحقت به ، يبدأ من الصباح الباكر .. مع طلوع الشمس ، أو قبل ذلك بقليل ، لأحمل الخبز على – أتان – إلى الدكاكين المعروفة عندى ودللت عليها ، وكل دكان يأخذ ما يوصى عليه ليلا .. من كمية الخبز ، وليس ثمة – رجيع – .

وبعد توزيع الخبز .. أذهب بكروسة تجرها الاتان إلى " المناجر " .. التى تصنع الأبواب الخشبية ونحوها ، لآخذ منها " النشارة " ، التى نحمى بها الفرن ، والمناجر .. تريد التخلص منها ، وأحمل معى أكياس خيش لأملأها بالنشارة . . وأعود بها إلى الفرن قبل الظهر ، حسب الحاجة ، وحسب ما أجد ، وفي بعض الأحيان أشترى هذه النشارة حين تقل ، لانها أرخص من الحطب بكثير .

وحين أعود إلى الفرن .. أبدأ في العمل باستقبال خبز البيوت ، وأجد الفرن حاضرا حاميا ، فقد تولى صاحبه وأسرته هذه المهمة في غيابى .. بعد الانتهاء من عمل الخبز الذى يباع في الدكاكين ، واستمر فىالعمل إلى نحو الساعة الثانية والنصف ، وأتناول غدائى مع الرجل الذى

أعمل معه ، وقد كان أصحاب المقاهى وصاحب هذا الفرن يعدونني كابن لهم ، لانى كنت وديعا ومطيعا ومسالماً وضعيفاً .. وأريد أن أعيش ، كما كنت ملتزما بالعمل ، أؤديه بجد واخلاص وتفان ، بعيدا عن الكبر والغطرسة والشجار . وخلال حياتى كلها ، فانا أحب عملى إلى حد العشق ، ذلك من توفيق الله ورحمته وفضله . من أجل ذلك كنت محبوبا عند الذين عملت معهم وعندهم . وهو في كل الاحوال توفيق الله عز وجل ، فله الحمد على منّه وفضله .

وكنت أعمل بعد الظهر إلى ما بعد المغرب في استقبال خبز البيوت . وأعمل بعض الوقت في عجن الدقيق الذى يصنع منه الخبز ، والعجن يومئذ – يدوى – ولم يكن آليا . و" أُقرّصُ " الأرغفة وأهيئها ، واكتسبت مرانة .. حتى أنني أزن قطعة من العجين مرة ، ثم اقتطع من غير أن أزن ، لأن يدى أصبحت ميزانا . وحين ازن قطعة بعد عشر أجدها لاتزيد غراما ! ألم أقل إنه عشق العمل وحبه ؟

وكنت أذهب إلى المغازات لاشترى الدقيق ، وأحمل على ظهرى الواهن الكيس الذى زينته ثمانون كيلو غراماً ، ولا أشكو ولا أطلب العون إلا من الله .

ومرت حياتي رخاء في هذا الفرن ، سعيدا بعملي بقرب والدتي .. التي تحنو عليّ وتسعد بي ، وأنعم بذلك الحنان الدافق بإيثاره وحرارته ، وذاك الحب الذى لا نظير له في الدنيا ، فأجد السعادة .. في حياتي المحدودة بشظفها وكدها وضيقها ، وكانت رضا ، لاسيما مع العافية ورضا الأم وحنانها ، هي لي وأنا لها . فأختي الكبيرة تزوجت من العائلة ، والأخرى مع أخيها الكبير . ووالدتي وأنا في عالمنا المتواضع والكبير العريض في آن ، لانا سعداء بحياتنا ، وهي تخشى عليّ حتى من هبوب الرياح ! أليست أما بارّة .. وادعة حانية ، في قلبها رحمات تسع الدنيا وتزيد ؟ إنها من رحمة الله .. المقدر الحكيم سبحانه لانحصي ثناء عليه ، ولكن هو كما أثنى على نفسه ، له حمد الشاكرين .

• • •

الفصل الثاني

- ١ -

إن أيام العمل في " الفرن " لم تدم طويلا ، ولم تعمر ، فقد عصفت بها الاحداث الجسام ، وكانت أياما هانئة رخية وادعة . لم يعكّر صفوها شيء ، وكانت دفئا وهناءة ووداعة واستقرار نفس .. وطيب حياة ، ولكن الأيام عودتنا ألا تدوم على حال واحدة ، فهى قُلَّب كما يقال ، وكل شيء بتقدير الله . والحروب هى التدمير والتخريب ، ولست أعنى الجهاد الإسلامي وفتوحاته ، فتلك كلها خير . ولكنى أعنى .. حروب الاعتداء والطغيان والفناء الطاحن ، والحرب .. تأتى على الاخضر واليابس ، فهى لا تبقي ولا تذر .

ولن أنسى تلك الليلة .. في منتصف شهر شعبان ، والناس في المساجد مجتمعون ، فقد تعودوا في تلك الليلة من كل سنة أن يدعوا ربهم بعد صلاة العشاء أو قبله لا أدري ، فهم يُقدّرون أن تلك الليلة يستجاب فيها الدعاء ، ولعلهم يستندون إلى أحاديث .. لا أعلم قوتها من ضعفها ، فأصبح عندهم عادة .. أن يدعوا الله بما شاءوا ، طمعا في فضله ورحمته .

كان الناس في المساجد في تلك الليلة ، من عام "١٩٣٩"م ، يدعون ويلحُّون في الدعاء والرجاء ، وفجأة انطفأت الانوار الكهربية في المساجد والشوارع ، وقد فزع الناس حين سمعوا صفارات الإنذار أو النذير .. تقرع الآذان ، ولم يعرفوها من قبل ، ولم يتعودوها ، ودار هرج ومرج ، فإذا الواعون منهم يقولون : إنها الحرب بين إيطاليا والانجليز ، وأنا لم أع شيئا مما سمعت ، ولكني هرعت إلى والدتى فزعا .. أقول لها : الحرب الحرب ، ولا أدري شيئا عن تفسير كلمة الحرب ، ولا عن الطرف الآخر .. الذين هم الانجليز !

وربما لم يحدث شيء في تلك الليلة من المكروه ، وبعد نحو الساعة والنصف والناس على أعصابهم ، ولاسيما الجيل الناشيء من الأميين الذين لا يعرفون شيئا عن الحرب وأوصابها ودمارها ، أما الكبار ، فانهم يذكرون .. الجهاد ضد إيطالية الغازية الغاشمة الفاشستية لبلادهم .. في عام "١٩١١"م . وقد استمرت في برقة[٨] عشرين عاما ، بقيادة المجاهد الشيخ عمر المختار ، الذى كان يتحرك خلال عقدين من بين شعاف الجبل الاخضر مع المجاهدين البواسل لقتال الغزاة المعتدين ، ولم تنته الحرب في برقة ..

إلا بعد أن قبض على الشيخ المجاهد وأعدم شنقا ، وهو يدافع عن وطنه .. ببسالة وشجاعة قل نظيرها ونظيره ، وقد بلغ الثمانين من العمر .. أو تجاوزها !

وتكلم عمر المختار "قولوا لهم .. لن تمضوا بمجد شعبنا ، وكبرياء أرضنا .. عودوا إلى بلادكم ، فالريح تلهو بدخان المدخنة ، والحُر ليس يُشترى .. ولا يبيع وطنه".

وكان يسيّر الجيش الغازي .. السّفاح الجنرال – غرازياني – ، قائد القوات الفاشستية في برقة .. منذ العقد الثالث ، من القرن العشرين . وكانت الأسلاك الشائكة تسد الطريق على المجاهدين .. حتى لا يصلوا إلى معسكرات الإيطاليين ، يغزونهم قبل الفجر .. وهم رقود ، فينتقمون منهم ، من خلال هجمة خاطفة ، ثم يفرون .. قبل أن تنهض النجدة بقواتها ومدافعها وطائراتها .. التي لا قبل لأولئك المجاهدين بها .

والأسلاك الشائكة .. تحيط كذلك بالأسر البرقاوية ، والذي يُقضى يُدفن مكانه ، وطعامهم دقيق مر ، إلى جانب الضرب والإهانة والاعتداء على الأعراض .. والشنق والتقتيل.

وقد انتقم القوي العزيز لذلك الشعب المسكين ، من

ظالميه والسفاحين قاهري الشعوب المستضعفة ، الذين يعيثون في الأرض فسادا . ﴿والله لا يحب الفساد﴾ ، وقد أذن الحق ﴿للذين يقاتلون ، بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير﴾ .

أخذ الناس والإيطاليون حكومة وجاليات .. يحفرون الخنادق في الأراضي الجبلية ، ويصبون الاسمنت المسلح ، تحسبا للغارات الجوية وويلاتها ، وطليت لمبات الشوارع باللون الازرق .. ليخفت ضوؤها وكذلك فوانيس السيارات ، وصدرت تعليمات باطفاء الأضواء .. عند سماع صفارة الانذار واضطربت الحياة العامة ، وشعر الناس بالخوف والفزع . حين بدأت طائرات – الحلفاء – تقذف قنابلها على المساكن .. وعلى الآمنين ، وبيوتهم المبنية من حجر وطين .. وسقف من عيدان الأشجار ، فهى لا تحتمل أطنان القنابل ، وحتى عمائر المسلح الحكومية والأغنياء .. لا تقاوم هذه الصواعق !

اضطربت إذن الحياة في البلاد .. حين أخذت طائرات الانجليز تقذف حممها علىالآمنين والجيوش الإيطالية .. بتلك الغارات ، التى تبدأ ليلا فتفزع الناس من نومهم ، ويهرعون إلى الملاجىء والخنادق ، هربا من الموت

والدمار ، وليس للغارات وقت فهي بعد العشاء أو عند منتصف الليل ، ومع الفجر ، والمزعج .. حين تأتي شتاء والدنيا برد ومطر ، وأعباء من عندهم أطفال .. أكثر إيلاما ، فيذهبون تاركين كل شيء فرارا بأنفسهم . وفي بعض الأوقات .. تنطلق صفارة الانذار ، ويسرع الناس إلى الملاجيء الباردة والمظلمة ، ويمكثون هنا ساعة وربما أكثر .. في ذلك الظلام الدامس ، ثم لاتأتي الغارات ، فتنطلق صفارة الإنذار مرة أخرى .. إيذاناً بعدم وجود غارة جوية !

وبدأ القادرون من الناس .. يتركون المدن .. إلى أماكن بعيدة تبلغ عشرة كيلو مترات ، إلى عشرين ، هروبا من ويلات الحرب والموت ، وهناك بعيدا عن المدن ، ينشئون مايؤويهم من الأكواخ وبيوت الشعر ، ويستضيئون بالفوانيس ولمبات القاز ، ويضعون أهليهم ويحملون الغالي مما يملكون ، وكان الكثرة أقرب إلى الفقر ، وبعضهم يستأجر الكوخ والحجرة ليضع فيها أهله ، وهو يتردد على المدينة نهارا ، على دراجة عادية ، أو على دابة ، ويتاح للبعض أن يركب في سيارات الجيش .. التي تهرب مساء تحت النخل والأشجار .. خارج المدينة ، وتعود صباحا .

لكن الحياة كانت مشلولة ومخيفة ، لان الغارات الجوية قتلت الناس وهدمت عليهم بيوتهم وأحرقت ممتلكاتهم بتلك القنابل الحارقة !

وبعد فترة تركت العمل في الفرن ، وذهبت مع والدتى ومع أختى المتزوجة إلى منطقة تبعد نحو "١٢" كيلا جنوب بنغازى ، وعملنا بيتاً من رقيع .. يؤوينا ، وننزل صباحا إلى المدينة .. لنمارس أي عمل ، وقبل أن تغرب الشمس نعود بالدراجات إلى أهلينا ، كل حسب ظروفه ووقته ، وكنا نلاقى عناء في الشتاء ، فالأرض طين والمطر تنشيء وحلا ، فلا تحملنا الدراجة ، ونضطر إلى السير راجلين ونقود دراجاتنا ، ولسنا جماعة ، ولكن .. كل واحد وظروف عمله ، ويحمل في جرابه ما يتاح له من رزق ، خبزاً وخضرةً وسكراً وشاهياً والطبخ على الحطب من الأشجار ، وتقوم بجمعه النساء ، والرجال يوردون الماء في براميل خشبية أو قرب ، ويحمل على الدواب من البئر إلى السكن في بيت الشعر وبيت الشعر حار في الصيف ، لذلك تلجأ النسوة ، وخاصة نسوة البادية .. إلى عمل بيوت من الملابس القديمة الباردة الطبيعة ، تخاط متلاحمة بخيط دبارة ، وأروقة إلخ ، وهي التي تسمى بيوت

– رقيع – . ويخبز القادرات من النساء في التنور ، وخبزه لذيذ من الشعير والحب معا ، لاسيما وهو ساخن . والجوع يجعل لذته أعمق في النفوس الجائعة !

وفرضت الحكومة تموينا بالبطاقات ، لأن المواد الغذائية نقصت ، وأصبحت طائرات الانجليز .. تتعقب البواخر الآتية إلى ليبيا لتضربها بالقنابل وتغرقها .. قبل أن تصل إلى الموانيء .. وقبل إفراغ حمولاتها . بل تضربها وهى راسية في الموانيء خلال تفريغ ما تحمل من سلع تموينية وذخيرة وغير ذلك .

والبلاد أصبحت شعلة من نار .. حين تأتى الغارات الجوية ، حيث تتصدى لها المدافع من كل مكان لاسقاطها ، وقست الحياة ، فالماء من الآبار ، وبعضها غير عذب ، وعمقها يصل إلى ثلاثين وخمسين قامة ، والرعاة أصحاب الماشية يعينون النازحين بتملئة قربهم وبراميلهم ، لان هذا العمق يحتاج إلى دابة تمتح الماء ورشاء ودلاء ، وحال الناس الضعف وعدم القدرة .

وإن أنس لا أنسى تلك الليلة .. التى سعيت فيها إلى حيث والدتى وشقيقتى على دراجتى مع المغرب ، وفى الطريق المظلم .. "بنشرت" إحدى عجلتى الدراجة ، وأنا

معى أدواتي من آلة نفخ هواء ورقع اللستك ومفاتيح إلخ .

ونحن في ذهابنا وإيابنا .. نمر بين المدافع والدبابات والقنابل ، وعليها الجيوش ، والحال حرب وموت ، وكل يوم حين تأتى الغارات تدمر ما تأتى عليه . وقد تعودنا هذه الحال ، وموت إنسان أو جماعة شيء عادى جدا في الحروب . والإنسان يتعوّد ركوب الاخطار .. وهو مدرك لها ، غير أنه ليس أمامه خيارات ، فهو إذن مكره على إيلاف الحياة التى أمامه ، والاصطلاح مع متغيراتها وتقلباتها ، والائتلاف مع قسوتها ونكدها وعسرها .

أخذت أصلح اللستك في دراجتى ، وأستخرج الشوكة التى أدت إلى العطل من الكاوتشوك .. وأضع مادة لزجة على الخرم في اللستك ، ولا بد من الانتظار حتى تجف ، لأضع عليه اللصقة ، ثم أدخله في الكاوتشوك والعجلة ، وأملأه هواء .. لتصبح العجلة صالحة للاستخدام ، كل ذلك في الظلام وبالتحسيس .

وخلال انتظار جفاف مادة اللصق ، وأنا تعب .. غفلت عيناى وقتاً ربما يبلغ الساعة ، وربما أقل وربما أكثر ، ثم أفقت ، وأنا في خلاء وظلام دامس .. وحيداً ، لا أحد يمر في ذلك الوقت ، كانت سنى لاتتجاوز أربعة عشر ربيعا ،

وحين أفقت .. أسرعت لاصلاح اللستك ونفخه ، والاسراع كذلك إلى ادراك والدتى ، ولابد أنها قلقة عليّ إلى حد الانزعاج .. تنتظر عودتى ، لأنى لم أتعود أن أبيت في المدينة التى قوّضت أمنها وأمانها الحرب والغارات المدمرة ولم نكن في عصر تطور ، فيه هواتف و"بيجرات" واتصالات ، وأن المتأخر يبلغ أهله ومنتظريه بظرفه .. وتفسير وجهته إذا حدث شيء من ذلك ، ولكننا في زمن ركود وتخلف وبدائية ضاربة أطنابها .

أصلحت عجلة دراجتى وسط ذلك الظلام ، ولو كان معى (كشّاف) ما استطعت استعماله ، لان الضوء يدل الطائرات على مكامن الجيش ومخابئه ، وربما يعتبر من يفعل ذلك جاسوساً وعميلاً ، فيُقتل فوراً بطلقة رصاصة .

واصلت سيرى .. بعد أن تأكد لي اتجاهى ، لانى كنت نائماً ، وربما أخطىء التوجه .. فأعود إلى المدينة التى كنت فيها ، والسير خطر ، لأن التجوال مباح في أوقات محددة ، وكذلك المرور بين الثكنات ومخيمات الجيش ، وبين المدافع والدبابات ، إنه الموت الزؤام ، وما يحدث لا يُسأل عنه أحد ، إنها الحرب وكفى !

وحين اقتربت من النجع – مجمع بيوت الشعر

والرقيع – وجدت والدتى رحمها الله علـى قارعة الطريق تنتظرنى في هلع وفزع .. كما أحسست ، وإن كانت من الصابرات والهادئات الطبع ، ولعلها كانت متوجهة إلى بارئها .. تدعوه في علاه أن يحفظنى ويوصلنى إليها سالما . ولو كان الأمر بيدها .. لما تركتنى أنزل كل يوم إلى المدينة ، سعيا وراء رزقها ورزقى وهى تعلم أننا نكره أن نكون عبئا على زوج شقيقتى وعالة عليه .

ولا أستطيع وصف سعادتها وفرحتها .. حين رأتنى أسرع إليها معانقا ، شارحاً ظرف التأخير . ولعلّي أعلنت لها أنني سأحرص على العودة مبكراً في الأيام القادمة .. بمشيئة الله ، حتى لا أسبب لها قلقا وعناءً .. في حال تأخيرى .

• • •

- ٢ -

لا أحـد يعـرف .. متـى تضـع الحـرب أوزارهـا ، وقـد امتدت بها الشـهور ، والدمـار يتجـدد كـل يـوم .. بـانهدام المنـازل المبنـاة مـن الطيـن والحجـارة ، علـى مَنْ فيهـا أو كانت خالية .

والناس في الجلاء – كما كان يسمى – يلاقون قسـوة القـر والحـر ، فـي تلـك البيـوت البدويـة ، التـى تلعـب بهـا الرياح ، وتؤثر فيها الامطار في الشـتاء ، وتنقطـع حبالهـا – الرمة – وقد ينخلع الموثـق – الوتـد – ، ويحفـر مـن فيهـا مايسمونه النـاى – ، حول البيـت ، وهـو مجـرى .. يجنـب دخـول المـاء إلـى البيـت المكـون مـن – رقيـع – ، كمـا أشرت آنفا ، هى خروق باليـة ، فهـو متهـالك خـلاف بيـت الشعر الثقيل المتين ، ولكنه غال ، ولا يوجد فـي الظـروف القاسية .

والتعب ليس وقفا على الاقامة فـي البـرارى وعنائهـا .. وقسـوة الحيـاة فيهـا ، مـن تحطيـب وورد المـاء وقسـوة الطبيعة ، على حين أن الحياة في المدينة أيْسر وأقـل مؤونـة وأقل كذلك عناء ونصبا . والتعـب فـي الاقامـة البريـة رغـم

البعد عن ويلات الحرب وسقوط القنابل والموت المتواصل .. بلا رحمة ، التعب في ذهاب الرجال القادرين على العمل كل يوم إلى المدينة ، لينالوا قوتهم ومن يعولون ، وأنا أعنى الطبقة الفقيرة الكادحة ، وهى الأكثرية . أما ذوو الغنى .. فالأمر بالنسبة إليهم يسير ، حتى أن بعضهم بنى واستأجر منازل وحجرات من أصحابها ، لاسيما على الشريط الساحلى .. الممتد شرقا وغربا من مدينة بنغازى ، بعيدا عن ويلات سقوط القنابل والفناء .. الذى بغير حساب .

ولست أذكر الآن .. كم مضى من الوقت والحرب على أشدها ، غارات ليلية من الطائرات البريطانية ، وقد تكون نهارية أحيانا ، ولست أنسى ما عشت تلك الغارة النهارية ، ولعلها كانت في شهر رمضان ، ربما من عام "١٩٤٠"م ، والناس في زحام ، بعرباتهم ودوابهم ، يتسلمون التموين الأسبوعى من محاله ، ويتسلمون الخبز .. الذى يوزع يوميا ، ببطاقات فيها عدد أفراد العائلة ، فجاءت الغارة المدمرة ، ورأت ذلك التجمع ، فأمطرته بوابل من قنابلها ، فكانت مجزرة ، اختلط فيها لحم الإنسان بلحم الحيوان ، مع العربات والارزاق ، وكان

منظرا عند من رآه محزنا ومبكيا وأليما . وكان السخط والدعاء على الانجليز ودعاة الحرب والدمار وهلاك الشعوب .

استمرت الحرب والغارات شهورا ، ربما بلغت الستة ، وربما أكثر من ذلك ، وتلك الجولة الاولى منها . حتى إذا أفاق الناس من سكان بنغازى ذات يوم .. رأوا الجيش الايطالى يرحل ، بدباباته ومدافعه والسيارات التى تحمل الجنود ملأى بهم ، وأخرى تحمل ما تستطيع من التموين ، وبعض الجنود يسيرون راجلين ، لانهم أكثر مما تستوعب السيارات المتاحة ، ولايمكن أن تنقلهم المواخر ، لانهم يتعرضون للهلاك من طائرات الحلفاء .. التى تتربص بهم الدوائر . وهذه الجيوش الإيطالية الراجلة تتوجه غربا بالبر .. نحو "طرابلس" . وظهر فيما بعد أنها متقهقرة من جبهة القتال الشرقية من السلوم وطبرق ، وهى المدن التى تقع غرب الأراضي المصرية .

وبعد يومين أو نحوها من جلاء القوات الإيطالية ، وقد تركت خلفها مخازن التموين ملأى ، أغار عليها المواطنون ، كل حسب جهده وقدرته ، وترى مجاميع منهم عندهم عربات – كارو – تجرها دواب .. يذهبون

إلى تلك المخازن الملأى بالدقيق والسكر والصابون والملابس العسكرية وغيرها .. يحملون منها قدر الاستطاعة ليل نهار . ونادر جدا من عنده سيارة لورى .. جمع حوله من يعينه على شحنها ونقلها إلى منزل من منازل أحدهم ، ثم يقتسمون هذه الغنيمة .. بعد الفراغ من جلب ما يمكن جلبه . وكان كل من عنده دراجة أو عير .. فإنه يحمل عليها كيس دقيق أو كيس سكر أو ما تصل إليه يده . وأذكر أنه أتيح لي تحميل كيس دقيق على دراجتي التي كنت أملكها . وأذكر كذلك أن ثَمَّ بعض الجيش الايطالى .. لم يغادر بعد ، كان يطلق الرصاص في الهواء ، تخويفا للناس الذين أغاروا على مخازن التموين ، حسدا من عند أنفسهم . والناس يعرفون مخازن تموين الجيش ، لانهم يعملون مع الجيش الايطالى ، وهذه المخازن توجد قرب ثكنات الجيش ، و أحيانا في جوانب من الثكنات نفسها . وقد سعد الناس بما حصلوا عليه من تموين ، ليعيشوا عليه أيامهم القادمة ، وهم لا يدرون ماذا في مخزون الأيام المقبلة من المجهول !

بعد يومين كما قلت من جلاء القوات الإيطالية – مغربة – ظهرت طلائع الجيش البريطاني ، قادمة من

الشرق ، من جبهة القتال ، ومن الأراضي المصرية .

ولأول مرة نرى ويرى الناس الجنود الانجليز وضباطهم ، في دباباتهم وسيارات نقل الجنود ، وزِيهم الذى يختلف عن الزِى الايطالى ، ولغتهم التى يتحدثونها ، والتى لا نعرفها ولا نتحدثها . وربما نجد بعض الاغنياء أو أبناءهم .. الذين أتيح لهم أن يعيشوا في مصر ، وأن يتعلموا فيها ، أو في غيرها ممن يتحدث الانجليزية ، ولا أعتقد أنه كان في ذلك الوقت المبكر مَنْ بعث بأبنائه إلى بريطانيا للتعليم ، فالمستعمر هو المتحكم . والذى يقدر على الدرس العالى فليس أمامه سوى إيطاليا بثقافتها ومعارفها!

واحتفى الشعب المسكين الفقير البائس بالجيش الانجليزى ، ولعله كان يرى فيه بسذاجة الشعب وبساطته وجهله ، كان يرى فيه المنقذ ، وعلى الأقل .. انتهاء الحرب والدمار ، وأن يعم البلاد الاستقرار والأمن والهدوء والحياة الوادعة ، وربما الرخاء . لأنه شعب جاهل أميّ ، لا يفقه شيئا في السياسة والحرب ، والكر والفر . ولعل الكبار من أهل البلد .. الوجهاء والاغنياء ، والذين تعلموا في إيطاليا ، لعل عندهم تقديرات وحسابات وتخمينات، ، ونحن الطبقة الكادحة الأميّة لا نفقه شيئا مما حولنا ، فنحن

نعيش يومنا ، ولا ندرى ماذا نكسب غدا ! وأنا يومها غلام في نحو الرابعة عشرة .

واحتل الجيش الانجليزى ديار ومعسكرات الإيطاليين وسلبهم الذى تركوه أو قل المعطل منه ، وما لم يستطع حمله ونقله . وأخذ بعض الناس من العمَلَة .. ليعملوا في معسكرات الانجليز ، وأخذ أبناء الفقراء أمثالى .. من الذين يربُّون دجاجة أو أكثر في بيوتهم ، يحملون بيضات إلى الجيش البريطانى .. الذى يتطلع إلى البيض ، لتكون هناك مقايضة ، بيضات لقاء حفنة محدودة من الشاى ، لأن الشعب الليبى كغيره من الشعب العربى – كييف شاى – ، وقد شح الشاى وندر وجوده . وأذكر أن الناس يحمصون الشعير إلى قرب الاحتراق ويحمصون معه حبوب الكزبرة الناشفة ، ثم تطحن ، بل قل تدق في – مهراس – من شجر الزيتون أو من الحديد ، ليصنع منه إيهاما ما يسمونه قهوة . ورأيت قراطيس يسمونها "شيقوريا" قطع جافة ، تغلى في الماء مع – التمر – بدل السكر المفقود ، ليقال إنها شاه . المهم .. "رائحة أبوعلى ولا عدمه" . كما يقال في الأمثال العامية .

والجنود الانجليز مثل غيرهم من البشر ، والتعامل

معهم .. مع الأبواب الخلفية من المعسكرات .. التى كان يشغلها الإيطاليون ، مثل كازيرما ، بمعنى مركز ، توريلى ، ومقاقاتا ، "٥٧" وبعضها .. يرجع إلى أسماء قواد وأسماء شهيرة إيطالية . والمركز الجديد .. الذى ليس له اسم ، يسمى باسم المنطقة التى هو فيها . فالجنود كغيرهم من البشر وهم بشر ، بعضهم يأخذ منك البيض ويأتيك بحفنة الشاى ، وربما كان معها – بكت بسكويت – وبعضهم يأخذ منك البيض ويذهب .. ولا يعود إليك . وينتظر المسكين أمثالى ، ربما ساعة ، وربما أكثر ، لعله ينتظر الأمل أو اليأس ، ثم يعود إلى أمه كسيفا حزينا ، لانه لم يحصل على الحلم ، وهو غرامات من الشاى ، وخسر البيضات التى كانت في يده ، ولو طبخها وأكلها لهانت الحال ، ولكن نفوس المسنين تريد شاهيا .. يوزن الدماغ كما يقولون !

• • •

- ٣ -

ويعود الكثير من الجالين إلى المدينة ، طمعاً في الأمن والأمان والاستقرار ، وقد انهكهم البَرُّ والتعب ، وهم يأملون أن الحرب قد تنتهي ، أو أنها انتهت ، ولكن لا يكاد يمضي يوم أو يومان ، حتى تبدأ الغارات الجوية ، وهذه المرة إيطالية ، ثم اضيفت إليها ألمانيا ، التياندفعت بتهور أدولف هتلر ، لينضم إلى إيطاليا ، طمعا في زعامة أوربا والقضاء على سكان الجزر البريطانية . وهؤلاء العسكريون .. وقد عايشنا نماذج منهم ، لايعرفون السياسة ، وهم فاشلون فيها ، وليس لهم حسابات ، وهم لايقرؤون التاريخ ، ولكنهم وصلوا ، أو قل كثيرا منهم إلى السلطة بمغامرة ، وما أكثر مغامراتهم ، وما أكثر مغامرات بعض الناس في حياتهم ، لاسيما ذوى الاطماع والاندفاع غير المحسوب ، وغير المقنن ، وغير الذى فيه احتياط للعواقب ، وتكون النتائج هزيمة مرة وانسحاق وبلاء على الشعوب !

ويشتد القصف الجوى على بنغازى والمدن الأخرى الساحلية ، ويتجدد الجلاء إلى الخلاء مرة أخرى ، فرارا

من الموت ، وقد اشتد الهلع بالناس ، لاسيما الذين كانوا .. في شبه أمان بعيدا عن المدن ، وهدف القصف الجوى هو التخريب .

وعدت ووالدتى إلى البر .. في منطقة قريبة تسمى "خرمو" ، تبعد نحو (١٠) عشرة كيلو مترات عن البركة جنوبا . وفى هذه المرة .. كنا مع عم لي اسمه على ، وهو ابن جارية كان يملكها جدى لأبى .. عبد الله بومدين رحمه الله ، وبالمناسبة أذكر أنه كان لأبى ثلاث أخوات ، واحدة لها خلف ، والأخريان لم تخلفا . واستبدلت بدراجتى عيراً ، وقد أقبل الخريف ، وطمعت أن أحرث في قطعة أرض حيث نقيم في (خرمو) ، والحرث يعتمد على رحمة الله في المطر ، فإذا لم ينزل مطر مجزٍ .. ذهب الحرث سدى ، وقد كانت سنو الحرب جدبا وقحطا ، وعمّى على ويلقبونه - الهشكة .. له أتان قوية .. تشبه الأنواع الحصاوية أيام زمان . لكن حُميرى ضعيف ومسكين ، ضعف صاحبه وحاله !

ومن الصباح الباكر في أيام الخريف ، موسم الحرث .. أصحو لآخذ حمارى الاشهب ، فلونه رمادى ، وانطلق مع عمى .. نحو فضل الله ، ويبذر لي مساحة ..

في تقديره أنني اغطيها حرثا . وأبدأ على بركة الله أغرز سكة المحراث في الأرض[٩] .. بقواى الواهنة ، ودابتى مثلى ، ولكن الأشهب لا يستطيع جر المحراث ، فأضطر إلى تحريكه بعض الشيء .. حتى يتحرك أشهبى ، وقد يأتي أمام المحراث حجر ثابت أو منغرز في الأرض ، فلا يقدر الاشهب على اقتلاعه .

وجاء عمي عند الظهيرة لينظر ما أنجزت ، فرأى خطوطا في الأرض .. أشبه بخطوط الأطفال في ألعابهم ، فحثنى على غرز المحراث في العمق كما يعمل هو ، فقلت : إن جهد الاشهب ضعيف .. لايقوى على ما نريد ، فضحك وقال : رزق ربنا واسع ، ورحمته أوسع . وقدر أنه يكمل حرث " ميزورة "[١٠] الشعير ، وهى قدرتى وامكاناتى ، وتأتى زوج عمّي بالغداء إلى الحراثين ، وهو كسرات من عيش التنور الشعير ورأس بصل "ومطارة" من أدوات الجيش فيها ماء .. عبوتها نحو لتر وقليل ، وهو الشيء المتاح يومئذ . وكان المطر قليلاً ، لذلك فلم أحصد زرعى ، لانه كان ضعيفا ، لاحبوب في سنابله ، ولعل حرث عمي بالمثل . وأكلت الدواب الزرع بعد أن أوشك أن يحل موسم الحصاد . وأنهمَّ الناس لغياب

الغيث ، وكأنها حرب وكرب ! إنه تقدير الله تعالى ، ولكن الرزق عليه " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " .

والعير بطيء بالقياس إلى الدراجة ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . وحين أقرر النزول إلى المدينة ، فإني أنهض مبكرا لأسعى وراء رزقي ، وربما كلفت بعض الأهل أن يحصل لي على الخبز من التموين ، أما الدقيق والزيت والسكر ، فإني أتسلمها بنفسي .. كل أسبوع مرة .

ونفس الممرات في مداخل المدينة ، التي كان يشغلها الجيش الايطالي ، أخذ يشغلها الجيش البريطاني بخيمه الخضر الداكنة الصغيرة ، ومدافعه ودباباته وكثير من سيارات الجيش .. تذهب إلى خارج المدينة ، بعيدا عن عيون طائرات الإيطاليين والألمان ، فهي تختبيء تحت النخيل والأشجار وعلى الشواطيء !

وشمال أفريقيا .. من مصر إلى المغرب فيما أظن كان أهم مسرح الحرب الكونية الثانية ، قبل وبعد .. أن تتدخل الولايات المتحدة في مؤازرة الحلفاء ، وتوغل هتلر .. بعد أن احتل الدويلات والدول التي حوله .. بعضها في ساعات ، وقد دفعه طمعه نحو الاتحاد السوفيتي ، الذى نهض ليكون في صف عدوه أمريكا وبريطانيا . والاحن

تجمع حتى بين الأعداء . وتشرشل قال: إنه لايمانع في التحالف مع الشيطان من أجل بريطانيا .

واغتر بعض الناس بالانجليز ، وظنوهم المنقذ لاسيما والاحقاد دفينة في نفوس الليبيين على الإيطاليين ، الذين غزوهم منذ عام "١٩١١" م وشردوا أهليهم ، وقتلوهم ، ووضعوا الكثير منهم في مخيمات في " العِقيْلة "[١١] تحيط بها أسلاك شائكة وحراسة مشددة ، أسر ونساء ورجال والمؤونة دقيق مر ، وقد مات الكثير في هذا المعتقل الانتقامى ، لأن (برقة) ناضلت عشرين عاما ، بقيادة المجاهد عمر المختار رحمه الله ، على حين أن (طرابلس) رغم جهادها وابطالها الصناديد مثل رمضان السويحلى وعمر البارونى وصفى الدين السنوسى من القادة ، لم يمتد جهادها كما كانت الحال في الشطر الشرقى – برقة – ، والشاعرة البدوية تطحن الشعير على الرحى فوق نطع مقلوب وتردد :

مصّاصة ذيول الحوت علىْ دينهم ما حاربوا

وهي تعني جميع الحَضَر . وفى الحرب ، أو قل في بداياتها ، ليس هناك غالب ومغلوب ، ولكن النتائج تأتي في خاتمة المطاف .

- ٤ -

إن بعض الليبيين .. الذين اغتروا بالانجليز وانتصارهم على الطليان ، جنحوا إلى التعلق بهم ، حتى إذا آن الأوان لتقهقر البريطانيين من ليبيا ، كان بعض الليبيين في مقدمة الفارين معهم ، وأذكر أن بعض الشبان ، ومنهم الأخ محمد الكاديكى ، ابن عمتى وزوج شقيقتي فيما بعد ، وأحد اقربائى ، شرّقوا على دراجات عادية إلى مدينة (درنة) ثم ركبوا سيارات الجيش البريطانى إلى مصر ، ثم انخرطوا في الجيش السنوسى ، بقيادة الملك محمد إدريس السنوسى ، ملك ليبيا سابقا .. رحمه الله ، حيث كونوا مع المهاجرين نواة هذا الجيش ، وكان في قيادته السيد أبو القاسم أحمد الشريف وبعض اخوانه وأبناء عمه .

جلا الانجليز عن ليبيا ، وذهب معهم بعض الليبيين ، وعاد الإيطاليون إلى قواعدهم ومستعمرتهم ، ومعهم الجيش الألمانى .. الحليف والمؤازر . وكم أعجب الناس

في ليبيا ببطولة وشجاعة الجندى الألمانى .. وقدرته وقوته . وهو يختلف عن الجندى الايطالي والانجليزى ، ولم أر يوما ، ولا رأى الناس كما أظن جنديا ألمانيا مخمورا ولاساقطا ، على حين تجد الجندى الايطالى اشبه بالخنزير البرى القذر ، والجندى الانجليزى مخمورا ، وأسوأ منه الجندى الاسترالى سكرا وعربدة . والذى رأى ذلك الخليط من الجيش – الثامن – المرقَّع .. من مختلف المستعمرات البريطانية في افريقيا وآسيا ، مثل الهندى والباكستانى ، أو هى كلها هند يومئذ ، فلم تعرف أو تظهر بعد باكستان إلى الوجود ، والسودانى والنيجيرى وغيرهم من خلق الله . ولكن هَمّ بريطانيا وزعيمها المحنك القائد والخطيب والداهية .. "ونستون تشرشل" همه أن تكسب بلاده الحرب وأن ينتصر التاج البريطانى بأى سبيل تحقق ذلك ، وقد كان . لأن الحرب خدعة وحسابات ودهاء قيادة ، قبل أن تكون شجاعة وكثرة عدد وحتى عدة . وصدق شاعر العرب أبو الطيب القائل :

الرأى قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهي المحل الثانى

وكم تأسّف الناس إلى حد الحزن لهزيمة الجيش

الألماني في تلك الحرب الضروس ، وكم تمنوا انتصاره وفوزه في تلك الحرب .. مع انهم سعداء بهزيمة إيطاليا وانكسارها ، لانها عدوة ظالمة وقاهرة وطاغية ، كم أفنت وشنقت وعذبت الليبيين .. الذين وقفوا يدافعون عن ترابهم ببطولة نادرة عشرين خريفا ، سلاحهم الأول ايمانهم بخالقهم ، ثم تلك الشجاعة التى كانت مضرب المثل ، لأن عدتهم بعد ايمانهم بنادق تركية وغير تركية .. من ذلك المدد الذى يصلهم عبر الصحراء ، ولكنها الشجاعة التى تفعل المستحيل ، لأن السلاح في يد جبان لاقيمة له ، والوقوف سنين أمام جيش مدجج بالسلاح ، جيش منظم متدرب عقدين من الزمن ليس بالشيء اليسير ، لاسيما في تلك السنين العجاف ، بالقياس إلى العيش وقسوة الحياة والقحط ، إنها البطولة الحقة .. التى تحسب لصاحبها .. وتحسب لأهلها ، لأنها رمزهم وعنوانهم . ويقاتل بجانبهم الجيش العثمانى ، الذى كان يحكم البلاد ، والحال جوع وانقطاع امدادات التموين ، وسمعت الكبار يتحدثون .. أن ضابطا تركيا ، جاء إلى رجل بدوى .. ينشد طعاما ، لانه جائع ، فقدم له البدوى سويقا ، دقيق محمص مطحون ومعجون بماء ، وحين ذاقه عافه وتركه ، فقال له البدوى –

ترومه – يافندى ، يعنى سوف تألفه . وحين اشتد الجوع بالضابط التركى .. عاد إلى البدوى وقال له : هات ترومه ، يحسب أن اسم ذلك السويق ترومه ، فقدمه إليه!

وفى العصر الحديث رأينا أمثالها في افغانستان ، يرفدها مدد كبير ومال من الدول الإسلامية لم يتح لليبيين يومئذ ، ولكن جهاد الامة الافغانية .. عاد نكسة ، ومرد ذلك تلك الاطماع على كرسى الحكم ، فتحول الجهاد ضد اعتى دولة .. الاتحاد السوفيتى ، إلى أن يقاتل المسلم المسلم ، ليصبح الاثنان معا في النار . نعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات أعمالنا ، وندعوه عز سلطانه .. أن ينصرنا على أنفسنا حتى لانضل ، وأن ينصرنا على اعدائنا حتى لا نذل ، إنه على مايشاء قدير .

ومالاقاه الليبيون من الطليان لاقى مثله الاحباش ، حين غزت إيطاليا الحبشة عام ١٩٣٦ م ، وكان خيرة جيش إيطاليا .. الذين في المقدمة من الشبان الليبيين ، وقد مات أكثرهم في تلك المعركة الخاسرة .. بالقياس إليهم ، التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، ونحن ندرك أن الجندى الحبشى شرس وعنيف ، وقد رأيتهم بعد احتلال إيطاليا لبلادهم ، حيث جندتهم وأتت بهم إلى ليبيا ، رأيتهم في

معسكر خاص بهم ، والناس يسمونهم يومئذ – مصوع – ، لعلها نسبة إلى تلك المدينة في اثيوبيا "مصوع " ، وواحد الجمع – مصوعى – ، وهم يتحدثون اللغة – الأمهرية –.

حين جلا الجيش الايطالى عن ليبيا .. في المرة الأولى ، وجاء الجيش البريطانى ، بقى كثير من الجاليات الإيطالية في ليبيا ، وكان بعضهم يرقب حركة الشعب الليبى وتعامله مع الانجليز ، وربما كانوا يرصدون تصرفات وشماتة الشعب الليبى بهزيمة إيطاليا .. أمام الجيش البريطانى ، ولا سيما العائلات التى ذهب بعض شبانها مع الجيش البريطانى .. حين غادر ليبيا ، بفعل الضغط الذى كان عليه في الجبهة الغربية ، بين طرابلس وبنغازى ، والحرب كانت تستغرق شهورا في منطقة واحدة ، يتشبث بها الجيش ، وقد تكون حصينة .. كما هى الحال في مدينة (طبرق) شرق بنغازى على ساحل البحر المتوسط ، فقد استمرت فيها الحرب في إحدى الجولات بين الحلفاء والمحور والإيطاليين أكثر من أربعة أشهر ، لم يتزحزح فيها الألمانى والايطالى .. على ما أذكر ، لانى أكتب من الذاكرة ، وليس أمامى مراجع عن تلك الحرب أرجع إليها ، وأنا لا أكتب مؤرخا لها ، ولكنى أكتب عن حياتى أو أيامى .

والدارسون يعلمون عن تلك الحرب .. أنها استغرقت شهورا طوالا في تلك الصحراء ، لاسيما الشرقية .. بين مصر وليبيا ، وشهدت معارك ضارية ، في العلمين والضبعة والسلوم وما حولها ، وكانت الاسكندرية تسمع كما يقال هدير الحرب .. من مدافع وطائرات تقذف القنابل ، بله الجنود الانجليز وثكناتهم التى تعج بها البلاد ، وكانوا يومئذ يستعمرون القطر المصرى .

حين عاد الطليان إلى ليبيا ، واخبرهم مواطنوهم الذين لم يغادروا البلاد .. بان بعض العائلات ذهب بعض ابنائها مع الانجليز ، ضيقت السلطة الخناق على تلك العائلات ، زجرا وتحقيقات وإهانة ، ولاقت عسرا على عسر ، فهى ما كفاها بعد ابنائها ولاتعلم مصيرهم ، يأتيها النكر من عدوها اللدود ، وهى ليست مسؤولة عن فرار ابنائها إلى مصر مع الجيش البريطانى ، لأنهم رجال ، ولأنهم لم يستشيروها ، والانجليز لم يحملوا أحدا .. إلا بعد أن بعد عن خطر جيش المحور والطليان بمئات الكيلومترات ، لان تأخر ارتداد الجيش يجعله عرضة للأسر .. حين يدخل الجيش المضاد والعدو إلى البلاد وفيها الجيش المحتل .

من هذه الأسر التى ذهب أبناؤها مع الانجليز .. أسرة

" جُعُودة " ، وهى أسرة معروفة فـي بنغـازى ، وتسـكن فـي البركـة ، ودارهـا ليسـت بعيـدة مـن دارنـا ، وعميـد هـذه الأسـرة .. الحـاج صـالح جعـودة ، رجـل وجيـه وشـجاع ومعـروف لـدى عليـة القـوم ، مـن عـرب وطليـان ، ولعـل للرجل أعداء من الطليان الحاقدين .. من المقيمين في ليبيـا من غير السلطة .

وبالمناسـبة فـأذكر أن الكـر والفـر فـي الحـرب ، بيـن خـروج الإيطـاليين مـن البـلاد ، ثـم مجـيء الانجلـيز وخروجهم ، وفى كل خروج لأى جيـش .. يـترك بجـانب تموينـات الجيـش السـلاح الخفيـف ، وهـى البنـادق ورصاصها ، وربما بعض الرشاشات ، وقد غنمهاالناس فيما غنمـوا .. واحتفظـوا بهـا ، للدفـاع بهـا عـن أنفسـهم ، لأن الفوضى تعم في هذه الظروف الصعبـة ، لذلـك فـانك تجـد في كل بيت أكثر من بندقية ، وكانت عندى واحدة غنمتها واحتفظت بها ، حتى إذا كـان الخـوف والتفتيـش ، حملهـا الإنسان معه إلى البر ، ليخفيها ولكى يدافـع بهـا عـن نفسـه في حوازب الامور والخطر !

والإيطاليون المدنيون ، حين غادرت حكومتهـم البـلاد وبقـوا خلفهـا ، كـانوا قـابعين فـي الظـل ، لاشـوكة لهـم

ولا صولة ، ولكنهم عاشوا مدة غياب حكومتهم مسالمين صامتين ، حتى إذا عادت حكومتهم .. تنمّروا وأخذوا ينتقمون من الليبيين الذين كانوا يتعاملون مع الانجليز ، وخاصة الذين ذهب أبناؤهم حين انهزم الجيش البريطانى .

ولعلهم نووا الانتقام من أسرة آل جعودة . وكان لهذه الأسرة جارة إيطالية ، لها دكان تبيع فيه التبغ وبعض الأشياء الخفيفة . ولعلها سمعت أن قومها من المدنيين ينوون الغدر بآل جعودة ، فدعت الشيخ صالح وأهله ، وهى تعرف مكانة الرجل في البلاد ، ولعلها عاطفة أو وفاء الجيرة ، ولعل الرجل الكبير كان يضفى شيئا من حماية لهذه السيدة .. التى لايعرف لها أسرة ، وكانت تسمى – البرشة – ، لعل مرد ذلك .. تلك البثور التى كانت في وجهها ، ولعله بقية مرض جدرى قديم ، والسيدة ليست صغيرة ولكنها في نحو العقد الخامس ، كما يقول الناس ، دعت الشيخ صالح جعودة وأسرته أن ينتقلوا إلى بيتها ليلة الغدر بهم ، ولعلها لم تقل كل ما تعلم ، ولكنها .. ربما من باب الوفاء والحرص ، قدمت هذه الخدمة .. ملوّحة ببعض الخطر الذى ربما حل بالأسرة وكبيرها . والمرحوم – الشهيد – الحاج صالح ، ربما أبت كبرياؤه وعناده أن

يستظل في حماية امرأة إيطالية ، لكن الحسابات غير هذا وذاك ، والاباء صعب ، غير أن الخطر يدفع إلى قبول حتى الادنى ، ثم إن قدر الله لايرده شيء ، فهو نافذ !

وجاء الصبح في يوم تال ، ليشهد الناس ذلك الخبر والمشهد الاليم ، ويعلن نبأ تلك المجزرة المحزنة ، فقد داهم مسلحون من الإيطاليين المدنيين منزل آل جعودة بليل - والحال فوضى - حرب ، في كر وفر ، غالب ومغلوب ، أو قل جيش ذاهب وجيش قادم . وانتشر الخبر المرعب في البلاد .. انتشار النار في الهشيم ، غير أن الناس في دوامة الحرب والكرب ، وأتذكر بهذه المناسبة قول الشاعر القديم ، وهو شاهد نحوى :

إذن والله نرميهم بحرب

يشيب الطفل من قبل المشيب

وذهبت تلك الأسرة المكونة من تسعة ، رجالا ونساء وأطفالا بما فيهم عميدهم ، ذهبت ضحية البغي والعدوان ، والحسرة تملأ النفوس التى غلبت عليها دوامة الحرب الطاحنة ، والتى لا يعرفون .. متى تنجلى غمتها وكربها عنهم ، وإنه لامتحان عسير، أفرز فقراً على فقر وجهلا

وسوء حال ، وربما أضيف إليه المرض .. من سوء التغذية الذى يفضى إلى هزال وضعف ، فالأمر لله من قبل ومن بعد !

• • •

- ٥ -

الناس في كرب عظيم لا يعلمه إلا اللـه ، وهو ضرب من الامتحان .. الذى تشير إليه الآية الكريمة : ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ . فلا عمل ولا دخل ولا حياة .. بأدنى تسمية ووصف لها ، ولكن ليس لهم من الأمر شيء !

وأنا ووالدتى نتنقل من أرض الله إلى أرض الله ، تارة بجوار عمّي علي ، وأخرى مع زوج شقيقتى الكبرى ، وقد تختلف مواقع كل منهما . أحدهما في الجنوب ، في الهوارى (١٢) كيلا أو خرمو جنوبا . والصهر في القوارشه (١٣) ، كيلا غربا . وتلك هى الحياة ، تسر قليلا وتجرُّ هماً كثيرا ، كما قال الخليفة الراشد .. عمر بن عبد العزيز رحمه الله . وقد اشتد الكرب على الناس ، ولعل صغر السن بالنسبة لي ، ولعل الاقتناع بما أرى وأسمع .. يهوّن عليّ الحال التى نعيشها ، ومن يرى مصائب غيره تهون عليه مصيبته ، وأنا مطمئن بفضل الله ، فوالدتى التى تحنو عليّ بجانبى ، ودعاؤها وتضرعها إلى خالقها هو رصيدى وسلاحى ، لذلك كنت مطمئنا ، لاسيما وفى صدرى أجزاء من الكتاب العزيز .. يطمئن القلب بتلاوتها .

وأقل شيء يكفينا ، لاسيما ونحن والحمد لله معافين ، فله حمد الشاكرين الذاكرين ، فهو ولى النعم ، سبحانه لا نحصى ثناء عليه ، ولكن هو كما أثنى على نفسه .

إذن نحن مع هذه الدوامة ، ندور معها حيث تدور ، ومن فضل الله ، رغم هذا الكرب المتصل ، فإني لم أكن قلقا ، ولم يغز نفسى الخوف ، بل كنت مطمئنا كل الاطمئنان ، وقد أشرت أنني في تلك السن المبكرة ، نحو الأربع عشرة سنة ، أسير بدراجتى بين المدافع المنصوبة لضرب الطائرات المغيرة ، والجنود مدججون بأسلحتهم ، مثل النمور الكاسرة .. في كل مكان ، وأنا أشق هذه المخاطر .. لاسيما قرب المغرب أسير بكل اطمئنان وأشعر بأمان لا يكتنفه رعب ولا وجل ، إنه فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وتمر الأيام ثقالا بطيئة ، وهكذا حال الأيام الصعبة .. فى كل مكان، ، ولعل لسان حال من يعيشها .. يردد المثل السائر : اشتدى يا أزمة تنفرجى ! .

وأريد أن أعرج على حال أخويّ من أبى .. أحدهما الحاج منصور ، وله ولد وابنة ، يذهب كل مساء إلى شرق بنغازى ، إلى منطقة اسمها – الجخ – بكسر الجيم ، عبارة

عـن مغـارات طبعيـة ، يتخبـأ فيهـا وقـت الغـارات الجويـة ، وتبعد عن بنغازى نحو "٨" أكيال .. مع بعض اصدقائه لعـلّ منهم الدكتور علي الساحلى ، الـذى سيأتى الحديـث عنـه لاحقا ، أما ولداه ، فهما مع عمه علي الهشكة أو مع بعـض الأقارب .. في بنغازى أو خارجها . وهو يسـتعمل الدراجـة من الرويصات إلى الملجأ وإليها صباحا ، حيث يجلس فـي دكانه .. يلتقط رزقه المقسوم ، ثم يعود قبـل المغـرب إلـى الجخ !

والأخ الأكبر الحاج محمد ، له صديق .. مـن البـدو ، يرعى له بقرة أو بقرتين ، أودعهما عنده حيث يقيـم ، فـي " قصر الطويل " شرق بنغـازى .. بـأكثر مـن عشـرين كيـلا ، حيث الغابة ، وهذا الصاحب اسمه – محمد لبيض – ، لـه أسرة وشباب يعينونه في رعى البقر ، وينزل إلـى المدينـة .. إذا كانت البقرة أو البقرتان قد ولدت أحداهما أو كلتاهمـا ، يحمـل معـه – شـكوة لبن[١٤] و قـدح[١٥] مـن الزبـدة ، ليعطيها لبيت أخي صاحب البقرة أو الاثنتين .

ولهـذا الرجـل محمـد لبيـض أصهـار فـي منطقـة تبعـد (١٨) كم شرق بنغازى على الساحل ، فيها الكروم والتيـن وتزرع فيهـا بعـض الخضـار . ومـن ميزة هـذا السـاحل ..

بياض رماله ونظافتها ، وآبارها التي لا تبعد عن الساحل كثيرا ، حلوة يسقى منها الزرع . تلك المنطقة التى أشرت إليها اسمها - سيدى خليفة - ، وهذا الاسم يعود لولى مدفون هناك كما يقولون ، وحوله مقبرة .

اختار أخي الأكبر أن يقيم في سيدى خليفة ، وهيأ له صاحبه حجرة مبنية من الحجارة ، وسقفها من جذوع النخل .. الذى يملأ الساحل والشاطيء الليبي مسافات طوالا ، من بنغازى إلى حدود تونس ، نحو ألف ومائتي كيل .

وكانت لأخي زوجان ، توفيت الكبرى وهي أصيلة .. من بنغازى ، والأخرى صغرى من البادية . وليس له خلف .. كما أشرت آنفا لأنه عقيم ، فسكن في منطقة سيدى خليفة مع جيرة من بنغازى .. فارين من الحرب ، أذكر منهم الحاج أبوبكر بن يونس ، رجل مشهور في بنغازى .. وقد أصبح ابنه يونس - المحامى - في عهد الاستقلال رئيسا لبلدية بنغازى فترة من الزمن .

وصفّى أخي الأكبر دكانه الذى كان يمارس فيه البقالة وتركه ، وكان له دكان .. ملكه في نصيبه من الارث بعد وفاة الوالد ، آل إليّ منه لأمارس فيه بيع الخضرة . وكنت

أذهب إلى " الفندق" من الصباح الباكر ، وقد أشرت آنفا أن الفندق .. هو حلقة الخضار ، الذى تباع فيه بالجملة،أما قبل ذلك فاستأجرت دكانا على حسابى .

وأذكر ، والطفل لا ينسى كما يقال ، أن السلعة من الخضار حين تقل وكذلك الفواكه مثل العنب ، يجمعها أصحابها باشراف القيّمين على الفندق من رجال البلدية في ساحة محددة ، ويصطف الشارون ، حتى إذا انطلقت إشارة موظف البلدية .. من المسؤولين في الفندق ، يجرى .. المتجمعون نحو السلعة ، فمن وضع يده على سلعة فهى له ، يزنها ويدفع ثمنها ومن واقع القيمة ، تضع له إدارة الفندق سعر البيع بالتجزئة .. على ورقة رسمية قدر الكف ، فيها اسم السلعة وتاريخ شرائها وثمن الكيلو ، ولا بد من وضع التسعيرة على السلعة .. ليشترى بموجبها الناس ، ومفتش البلدية الإيطالي يمر أكثر من مرة في الأسبوع على دكاكين بيع الخضار .. ليراقب النظافة وتغطية الفاكهة بغطاء شاش ، وأن ورقة التسعيرة موضوعة فوق السلعة ، وإذا باتت السلعة ، لابد من ختم ورقة التسعيرة في ظهرها من الفندق ، وفى الختم تاريخ ، وحين أشترى السلعة من الفندق أعطيها لحمّال .. صاحب كارو

أو كروسة يجرها عير ، ليوصلها لي إلى دكاني .. نحو الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف .. في – قرطلة – وصاحب الكارو أو الكروسة .. لاينقل سلعة دكان واحد فقط ، ولكنه ينقل أكثر من سلعة لأكثر من مكان وأكثر من محل .. في حي واحد ، والمسافة بين الفندق والرويصات والبركة عموما .. نحو أربعة أكيال . وهؤلاء الحمّالون أذكياء .. من أهل البلد ، يعرفون سلعة كل دكان وصاحبه ، فلا تختلط عليهم الأشياء ، وإنما يوصلون كل سلعة لصاحبها ، ويقبضون منه أجرة الحمالة ، وغالبا ما تكون " القرطلة "[١٦] ويجمعونها على – قراطل – ، أي سبت وسبتات ، تكون للخضارين .. من المزارعين ، فإذا كان يعرفك المزارع تركها لك على أن تردها إليه في اليوم الثاني بوساطة الحمّال ، أو يضمنك الحمّال ، أو يأخذ منك رهناً مادياً محدداً .. حتى تعيد له أشياءه ، وهكذا التعامل . وأشير إلى أن التسابق للحصول على سلعة حين تقل ، قد يوقع الشارى في نوع ردىء .. أو فيه غش ، وليس له خيار في قبوله أو تركه . وربما تدخل موظف البلدية ليجعل للسلعة غير الجيدة ثمنا يوائم حالتها . والشارى من أصحاب الدكاكين .. قد يبيعها بخسارة ! ، وربما وجد

شاريا لها في الفندق .. جاء متأخرا ليضعها في رقبته ويتخلص الأول من تبعتها وبوارها .

في هذه الفترة ، كنا نسكن في " القوارشة " مع صهرى ، وأنزل فيالصباح الباكر إلى دكانى أو إلى الحلقة لشراء سلعة مما نفد عندى من الخضار ، وممنوع على بائع الخضار أن يبيع أي شيء أخر .. خبزا أو بقالة مطلقا ، وإذا فعل فإنه يجازى جزاء ماديا ، وإذا عاد .. ربما تلغى رخصة ممارسة البيع في الذى يمارسه . وفى المساء أعود إلى حيث والدتي وشقيقتى وزوجها على دراجتى .. التى هى وسيلة انتقالى ، وكأنها فرس من عيون الخيول العربية ، لكن التعب يأتي .. حين نسير والرياح في وجوهنا ، فإنها تدفعنا إلى الوراء ، ويصبح التعب على الارجل التى تسير الدراجة .. في مواجهة الرياح . وأنا سعيد بهذا العمل ، وإن كان غير مربح ، وذلك إذا بارت سلعة ، فإنها ترمى .. كما هى الحال في المتاجرة في الخضار !

ربما امتد هذا العمل نحو عام ، وربما تعبه أكثر من مردوده المادى ، وإن شئت قلت إن مردوده لايزيد عما يبور من السلعة التى لاتباع ، وربما قلت إن العائد خسارة

محققة .. أكلت أكثر رأس المال المتواضع .

وزيادة في السعي وراء الرزق .. أخذت دكانا آخر كبديل ، في حى آخر من أحياء الرويصات ، والبيع والشراء ديدنه الديْن ، يأخذ منك من تعرف من سكان الحى .. وكلهم مواطنون ، فلا ذكر ولا وجود لاسم أجنبى ، كل ما في الأمر تنقّل بعض المواطنين .. من مدينة إلى أخرى . والبيع بالديْن له مساوئه ، وذلك إذا لم تحصل على حقك .. في أخر الشهر على أبعد حد للانتظار . وربما اختفى أحد متعامليك .. وذلك بالانتقال إلى حى آخر . وقليل هم الذين لايوفون ، والحياة تعلم المرء .. مع من يتعامل ، ويستشير قبل أن يقع ، وقبل أن يخطىء .

ومللت هذا العمل غير المجدى ، وليس ملل بعض شبان اليوم .. الذى يمكن عده بطرا ، ولكن العمل غير مشجع ، وإنما هو جهد ضائع .

وأذكر أن أخي منصورا .. يشترى ثمرة نخلة أو أكثر ، وهم يسمونها – وقرة – بفتح الواو وسكون القاف وفتح الراء . وكلفنى أن أذهب كل أسبوع على أتان له حيث النخل ، في منطقة اسمها – اللثامة – شرق بنغازى بأربعة أكيال ، وفوق ظهر الدابة خرجان كبيران منسوجان من

الديس .. يسـمونها – الشـوارى – إلـى صـاحب النخـل ، فيرتقى النخلة المشتراة ثمرتها وينزل لي عرجونين إذا كانـا كبيرين ، ويضع كل واحد في " شارية " ، وأعـود ادراجـى إلى حيث مـنزل أخـي ، وأنـا ابـن الرابعـة عشـرة ، وأقضـى طريقى بأكل بلحات ورطبات بقدر ، خوفـا أن أعطـش فـلا أجـد مـاء . وصعب أن أقـارن تلـك الحيـاة البائسـة بحيـاة اليوم ، حيث نجد السيارات الفارهة الطائرة فـي سـرعتها ، وفيها كل نعم الله ، مما تريده النفس ، على حين كـان يعـز على أحدنا شربة ماء .. في مسافة خالية ، يسـير فيهـا غـلام على اتان ، وتمتـد يـده إلـى بلحـات يابسـة .. فيحتـاط فـي تناوله حتى لا يعطش ، حيث لا يجـد رشـفة مـاء يتبلـع بهـا تلك البلحات أو حتى الرطبات بحلاها ، والجوع هو الـذى يدفع إلي التناول من غير غسل ولا تفكير فـي أذى ، وإنمـا يكفى أن الأصابع الناحلة تمسح الرطبة أو البلحة ممـا علـق بهـا مـن رمـل ، لأن النخـل قريـب مـن شـاطىء البحـر .. والأرض رمليـة تنغـرز فيهـا الرجـل ، والـذى رأى شـواطىء الاسـكندرية والعجمـى خاصـة .. يـدرك كثافـة رمـال المتوسط ، وقس شـواطىء إيطاليـا وجنـوب فرنسـا .. فـي كان ونيس إلخ . وأخى يأكل مـن الرطـب والبلـح ، وربمـا

باع الزائد ، وكان يعطى .. الأقارب بعضه حتى ينتهى حمل النخلة أو النخلتين في نهاية الصيف . وأنا أمارس هذا العمل برضا ورغبة ، لأنه شيء من تسلية وعمل ، ولا أعدو الحق إذا قلت إنني منذ الصغر أحب العمل الذى أمارس إلى حد العشق .. إن صح هذا التعبير ، وهذا في تقديرى من توفيق الله ، حتى أنني أصبحت أردد .. بعد أن تقدمت بى السن ، وبعد تجاربى الطويلة ، أن كل عمل ناجح وراءه إدارة ناجحة ، وأن كل عمل فاشل .. وراءه إدارة فاشلة . وأنا مطمئن كل الاطمئنان إلى أن هذا الرأى أو الحكم الذى أقول حق ، لا زيف فيه ولا تجنى ولا افتئات ، وإنما هو نتيجة ممارسة وتجارب طويلة ، أكثرها مرير ، ولكن بالصبر ينال الإنسان ويصل إلى ما يريد بتوفيق الله وعونه.

• • •

- ٦ -

ويترك أخي الأكبر قرية سيدى خليفة التى اتخذها مقرا له ، هروبا من ويلات الحرب ، ويفضل أن يعيش في – الركاب – بين شعاف الجبال .. في منطقة تسمى " العوينات " جنوب سيدى خليفة ، حيث صاحبه محمد لبيض وأسرته ، في – نجع – من بيوت الشعر ، والابقار ترعى في الغابة ، وتعطى كل صباح ومساء الحليب واللبن والزبدة ، وحين تلد – اللّبا – والحياة في هذه المنطقة صحية وماتعة .. في وسط الطبيعة الغناء ، والحياة الهينة الوادعة ، السهلة واليسيرة معا ، لاسيما في البعد عن أخطار الموت الزؤام .. الذى تحمله قاذفات القنابل ليلا ، وتمر على البرارى والجبال والاودية ، وهى تزوم ، ربما من أعباء أثقالها التى تحمل . والماء من الآبار عذب زلال ، لأنه من خير السماء . وخبز التنور .. الشعير منه والقمح ، ما أطيبه ساخنا ، وما أروعه – ثريدا – بالزبدة واللبن ، ويسمونه – مثرودة – والجوع .. يجعل كل أكل لذيذاً وذا طعم ومذاق متميز !

ولحق الأخ بأخيه .. في وسط الغابة الفيحاء الكثيفة

بشجر البطّوم[١٧] والجدارى والحطب ، يطهى به وفاكهة شتاء في الإدفاء بناره ، ولعلهما كانا سعيدين بذلك ، وينزل إلى بنغازى أحدهما مع لبيض راعى الابقار ، أو مع أحد ابنائه . ورغبت أن ألحق بهما .. وأترك والدتى مع ابنتها المتزوجة والصغرى مع أخيها في الجبل . وأنا أحب الانتجاع ، وأحب البرّ ، ويرددون هناك مقولة " البرُّ بار بأهله" . وهذا الانتقال ضرب من السفر وتغيير الجو ، وأنا أحب ذلك . وحين عزمت السفر ، إذا بصهر من بعيد لأخي الأكبر يعمل اسكافيا ، اسمه مختار الجروشي يكلفنى أن أحمل معى اتانا له عجفاء ، لعله طمع في أن تتحسن حالها .. إذا أكلت من ربيع وأشجار الجبل في العوينات ، وأنا شاب صغير عندى احتمال أن أسوقها أمامى .. إذا لم تحملنى . وصدقت يا أبا الطيب وأنت القائل : أرق على أرق" . وليس لي خيار ولا من الأمر شيء ، وأنا لا أعرف تلك الطرق البرية الجبلية . ولعل الأتان كانت في سيدى خليفة .. تركت هناك بعض الوقت ، لانها في بنغازى تحتاج إلى علف ومصاريف ، وهى لو بيعت لاتساوى شيئا ، لانها في حاجة إلى من يحملها ، وأذكر مثلا سائرا هناك بهذه المناسبة ، فحين يرى الناس مع بداية موسم

الحرث أحداً يعرض عيراً أو اتاناً للبيع .. يقولون في استهزاء : " لو يحرت ما باعوه " .

حزمت أمرى إلى سيدى خليفة بوسيلة ما ، مثل سيارات الجيش التى ينقل بعضها الناس وهم قلة ، وذلك في المساء إلى حيث يسكنون في نفس مسار السيارة ، وصباحا إلى المدينة . ونمت هناك عند بعض الجيرة ، وفى الصباح الباكر .. بعد أن وصفت لي الطريق ، وقيل لى .. إذا ذهبت فأسأل من يصادفك ، أو حين تمر على نجع في طريقك ، وهم يرددون هناك مقولة : النشدة تدل الذاهب ، واللّى ما ينشد من الذهّاب " .

انطلقت مبكرا من سيدى خليفة .. ميمماً الجبل مع ما امتحنت به ، وإنها لورطة كبرى ، ولو كنت سائرا على قدمي لما همنى شيء ، ولكن هكذا قدر لي أو عليّ . والعجيب أن هذه الاتان غير قادرة حتى على السير ، وأنا أريد أن أكسب الوقت لاصل قبل الظلام ، وأنا لست خائفا ، ولعل المغامرة في نفسى من الصغر ، وكنت أدفع بالأتان إلى الامام بيدى ، وهى ترجع إلى الوراء ، وأنا وحدى أسير وسط الغابة في طريق .. لا تسير فيه إلا الدواب ، لانه أحجار وأشجار . وكان يوما عصيبا ، غير أن

الصغير .. والذى تربى تربية شظف ، كثير الاحتمال لما يلاقى في حياته ، فقد ألف العناء ، وألفه العناء !

وأدركنى الليل وأنا لم أبلغ أربى ، لأنه لابد من صعود الجبل .. كى أصل إلى حيث يقيم محمد لبيض وأخوتى ، والجبل أراه أمامى منذ الصباح الباكر .. ولكنى لم أبلغه ، وقد أذنت الشمس بالمغيب ، ورأيت أمامى بيت شعر .. فقررت أن أقضى ليلى مع من فيه ، فقربت منه وسلمت .. فرد علىّ رجل وخرج لاستقبالى ، وأدرك أننى حضرى غريب ، وأخبرته بمقصدى ، فقال : إن الدنيا ليل وظلام ، فأمس عندنا ، وفى الصباح تمضى إلى حيث تريد ، والمسافة ليست بعيدة ، ولكن من الصعب أن تصل في الظلام ، وأنت لست من المنطقة ، ولا من أبناء البادية .. الذين يخبرون الأرض التى يعيشون فيها أو يترددون عليها ، وقبلت دعوة الرجل الكريم وأنا خجل ، لانى لم أتعود وحدى ، وأنا الغلام الصغير قليل التجارب .. أن أتجاسر كما يفعل البادية بقصد هذه البيوت في أي وقت من نهار أو ليل .

وتركت الأتان بعد أن قيدتها احتياطا ، ودخلت البيت وأنا منكمش ولكنى تعب وجائع ، واحتاج إلى راحة ونوم

عميق حتى على الأرض ، إذن الحال غلبت التردد والحياء . وفى أقل من نصف ساعة .. قدم لي الرجل زبدية أو بلغتهم – قدحا – به ثريد فأكلت حتى شبعت ، وربما كرم الرجل أبى إلا أن يتركنى آكل دون أن يشاركنى ، فنحن فيما يشبه القحط والقل ، ولكن الكرم العربى لا يقاس عليه ، فقد رأيت وسمعت عن كرم القوم في الجبل الاخضر وعند البادية عموما شيئا لا يكاد يصدق ، بخلاف سكان المدن الذين لوثتهم المدنية والتحضر ، وليسوا سواء ، هؤلاء غلب عليهم الشح – أعنى سكان المدن – والبخل ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

ولقد رأيت الشيخ عبد العزيز ماضي وأنا غلام خلال تلك الفترة عام ١٩٤١م ، وهو رجل كريم المحتد ، أؤكد أن قدره لا تكاد يفرغ ما فيها فى القصعة ويقدم إلى الضيف الذين وصلوا .. حتى توضع على النار من جديد .. لينجز فيها طعام أخر يقدم لضيف جديد من الرجال ، وأنا أقول إن البادية أكل بعضهم بعضا .. بهذا المسلك ، وطالما سمعت زميلى أبا خالد أن عنده ضيفا ، وأن صديقاً هاتفه أو هاتفوه ، بأنهم سوف يتغدون أو يتعشون عنده ، أتذكر

بادية ليبيا .. وحالها في أن القدر لا تكاد تنزل من على النار حتى تعاد ثانية .

وأسمع الناس يتحدثون .. أن العابر .. يميل على أول بيت في طريقه ، وعادة ما يكون بيت شيخ القبيلة أو كبير النَّجْع ، وقد لا يكون الرجل في البيت ، فتخرج المرأة لترحب بالضيف وتدعوه إلى النزول من على فرسه ويدخل البيت ، وتذهب مسرعة إلى جيرتها لتدعو الرجل الذى تجده أمامها إلى الجلوس مع الضيف ، وتتوجه إلى الغنم .. ويسموه هناك – الشلاّق – وهو القطيع من الغنم ، فتختار " حولى " خروفا وتأتى به إلى البيت ، وتكلف الجار الجالس مع الضيف بذبح الشاة ، وتدخل إلى بيتها لتضع ما يسمونه – خصا – وهو رواق .. يقسم به البيت ، فشطر للجزء الذى فيه الضيف والرجال ، والآخر لها ، وسرعان ما توقد النار .. وهى موقدة ولاتنطفىء ليل نهار ، وحق للعرب أن تقول فلان كثير الرماد ، وسرعان ما تطهو الطعام ، وفى الغالب ارز ولحم ، وقطع لحم البادية كبيرة ، لا أبالغ إذا قلت إنها تبلغ الكيلو ، وهو لحم لذيذ ، ليس كثير الشّحم وحتى إن وجد فالبر يهضمه .. وأن الذى يتحرك ويسعى ويعمل لا يؤذيه ، والمواشى التى يسمونها

– السعي – ، ترعى في الكلأ ، ولا تأكل الشعير والتبن والذرة ، كما هي الحال عند بعض الذين يبيعون الماشية ، فتلك ذات مذاق متميز . و أحيانا يأتي ضيف على ضيف والطعام لايكفي ، فيزاد سمنه أو زبدته ، أو يسقى الضيف لبنا خاثرا يحقق بعض الشبع حيث يقول المضيف لابنه: " قيّد العجول " ، وهو اصطلاح معروف عند البادية[١٨] .

أعود إلى مضيفي وقد أخذني الاستطراد أو قل شغلني عن حديثي الخاص . فبعد أن شبعت .. أعتذر لي الرجل في خجل بأنه لا يملك الشاى ، فشكرته وقلت له بلغتي يومئذ ، وباللهجة هناك – ضيافتك واستقبالك فيهما غنى . كان ذلك بتعبير غلام لا يفقه من الحياة شيئا . وعند البادية عيب أن لا يقدم للضيف شاه بعد الطعام ، لذلك أجد في الأمثال التى تردد على الأسماع هناك : حتى لو تذبح لي ثور بلا شاهي مانك مشكور " . إذن الشاى شيء أساسى في الضيافة ، لكن الجود من الموجود ، وأنا في صغرى لم يكن الشاى ليهمنى كثيرا ، وجد أم لم يوجد ، ونمت نوما عميقا .. لانى متعب ، وصحوت مبكرا واستاذنت من الرجل بعد أن وصفنى طريقى ، وأنا كنت بفضل الله أسير في الاتجاه السليم .. الذى يوصلنى لمقصدى ، وصعدت

الجبل مـع الاتان العجفـاء ادفعهـا دفعـا ، واطمـع أن أصـل وإياها سالمين ، لأتخلص منها .. واستريح .

والحق أن الجبل الأخضر في ليبيا جنة ، وأنا قد رأيـت جبـال الالـب ، فهـى جميلـة ونظيفـة ورائعـة ، لكـن الجبـل الاخضر فيه تلك الأشجار الفوّاحـة وهـى – بعلـى – أنبتهـا اللـه ، وهـى خضـراء طـوال السـنة ، لذلـك سـميت تلـك المنطقة .. الجبل الاخضر . وهذا الجبل يتصاعد منه دخان الكرم والضيافـة ، وتتقـن لغـة أهلـه ، علـى حيـن فـي جبـال الالب .. تحتـاج فـي كـل جـزء منـه لغـة حتـى تسـتطيع أن تتحدث مع من تريد أن تتعامل ، ففى الجانب السويسرى ، لابـد أن تتحـدث الفرنسـية . والنمسـاوى ، تتحـدث الألـمانية ، والايطالى .. الإيطالية ، وهلم جرا !

والحياة في جبال أوربا مكلفة ، ولكن في جبال الطبيعة الرائعـة فـي الشـرق ، تعيـش بـأقل التكـاليف ، وكثـيرا مـا أداعب زوجى .. حيـن أكـون فـي ذلـك المنـاخ الجميـل ، فـأقول لهـا : يكفـى أن يقضـى المـرء بقيـة العمـر فـي هـذا المناخ الرائع الجميل ، في بيـت شـعر وعنـده كيـس حـب مطحـون ، وأمامـه بقرتـان تعطيـان – السـدر – والزبـدة ، وكفـى ، لا نريـد تلفـازا ولا راديـو ، ويكفـى صنـدوق مـن

كتب في ركن بيت الشعر ، وقطعة سلاح .. يدافع بها الإنسان عن نفسه وقت اللزوم ، فترد على وهى ابنة المدينة : لا ! هذه حياة لاتناسبنى ، وأنا أخاف .. ولا أستطيع حلب البقر ، وأخاف كذلك من الحنشان والعقارب ، ومن الذئاب وما إليها ! فاضحك مما أسمع .. وأنا أمازح !

وحين صعدت الجبل في ذلك الصباح الجميل .. والضباب مازال يعانق شجر البطوم والجدارى ، والندى على الاغصان الخضر .. كأنه يؤاسى جراحها ، ولعلها تناغيه : ياطل أسكنت الهوى فينا .

أخذت أنادى وأنا أملأ رئتى من ذلك الهواء المنعش النقي ، أنادى : ياالبيض .. ياالبيض وأنا أسير . وكم كانت فرحتى غامرة .. حين جاءنى الرد : نحن هنا .. احنا هنا . وأسرع إليّ هو وأخوتى الذين سمعوا النداء .. في ذلك الصباح الجميل المشرق ، وتلقونى بترحاب ، وأدركوا أنى تعبت ، وقلت إن أكثر تعبى من هذه الاتان التى كلفت بسوقها إليكم ، فتأسفوا ولاموا صاحبها،وقالوا : الحمد لله على السلامة .

ومكثت عندهم ما شاء الله أن أمكث ، ولا هواتف

ولا بريد ولا برق ، أوصل به صوتي واخبارى إلى والدتى ، وربما يكون بعد شهر أو أكـثر .. حيـن يـنزل " لبيـض " أو أحد ابنائه إلى المدينة للتسوّق ما يحتاج الرجال أو النساء .

لبثنا أشهرا ، ثم قـرر القـوم تـرك الجبـل والـنزول إلـى منطقة أخرى غير بعيدة اسمها – قصـر الطويـل – لا أدري لماذا هذا القرار ؟ ربما للقرب من سيدى خليفة وبنغـازى ، فالذى في الجبل شبه مقطوع ، لانه بعيد ، ولا موجب لهذا الانقطاع ولهذا البعد على ما يبدو !

• • •

- ٧ -

اشترى أخي الأكبر جملا ، وربما أخذ " لبيض " جملا من بعض الجيران لينقل عليه بيته ومتاعه ، وهو يملك حصانا جيدا وعيرا ، وانتقلنا إلى قصر الطويل .. اسفل الجبل ، ولكن الجبل أجمل وأمتع ، ولعل للضرورات أحكاما .. كما يقال ، ومكثنا هناك ما شاء الله أن نمكث بجيرة الرجل الكريم عبد العزيز ماضى ، الذى له مصاهرة إذا لم أنس مع أخي منصور ، حيث أن ابنته الوحيدة زوجها للفقى محمد عبد المجيد ماضى ، من سكان سيدى خليفة ، وهو رجل يحفظ كتاب الله ، وفيه طيبة ووداعة وحب لنا ، لاسيما وقد عرف أننا أشراف ، فهو وأمثاله يقدرون السادة والاشراف بكثير من الاحترام ، وبيننا ود ، وهو يحترمنى ويقدرنى ، وأنا أقابله بالمثل ومازال زوجا لابنة أخي وله منها بنتان وولد .

ومن الطريف أن الجمل الذى اشتراه أخي .. يعود إلى من باعه ، ليكون مع جماله ، ولعله رافض للوحدة والبعد عن النوع الذى كان معه ، ونحن نتركه يأكل من أشجار الغابة ونباتها ، وحين نفتقده .. يكلفنى أخي بالبحث عنه ،

فانطلق مشرقا ومغربا إلى أن أجده ، فانيخه وأركب على ظهره وأسوقه نحو بيتنا .. حيث الأهل ، وخلال سيره بى وأنا حالي كما يقول المازنى : " أنا من دق واسترق " فالجمل يلوى عنقه .. كأنه يحاول أن يعض رجلى ، لانى فرقت بينه وبين جنسه وأهله السابقين ، وكنت شجاعا لا أخاف ، وربما أن حياة البر ومخالطة البادية .. غرست في نفسي تلك الشجاعة وانتزعت منها الخوف ، أقول ربما ! وحين يقوم الجمل بهذه الحركة وأنا واع له ، استعمل العصا مع صوتى ليرعوى فيمضى ، ومع ذلك يعود لسيرته الاولى .. مرة ومرة ، وقد تكون المسافة التى تفصل بين مقرنا والمكان الذى أجده فيه غير بعيدة ، كيلين أو نحوهما ، وتعد مسافة إذا قيست بسير الجمل العادى البطىء ، وحين أعود به أقيده وأتركه يرعى في الغابة.

مكثنا شهورا في قصر الطويل ، مرضت خلالها مدة أسبوعين ، ولايوجد طبيب ولامطبب ، وهزلت من هذا المرض ، ثم شافانى ربى .

وبعد ذلك مرض أخي الأكبر ، وقد أدى مرضه إلى وفاته ، فحمل على جمل .. بعد أن غسّل ، ودفن في مقبرة سيدى خليفة بعد أن صلى عليه . ولم يبق مجال للاقامة

بعيدا عن بنغازى ، فقد عدنا إليها ، أخي منصور وزوج المتوفى وأنا وشقيقتى الصغرى .

وأقامت شقيقتى مع أخي منصور ، وشرعت أنا في شراء وبيع الخضار في دكان أخي الأكبر الذى أصبح من نصيبى ، حيث أن أخي أوصى لي بالثلث من تركته ، فكانت قطعة أرض وذاك الدكان .. الذى أمارس فيه بيع الخضار ، لأنفق على زوج أخي مدة (الرباط) وهى أربعة أشهر وعشرة أيام.

وبعد خروج زوج أخي من العدة ، عرض عليها أخي منصور أن تقبلنى زوجا لها ، وهى أسن منى ، ولكنها رفضت ، فبعدت عنها ، واستقللت مع والدتى ، ومارسنا في حياتنا سيرتنا الاولى ، والحرب على أشدها .. في كر وفر " والدوتشى " يطمع أن يدخل الاسكندرية ، وحين قال له أحد قواده : قل " سباريامو " أي إن شاء الله ، ردّ بقوله : " سينسا سْباريامو " يعنى بدون إن شاء الله ، وقد خذله من يقول للشيء كن فيكون ، لانه بغى وطغى وتجبّر ، وهذا جزاؤه ، قال تعالى : "ولايظلم ربك أحدا " .

وتقهقر الألمان والطليان في معركة "العلمين" الفاصلة الطاحنة ، التى دامت شهورا وكثر ضحاياها على

الجبهتين ، وثمة مقبرة كبيرة لموتى هذه الحرب باقية إلى اليوم ، يراها المار من تلك الطريق الصحراوية المصرية ، التي توصل بين مصر وليبيا . ونزل جيش الولايات المتحدة في المغرب ، حيث دخلت الحرب مع بريطانيا ، وأحيط بالجيش المهزوم ، فالجيش الثامن من المشرق ، وأمريكا من المغرب ، وانكسر الألمان والطليان ، وغربوا تاركين وراءهم الجنود يسيرون على الشواطيء حفاة ، ولاوسائل تقلهم لانهم كثر ، ووقع الكثير منهم في الأسر .. لدى الحلفاء ، والأسير يمارس ما يتقن من أعمال فنية وحرف ، أو يكون عاملاً عادياً .. يؤدي ما يفرض عليه ، تحت الحراسة ، فهو مقود ومسيّر ، حتى ينتهي أمره بعد انتهاء الحرب ، بما يسمى .. تبادل الأسرى !

وبرقة .. دمّرتها الحرب ، وكان أغلب سكانها في غاية الفقر . وكما هي حال الحروب – التدمير والتخريب – من قبل المنهزم ، فقد زرع الايطاليون الألغام في كل مكان من برقة ، خارج الطرقات والمساكن .. لتدمير العدو . ودمرت محطة كهرباء بنغازي ، ونسفت سدود المياه ، وعمدت إلى تلويث المياه .. بتحويل قنواتها للمرور في مجاري المدينة ، وانتشرت فوق أراضيها بقايا الدبابات

والشاحنات المحترقة ، وأصبحت سيارات الجيش البريطاني غُرضة للخطر والهلاك في أي لحظة .. إذا حادت عن الطريق العام ، وتعطلت الخدمات العامة ، لأن البلاد في دمار شامل ، وقد أخلى الايطاليون البلاد من جميع مواطنيهم ، الذين يبلغ عددهم .. ما بين "٤٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠" نسمة . وغص ميناء مدينة طبرق الواسع .. بحطام نحو مائة وثلاثين سفينة ، غارقة . ودمّر القصف الجوي المباني ، وأصبحت المدينة شبه خالية من السكان ، حيث مضوا إلى التلال والأودية .

وتوجه الناس إلى مغازات التموين لينالوا منها ما يجدون ، وقد تعودوا .. عند تقهقر كل جيش .. إلى المشرق أو إلى المغرب ، أن يتوجهوا إلى مخازن التموين ليأخذوا رزقهم وحظهم ، فبعد خروج الانجليز ، يجد الناس البسكويت صفائح كبيرة ، والحليب البودرة والشاى والمربى والسكر ، وعند ذهاب الألمان والطليان يجدون التركة من الأرزاق ، غير أن الألمان كانوا ماكرين ، فهم قد أحرقوا مخازن التموين ، فلو قلنا إنهم لايريدون عدوهم أن يظفر بها .. لقبل هذا المنطق ، لكن حتى حين توجه الناس إلى هذه المخازن التى أوقدوا فيها النيران .. ليصيبوا

منها ما يتاح لهم ، يجدون أمامهم- سرجنت - ، يحصد المقبلين على المخازن برشاشه ،كأنه كلف أن يحرس المستودعات حتى تحترق ، فلا يدع أحداً من المواطنين الليبيين ينال منها شيئا ، هذا ما كان من الألمان ، وربما إذا لم تخنى الذاكرة .. علمت أنه تصدى لهذا السرجنت أحد الشجعان ببندقيته .. فأرداه قتيلا ، لانه قتل كل من غامر بالاقتراب من المستودعات ، وبعد ذلك .. أتيح للناس أن يأخذوا مالم تطله النار من الارزاق ، وهكذا الحياة شدة وكرب ، كما أنها لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد ، كما يصفها الكتاب العزيز .

وجاء الجيش البريطانى ، أو قل الجيش الثامن ، وهو يشبه الثوب الذى فيه سبعون رقعة ، وقد أشرت آنفا إلى بعض تكويناته ، جاء إلى ليبيا في نوفمبر عام "١٩٤٢م" ، بقيادة الجنرال "مونتجمرى" ، بعد أن اندحر الألمان والطليان ، وتكبدوا خسائر فادحة ، وانهزموا شر هزيمة . ودخل الجيش الثامن بنغازي يحمل شارات عليها سمة - V - ، يرمى بها للشعب ، وهي قطع معدنية وجهها مطلي بلون أزرق .. كتب عليها - النصر - بالعربي والإنجليزي.. واستقرت الحال ، ولم تعد هناك طائرات تقذف قنابلها..

لتميت الناس ، وتدمّر البلاد ، وتخرّب وتشرّد .

وهذه كانت المرحلة الاخيرة للكر والفر في مسرحية الحرب .. التى بدأت عام ١٩٣٩م ، ذلك بالنسبة إلى ليبيا ، أما انتهاء هذه الحرب الكونية الثانية ، حين وضعت أوزارها ، فكان عام ١٩٤٥م.

وأخذت الأمور تستقر في البلاد ، وكانت العملة بعد هذا الاستقرار وبعد تطاحن وعوز وآلام .. لا قبل للناس بها ، كانت العملة الجنيه المصرى .. أتى به الانجليز من مصر .

وجاء الأمريكان والسلطة كانت بيد الانجليز في الحكم ، ووجد الناس بعض الأعمال وأخذ الانجليز يرممون البنايات والمساكن الحكومية .. لتكون صالحة إدارات ومساكن ، وأخذوا الوجهاء من الموظفين ليعملوا معهم ، وليساعدوهم في إدارة شؤون البلاد لخبرتهم ومكانتهم الاجتماعية في البلاد .

وكان ضباط الانجليز الذين يديرون شؤون البلاد ، لا يزيد عددهم في برقة عن (١٠٠) مائة ضابط ، برئاسة البريجادير "دنكان كمنج" ، وهو رجل سياسي قدير جداً .

وكان لي ابن خالة – بنّاء – ماهر اسمه أبو بكر العجيلي ، تعلم من الإيطاليين فن البناء وهم مهرة في هذه الصنعة في العالم ، استدعى في البلدية من قبل أولئك المواطنين الذين يعرفونه ، وطلب إليه أن يأتي بمعلمين وعمّال للشروع في ترميم المبانى وأولها مقر البلدية ، الذى أصبح قائمقامية بنغازى ومتصرفيتها لإدارة شؤون البلاد بوساطة الإدارة البريطانية ، فدعانى ورحيمى زوج أختى ، لنعجن ونمد المونة للمعلمين ، فسعينا إلى هذا العمل من الصباح الباكر ، ونتوقف لمدة ساعة ، من الثانية عشرة إلى الواحدة ، ثم نستمر إلى الخامسة مساء أو الرابعة والنصف ، بمرتب يومى "٢٥" خمسة وعشرين قرشا مصريا ، والمسافة بين سكنانا ومقر عملنا نحو ثلاثة أكيال أو يزيد قليلا ، ووسائل تنقلنا الدراجات ولاشيء سواها !

وجدَدَتُّ في هذا العمل أمدُّ المونة ، ثم اهيىء الخلطة أو العجنة ، من الاسمنت والرمل والجير – النورة – واتقنت العمل ، وكنت أشد في وسطى – شِمْلة – حزام أحمر من الصوف الخفيف ، وعليه حزام جلد..ليشد ظهرى .

وفى الغداء .. نشترى أو يشترى كل منا قرص عيش حب ساخن من بائعة "تكرونية" .. ومعه مغراف ماء ، وأحيانا يتاح للمجموعة شراء شيء من سكر وشاى ، ونغلى الماء على نار من اللوح ، في علبة صلصة أو حليب ، وفناجين الشاى من علب الصلصة الصغيرة ، ونحن نحمد الله على هذه النعمة والاستقرار ، بعد رعب الحرب وويلاتها !

ولا أنسى أن أذكر .. أننا خلال الحرب ، كان أحد رجال النقل يملك سيارات شاحنة تحمل السلع من بلد إلى آخر اسمه أبو بكر بن صادق ، يسكن أمامنا ، استأجر منا – براكة – صندقة من خشب في بيتنا ليخزن فيها براميل – نفط – ديزل . وحدث ذات مرة أن سقطت في بيتنا ونحن فيه قنبلة نارية اسمها بالايطالى – شينديالى – فاسرعنا لاطفائها بالتراب ، وحجمها صغير مثل الذراع ، خشية أن يشتعل الديزل فنحرق والبيت ، ثم قلنا للرجل في اليوم التالى ، أحمل براميلك ، ولانريد منك ايجارة فنفوسنا ليست رخيصة علينا ، وحمل ديزله إلى مكان بعيد عنا ، وضحينا بالفتات الذى كنا نحصل عليه ، ونحن في أشد الحاجة إليه ، وهكذا الحياة !

وأعود إلى سيرتى ، فسرعان ماأتقنت حرفة الترقيع والبناء ، لانى محتاج وعندى استعداد ، فإما أكون أو لا أكون ، وادخلت المهنة ، بدرجة نصف معلم . وكنت أتعلق على ارتفاع عشرين مترا .. على الواح مشدودة بحبال علىالسقف أو في السطح على الأصح مربوطة في أكياس رمل ، ويناولنى عامل سطل المونة وقطع الحجارة ، لارقع الحفر في المبنى ، التى أحدثتها شظايا القنابل .. التى كانت تتساقط خلال أيام الحرب . وأنا باعتبارى صغيرا ، عمرى نحو ست عشرة سنة وخفيف وزن الجسم ، ورجل مسن صعب عليه هذا التعلق في الهواء .. ليؤدى هذه المهمة ، فقبلتها وكنت فرحا بها،لانى أصبحت نصف معلم وإن كان أجرى لم يزد ، لكن العمل خف عليّ ، فالعجن وخلط المواد وحمل الماء من البراميل وحمل سطول المونة مرهق لجسمى النحيل الدقيق .

وكان رجل قبطى مصرى مهندس اسمه يوسف .. هو المراقب على هذه الأعمال .. من قبل الإدارة البريطانية ، وكان شديدا وقاسيا في تعامله معنا ، وكنا نحتمله لانا مكرهون ، حتى عوضنا الله بالانتقال إلى العمل مع الأمريكان في بناء مخازن كبيرة ، وقد أصبحت معلما ،

أتقن البناء والتلبيس جدرا وسقوفا ، وعملت مع الأمريكان بوساطة ابن خالتي .. بأجر أربعين قرشا في اليوم ، في البناء بـ -بلوك - حجرى ، تزن الواحدة نحو (١٥) كغ ، وكنت عاشقا لعملي وفرحا به ، وكانت والدتي عليها رحمة ربى فخورة بى ، وإن كانت تشفق عليّ من هذا العمل المضنى الثقيل !

وأتيح لي أن أذهب إلى بلد صغير جنوب بنغازى ، يبعد نحو (٥٥) كيلا اسمه " سُلُوق " لاعمل عند رجل في بناء حجرة من الحجارة والطين ، وكنت أنا العجان ورافع الطين إلى السقالة ورافع الحجارة الصُّوان وواضعها مكانها بالميزان والخيط .. الذى يضبط استقامة الجدار . وكان الوقت رمضان وحرا ، وكنت أعطش عطشا شديدا ، واضطررت ، ولعلها مرة واحدة .. شربت فيها بيدى حفنة ماء ، لانى لم أستطع أداء ذلك العمل القاسي وحدى ، وأنا مضطر إليه ، أسأل الله أن يغفر لي تجاوزى .. فهو العليم بحالى .

• • •

- ٨ -

وجاء الملك إدريس أميرا على برقة ، لان البلاد لم تستقل بعد ، والانجليز وعدوه أن يحكم بلاده (برقة) وكان في المخطط ، أن تحكم فرنسا – فزان – وإيطاليا طرابلس بعد الصلح ، وبرقة تستقل بأميرها محمد إدريس السنوسى ، لكن التصويت في مجلس الأمن .. ترجح بصوت واحد من "هاييتي" لتكون ليبيا كلها دولة مستقلة . وتكوّن الجيش السنوسى في مصر من المهاجرين والفارين من ليبيا ، ودخله السادة السنوسيون أقرباء الملك برتب مختلفة ضباطا ، وكانوا متعلمين في المدارس المصرية والازهر ، وفى مقدمة هؤلاء السيد أبو القاسم بن أحمد الشريف .. شقيق زوج الملك إدريس ، وأصبح قائمقام بنغازى .. بجانب الإدارة البريطانية . وأصبح ابن عمتى محمد عيسى الكاديكى وزوج شقيقتى فيما بعد .. متصرف بنغازى ، وقد جاء مع الجيش السنوسى من مصر برتبة – شاويش – وتعليمه الأساسى إيطالى ، فقد أكمل دراسته إلى نهاية الثانوية في بنغازى في المدارس الإيطالية ، وأتيح له عام ١٩٥٠ م ، أن بعثته الإدارة البريطانية إلى لندن

ليدرس الشؤون الادارية .. بعد اتقان الانجليزية ، فتحقق له ذلك وعاد إلي وطنه يمارس عمله ، إلى أن استقل وطنه .. فاختير عضوا في المجلس التشريعي . وخلال حكم الإدارة البريطانية ، كوّن بعض رجال بنغازى جمعية اسموها " جمعية عمر المختار " تنهض ببعض المهام متعاضدة ، ومن أسماء رجالاتها مصطفى بن عامر وصالح بويصير[١٩] ونخبة أخرى مستنيرة ، وبدأت أولى خطواتها تعليم أبناء الشعب الليبى في حجرات مقاعدها صفائح قاز معبأة طيناً ، ومارست الجمعية دورا كبيرا في الاصلاح واصدرت جريدة..ترأس تحريرها الأستاذ صالح بويصير اسماها– الوطن– أسبوعية ، وقامت الجمعية بأعمال شتى تذكر لها فتشكر ، وضحت بأوقاتها وجمع المال من القادرين للمشاطرة في البناء الاجتماعى ، لأن البلاد كما يقال على البلاط ، خارجة من حرب طاحنة .. نحو أربع سنوات ، ويجللها الفقر والجوع والجهل ، وهى أعداء الإنسان الثلاثة ، لكن هذه الجمعية لم تعمر طويلا ، فقد اصطدمت مع النظام .. فحلت وأغلقت أبوابها وأصبحت تاريخا من التاريخ !

فى المرج !

هذه المدينة ليست كبيرة ، تقع شرق بنغازى بمائة كيل ، قريبة من سفوح سلسلة الجبل الاخضر ، في سهل ممتد .. شهير بإنتاج القمح ، ففى عام – الصابة – والعطاء .. يعطى الكيس الذى يبذر في الأرض مئة ، وترتفع سوق السنابل إلى متر وأكثر من سطح الأرض ، والمرج فيها العنب واللوز البجلي والتين والفول والحمص وغير ذلك، " والبرشومى " ويسمونه – هندى – عالية أشجاره ثلاثة وأربعة امتار ، وهو يشبه إنتاج الطائف عندنا ، وحين يستوى ، وحيث لاتطاله اليد ، فانهم يسمرون في عود طويل من الخشب – علبة – صلصة ، وتمتد اليد بهذا العود المثبتة فيه تلك العلبة إلى حبة الغلة .. فتدخل فيها العلبة ثم تلوى اليد الذراع أي العصا ، لتنفصل الحبة وتصبح في العلبة ، وهو لذيذ كإنتاج الطائف . والمرج مشهورة بالعسل ، ويسمونه عسل الجبل ، لونه كالذهب أو كقول حافظ إبراهيم: " صفرة تنسي اليهود الذهبا " .

عرفت المرج وأنا طفل ، ذلك أنى ذهبت إليه مرافقا لزوج جار أخي الأكبر .. لزيارة أهلها المقيمين هناك . ولبثت معها نحو ثمانية أو عشرة أيام ، وعمرى لايتجاوز

العاشرة ، وقد سعدت بهذه الرفقة التى لاأعى منها شيئا ، ولم أبرح الساحة التي بها سكن أهل الجارة .. الذى يطيف به حديقة فيها خيرات الله من الفاكهة الطبعية لذيذة الطعم ، وحلوة المذاق ولاسيما العسل واللوز والتين الشوكى والتين .. ذى الحبة الكبيرة ، ويسمونه – كرموس – .

لكن حين عدت مع الجارة ، وكانت رحلتى بالقطار لأول مرة يتاح لي السفر وبالقطار ، ويسمونه– بابور السكة– وفرحت بهذه الرحلة .. التى تفوق عندى اليوم رحلة حول العالم . فكل شيء كان له مذاق ، والحرمان يجعل أقل شيء له طعم ولذة ، وصدقت ايها الملهم والناطق بالصواب عمر الفاروق ، وأنت القائل :" اخشوشنوا فإن النعم لاتدوم " .

حين عدت .. عنّفنى أخي الأكبر لتأخرنا في العودة ، وهو يعلم أن ليس لي من الأمر شيء ، وكأنه كان ينتظر أن أنكد على أهل الدار والجارة ، لنعود سراعا ، وما شأنى ؟ وقد كنت سعيدا بهذا السفر ، وقد أتيح لي من الطعام ما لم أجده بين أهلى ، لحم خرفان يستوى في ربع ساعة على الفحم في برمة .. وفواكه ونعم الله التى لاتحصى ، وأنا معزز مكرم . ربما هاجسى الوحيد هو بعدى عن والدتى في

تلك الأيام يرحمها الله .. غير أنى كنت مطمئنا ، ولم ينتابنى شىء من قلق !

هذه المقدمة والزيارة الأولى إلى المرج ، أريد أن أتحول عنها إلى ذهابى إلى المرج مع زملاء .. من الذين عملنا معا في اصلاحات المبانى في بنغازى ، ما بين بنّاء ومنور ومليّس ، فحين انتهى عملنا أو كاد ، وربما بقى أسطى واحد .. ينتقل من مكان إلى أخر لإجراء اصلاحات ترميم ، أعلمونا بالذهاب إلى المرج ، فهناك أعمال تتطلب بضعة أشهر ، فيها البناء والتلييس والتنوير والتبليط ، وحدد لنا يوم لسفرنا غير بعيد ، وكل هذه الأعمال تابعة للإدارة العسكرية البريطانية .. التى تحكم البلاد ، بعد جلاء الجرمان والطليان .

ودّعت والدتى .. وانطلقت بنا إحدى لوارى الجيش إلى المرج ، وليس معنا من حطام الدنيا شيء يذكر ، سوى بطانيتين من بطاطين الجيش الايطالى ومخدة ربما كانت محشوة خروقا قديمة ، وربما إذا وجد بنطلون احتياطى وكوت ، وكلها من حصيلة ما تركته الجيوش الإيطالية والألمانية والانجليزية ، إذ ليس في البلد سلع مستوردة ،

وإن وجدت عبايات صوف أو بطاطين نسيج محلى ، فشراؤها يحتاج إلى المال الذى لا أملكه ، ولا يملكه الكثير من أمثالى .

لعل قارىء هذه الرحلة من أول العمر لا يصدق .. إذا قلت له وأنا أكتبها في هذه الأيام الاولى من شهر رجب عام ١٤١٥هـ ، بين المدينة المنورة وتونس ، لانى جئت للبلد الثانى الجميل مشاركا في ندوة أدبية ، فآثرت أن أكتب شطرا كبيرا من أيامى ، ومن دوافعى الميل .. إلى المناخ البارد ، لذلك أقمت أياما لأكتب وأقرأ ، لأنى وأنا في عملى بالنادى في جدة .. لا أستطيع أن أجد الوقت الذى أستطيع فيه الكتابة المطولة ، التى تحتاج إلى تفكير وهدوء . لذلك فأنا حين أريد الكتابة ، أتوجه إلى دار الحنان والسكينة .. في ذلك الجوار الكريم ، لاقرأ وأكتب ، بعيدا عن الصخب والانشغال ، أو تكون عندى سفرة غير طويلة ، إلى القاهرة ، كما صنعت حين كتبت تجربتى الصحافية " وتلك الأيام " ، أو تأتى مثل هذه المناسبة محدودة الأيام لاغنمها وأكتب فيها ما أريد .. أن أسطر !

قلت لعل القارىء لايكاد يصدق ، أنني أعجب من نفسي .. وأنا في هذه السن وعندى تلك الشجاعة التى كانت لى .. أيام الطفولة الغضة ، أعمل وأسافر وأحقق أشياء ما كان لي أن أحققها ربما وأنا كبير ، ويومئذ كنت الطفل الذى كان منطويا على نفسه خجولا ، ليس له من الفطنة والذكاء شيء يذكر ، وليس له من أيدٍ ولا شجاعة ما يدفعه إلى المغامرة والاندفاع !

إنني أكتب هذه الذكريات اليوم ، وأتذكر الأمس البعيد ، ولا أكاد أصدق .. أن هذا الشريط التى اختزنته ذاكرتى بفضل .. الذى خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وخلق فيه العقل وهو زينة وهذه الذاكرة الحافظة ، لاأكاد اصدق ما اتحدث به اليوم عن ماضيي ، ويشهد الله أنني لا أقول إلا صدقا ، وماحدث فعلا ، ولست محتاجا ولا أبيح لنفسي أن أكذب ، لأن المؤمن لا يكذب ، ولست في حاجة إلى المين ، لأن أي شيء أقوله زورا .. لايضيف لي شيئا ، وربما ينقص من قيمتى . وأعلم أن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وأن الكذب يهدي إلى الفجور ، وأن الفجور يهدي إلى النار ، كما يعلمنا من لا ينطق عن الهوى .. صلى الله عليه وسلم . أعود لأقول

كيف كانت لي تلك الشجاعة وشبه الجرأة ؟ والجواب لا أدرى ! إنه تقدير الله عز وجل . ولعل الحاجة أولا ، ثم الواقع المعاش .. الذى ليس فيه خيار في تلك الظروف لأمثالي .. ما يدفع إلى ركوب الصعب ، وأعود لأكرر ، ولعلى قد كنت أمارس معنى البيت المشهور من الشعر الذى استشهد به وأنا لاادرى ! وربما دافع داخلى كان المحصلة لما حدث وكان ، وكله بتقدير الله ومشيئته ، والشاهد هو :

لاستسهلن الصعب أو أدرك المنى

فما انقادت الآمال إلا لصابر

ولعله الطموح ! ولكن طموح من ؟ الذى لايملك شيئا .. كيف يطمح إلى شيء ما ؟ لنقل إنها الآمال ، فالإنسان يحلم ، وذلك خير ألف مرة من اليأس ، ربنا لاتجعلنا من القانطين من رحماتك . وصدق الله القائل : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون " . اللهم بفضلك اهدنا بهداك ، واهدنا فيمن هديت .

ذهبت إلى المرج مع رفاقى "المعلمين" ، وبعضهم لايكبرنى كثيرا ، ربما بعامين أو أربع ، وبعضهم أسن ،

ولكن كلنا فيما يبدو شباب ، وحالنا تكاد تكون واحدة ، فنحن نعمل لنعيش ، والحمد لله فنحن قادرون على العمل ، وقد أمرنا أن نعمل ، كنا نحو ثمانية أو تسعة ، وقد أسكنونا في جانب من مخزن قديم أمامه حائط وأرضه تراب وطين ، وحملونا إلى الأماكن التى سنعمل فيها ، ثم مروا بنا على الضباط الانجليز المسؤولين عن إدارة المرج ، وهم ما بين .. رائد ومقدم وعقيد ، في رتبهم العسكرية ، وحفظنا بعض الكلمات الانجليزية المهمة ، لنفهم وننقل إلى غيرنا ما نريد قوله ، ومكاتب المسؤولين الانجليز لاتخلو من مترجم في كل الاحوال .

سكنا في ذلك السكن الفقير ، ربما كان فرش أرضه ورق وقطع قلع ، وبدأنا أعمالنا ، ننطلق من الصباح الباكر ، بعد التهام كسرة خبز وحبات زيتون . وحين ينتصف النهار ، نبعث من يحضر لكل منا رغيف خبز وشيئاً من السكر والشاى ، ليصنع في علبة صلصة أو حليب أو نحوهما ، والفناجين من نفس الصنف ، ونحن قانعون وسعداء ونرى أنفسنا أننا أصبحنا رجالا عاملين ، فتلك سعادة غامرة .

ونعود إلى سكنانا مع الساعة الخامسة مساء ، ومعنا كيلوان أرز وعلبة صلصة ذات المائة غرام ومائة غرام زيت

زيتون ، ونبدأ في طبخ عشائنا ، وفى كل يوم يقوم بالطبخ واحد منا ، ويساعده من يوقد النار وهى من اللوح ، أما القدر .. فهو نصف تنكة ، وهو وعاؤنا الوحيد ، وهو كذلك قصعتنا وصحفتنا الوحيدة ، إذ ليس عندنا مواعين ، والذى اهتممنا به وشريناه ، وربما أحضره كل فرد منا مع فراشه المتواضع ملعقة يأكل بها ، إذ من الصعب الأكل باليد من صفيحة حامية هى القدر والقصعة وربما حرم بعضنا .. إذا استطاع بعضنا الأكل من القدر – مجازا– والطعام حار .

أما ماؤنا الذى نشربه فهو معبأ في جالون أو اثنين ، ولم تكن جوالين اليوم – البلاستيك – ، وإنما جوالين من صفيح ، مطلاة من الداخل بدهان أحمر ، ومن الخارج أخضر غامق ، وهى متينة ، وهى في الاصل يستعملها الجيش الألمانى ، حيث تأتى معبأة وقودا – بنزين – ، وهى محكمة جدا ، لاتهرب شيئا مما فيها .. رغم نفاذ البنزين .

وبمناسبة ذكر هذه الجوالين .. فثمة حكاية طريفة عنها ، فالجيش الألمانى يفرغ محتويات تلك الجوالين في السيارات أو مختلف استعمالاته ، ويرمى بها حيثما يكون فارغة .. في البرارى وحول المعسكرات وخارج

المطارات ، والناس يجمعونها ويملأون فيها الماء ، ويستعملونها للورد !

ويبدو أن الكمية نقصت من هذه الجوالين .. من كثرة ما بعثر ورمى ، ويحتاج إليها لتملأ وقودا من جديد ، وفكر في طريقة ماهرة ذكية . فقد طولب كل أسرة يتقدم وليها لتسلم التموين شهريا أو أسبوعيا .. أن يقدم مع البطاقة جالونا من تلك الجوالين .. التى يرمى بها الجيش الألمانى .. تحت الأشجار أو حيثما يشاؤون . والذى لايحضر جالونا .. لا يصرف له التموين ، واضطر الشعب إلى خدمة الجيش الجرمانى .. ليحصل على تموينه ، أن يتجند إلى جمع ما يستطيع من جوالين ، ليقدم إلى مراكز صرف التموين جالونه ، وربما كان ذلك لفترة محدودة ، حتى جمع كمية كبيرة سدت النقص .. لبضعة أشهر ، ذلك أن الكميات كثرت عند الناس من جمعها .. في البر والمدينة والقرى ، حتى قال قائلهم :

ياعذابى يانا عليّ جراماتى بالبيدونى

والجرامات هو التموين ، والبيدون – الجالون – . إذن ماء شربنا من – البيدونى – يملأ من الحنفية حين توقفت صناعة الازيار ، ونحن لسنا في حاجة إلى تأثيث ،

مادام يوجد البديل .. الذى يؤدى أو يسد الحاجة . مكثنا في المرج نحو ثلاثة أشهر متواصلة ، حياتنا لم تتغير ، ووجبتنا الوحيدة في المساء –رز قفار – وقد يشيط إذا قويت النار ، وفى الظهيرة كسرة خبز بمغراف تنك فيه ماء من الحنفية أو من بئر يستخرج بدلو ورشاء .

ولا أنسى ذهابى ذات يوم لحلاق في المرج ، ليخفف من شعر رأسى . لأنه طال وفيه أكلان ، وكم انزعجت حين رأيت – القمّل – يتساقط مع الشعر ، ولكنه ليس كثيراً .

إنما المفاجأة يوم عدت إلى والدتى بعد تلك الغيبة الطويلة ، وكانت شقيقتى الصغرى في يوم " حنّتها " حيث ستزف في اليوم التالى إلى ابن عمتها ، ففرحت بى أمى وأختى ، وقلت للشقيقة .. نظفى لي رأسى ، فغسلته بماء وصابون ، ثم أخذت تكده بالمشط وكان القمل يتساقط على قطعة قماش بيضاء علقتها في رقبتى مثل الرز كثرة ، فحزنت أمى وأختى وقالتا هذا من الرز القفار .. حين علمتا غداءنا في وجبتنا الوحيدة ، وأنا لا أكاد أصدق ما أرى ، رغم أنى كنت أحس بأكلان في رأسى ، وكنت أهرشه من حين إلى أخر وليس لي حيلة غير ذلك ، فلا أملك وسائل

تنظيف ولا تمشيط ، ولا عندى وقت لذلك ، فالأيام عمل وتعب متصل ، وأنّى لمثلى الأدوات وحالنا كما وصفت ؟

وفى اليوم التالى زفت شقيقتى إلى ابن عمتى ، من غير احتفال ولاشيء من اسراف ، وإنما زواج متواضع جدا ، على شاة وملابس نسائية متواضعة ، وإلى منزلها المستأجر ، وهو خير من منزلنا ، لانه مسلح ومسقوف ودورة مياهه إفرنجية ومبلط إلخ .

وابن العمة جاء من مصر مع الجيش السنوسى ، وقد غادر ليبيا كما قلت من قبل .. يوم تقهقر الجيش البريطانى عائدا إلى مصر .. أمام زحف قوات المحور . وبعد أن بقى الأخ محمد الكاديكى في الجيش نحو سنة اختاره السيد أبو القاسم السنوسى قائمقام .. بنغازى ليكون عضده .

وبالمناسبة فدار العروس المفترض أن تسكنها حين تزف إلى زوجها أو قل حجرتها – الأرضية – ، كانت آيلة للسقوط ، وهو بناء قديم موروث عن الوالدة والجد ، فطلب إلىّ حين خطب شقيقتى أن أتولى أمر تلك الحجرة ، فنزعت – سنورها – عيدان السقف والحصر التى تحتها– ، وهددت الواجهة ، لانها آيلة للسقوط ، وبنيتها وحدى ، لا عامل معى ولا من يمد " المونة " التى تطورت من الطين

إلى الكلس والاسمنت ، أما الحجارة ، فهي تشبه الحجر - المنقبى - في جدة ، يستخرج من الأرض ، والأسطى البنّاء يتولى - بشاقوره - الحديدى تهذيب كل حجر ، وجهه ومرقده أي أسفله وأعلاه حتى يمكن أن يوضع فوقه حجر آخر .. يستقر ، لينسجم البناء ويعتدل . ولقد كنت أعشق هذا العمل ، فسرعان ما اتقنته ، ولقد مارسته حتى في جدة ، حيث بنيت أول منزل لي فيها في عام "١٣٨١"هـ . وفي أكثر من مكان ، وكما قلت من قبل .. من فضل الله عليَّ أنني أعشق أي عمل أتولاه ، واتقنه ما أستطعت إلى ذلك سبيلا ، وكان فضل الله عليَّ كبيرا .

وذلك العمل .. تطوّعاً ، دون أي مقابل للجهد ، ويكفى أن يوفر القريب المونة التى أعمل بها ، وقد اتقنت حجرة العروسين ، بناء وسقفا وتلييسا وأرضية اسمنت ونورة ، ودهانا ، ليس بوية زيوت وبلاستيك ، ولكنها نورة حجرية ، تشترى من - كوشة الجير - في أكياس ، وتفرغ في براميل من صفيح حديدي مفتوحة ، ويصب عليها الماء فتأخذ - تطبخ - ويحمى سطح البرميل ساعات ثم يبرد ، وتصبح مثل العجين ، فيضاف إليها ماء لتكون صالحة للاستعمال ، ويؤتى بفرشاة .. كبيرة ، ثم يبدأ في تبييض

الجدر مرتين ، حتى يتغطى لـون التلبيـس ، وتصبـح الجـدر بيضا ، وربما أضيف إلى هذه النورة الحجرية لون وردى أو أزرق أو أخضر - بودرة - لكـن الغالبيـة أن تكـون الجـدر بيضا ، لكن أختى زفت إلى بيـت اسـتاجره زوجهـا .. حيـن أصبح لـه مركـز فـي الحكومـة ، أحسـن ممـا بنيـت ، لانـه مسلح وحمامه افرنجى والسكن جيـد .. كمـا أشـرت قبـل قليل . وأذكر أنه قال لي الأخ محمد الكاديكى .. إنه حيـن كان متصرف بنغازى ، جاءته قبيلتان تتنازعان في بئر ماء .. تقع في منطقة تسمى - الأبيار - ، نحو أربعين كيلا شـرق بنغازى ، وهى منطقة برية للحرث والرعى .. وانتهى الحكم لجانب دون آخر من المتخاصمين ، فخرج قائل من القبيلة التى لم تظفر بالبئر ، واسـمه سليمان رقـرق .. يـردد علـى اسماع الناس:

حَـرّكت واجـد ما نفعْ تحريكى

بـلاد خـاربـه مـديرهـا كـاديكى

وبادية ليبيا مشهورة بالشعر البدوى البليغ ، وأذكر أنـى قابلت البرفسور " بيتر " ، وهو أستاذ علم الاجتماع .. فـي جامعة منشستر ، وكان قد أخذ سنة تفرغ أيام حكـم دولتـه لليبيا العسكرى قبل أن تستقل البلاد ، وذهب إلـى برقـة ..

ترافقه زوجته ستيلا ، وسألته عما يتميز به بدو برقة ، فقال : إنهم يوصلون ما يريدون قوله .. في أقل عدد ممكن من الكلمات ، وكان يحفظ جملا وأشعارا وأمثالا ، ينطقها باللهجة البدوية .

أما السيدة " ستيلا " ، فقد ألّفت بالانجليزية كتابا اسمته "بيت الشعر" ، بفتح الشين المشددة ، وقد أتاح لهم الأخ الكاديكى .. الاقامة مع البادية شهورا ، وهو قد عرفه حين كان الكاديكى يدرس شؤون الإدارة في بريطانيا عام "١٩٥٠" مبعوثا من الإدارة العسكرية من بنغازى . وقد أتيح للسيد بيتر التعرف على العديد من الشخصيات الليبية ، وربط بهم علاقة وصداقة .

ولا أنسى ذات يوم في منزل أخي الأكبر ، وكان ثم فرح لاحد الاقرباء ، وسيكون العشاء في بيت أخي ، وكان في – السقيفة – لمبة كهربائية مغطاة بوسخ الذباب ، وعنّ لي ، وأنا طفل في نحو الثانية عشرة أن أنظف تلك اللمبة ، وهى عالية ، ولابد من وسيلة أرتفع بها لاصلها ، وليس أمامى سوى برميل حديد كبير من صفائح سميكة ، فقربته تحت اللمبة وصعدت عليه ، وأخذت أبرم اللمبة بيد ، والأخرى تمسك الجزء الثابت في السلك الكهربائى ، ثم

لا أشعر إلا وأنا أسقط على الأرض وبيدى اللمبة وقد انقطع السلك ، وذلك بعد أن غبت لحظات عن الوعى ، ولكنى لم أحس بآلام ، والصغير يحتمل الكثير ، ويقاوم الكثير ، والحامى هو الله ، وقد ابتهج أهلى لانه لم يصبنى مكروه ، ولو لم أسقط .. ولم ينقطع السلك لأهلكنى التيار ، فقد كنت حافيا وواقفا على برميل حديد .

بعد عودتى من المرج وزفاف شقيقتى ، لم يطل مكثنا في بنغازى ، فسرعان ما جاء موسم الحج ، وهو أول حج منذ اندلاع الحرب الكونية الثانية . وجاء الأمر من وزارة المستعمرات إلى الإدارة البريطانية بسفرى ووالدتى إلى جدة .. كطلب خالى مصطفى بدر الدين رحمه الله من السفير البريطانى بجدة ، ومن توفيق الله أن يتوافق ذلك مع بدء سفر الحجاج إلى الأراضي المقدسة عن طريق مصر وقناة السويس . ولكنا لسنا حجاجا .. كما يبدو لي وإن كنا مع الحجاج ، وإنما رحلنا لنقيم مع الخال ، وتلك مشيئة الله .

وقد ودّعنا الأهل والجيران والأقارب ، ونحن تقلنا – كروسة – يجرها عيْر لاحد الأقارب ، لتحملنا صباح ذلك اليوم الباكر .. من البركة ، أو قل من الرويصات حيث

نسكن ونقيم .. إلى ميدان البلدية في بنغازى ، حيث تجمع الحجاج هناك ، ومن ذلك الميدان ركبنا تلك الشاحنات وقاطراتها إلى الأراضي المصرية ، ولعلها شاحنات إيطالية من الموجود في البلاد لشركات أو نحوها ، يطلق عليها "٣٤" وكل راكب وراكبة فراشه تحته على أرضية تلك الشاحنات ، وربما أخذ القادرون حصرا لفرشها تحت فرشهم المهلهلة التى لاتغنى فتيلا "وكم يمر على الحاج ويحج " كما يقال !

وكانت تلك الشاحنات ، ولا أذكر عددها ، وربما كانت ثلاثا أو أربعا فالحجاج ليسوا كثيرا ، لأن الناس فقراء والبلاد خارجة من حرب .. لم تبق ولم تذر .

كانت الشاحنات تتوقف بعد كل مسافة ، ليقضى الحجاج حاجاتهم ويتوضأوا ويصلوا ويأكلوا ويشربوا الشاى المغلى ، ومعهم عدته – و بوابير – القاز "الدوافير" ، " والزمّيتة " ، أي السويق من الشعير والتمر وزيت الزيتون ، والقديد ، "والروينة " وهى دقيق مكون من حلبة وحمص وكزبرة مطحونة كلها ، ويعمل منها خميرة ، وتُروّب وتُشرب صباحا بعد اضافة السكر إليها ، فهى

مروّقة ومغذّية ، ونحن نقول أو يقول بائعو الحلبة النابتة مع الفول النابت المستوى : – النافع الله ياحلبة – فالحلبة إذا لم تنفع فلا تضر .

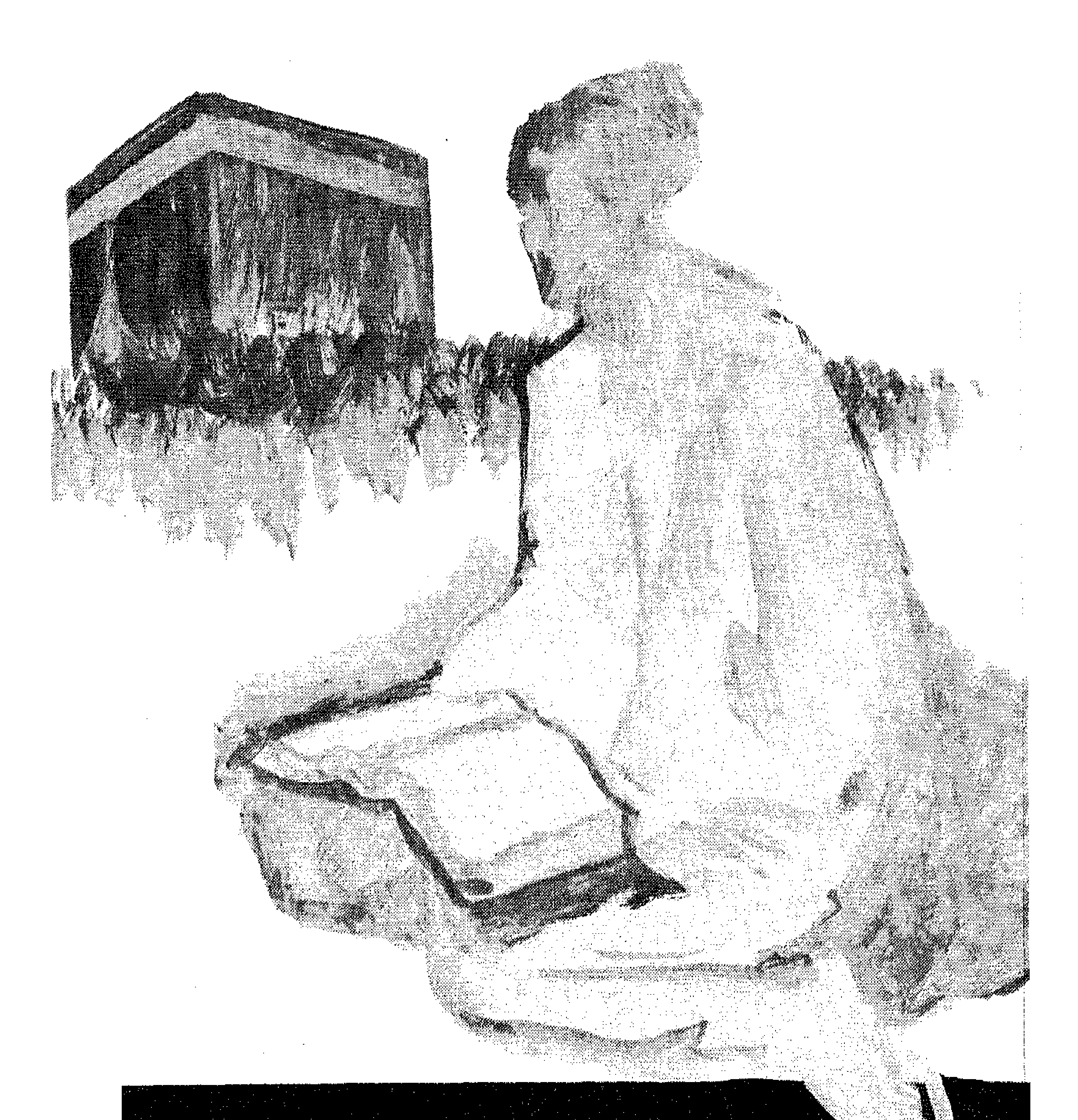
لقد كانت رحلة ممتعة ، وإن كنت لا أفقهها كثيرا ، لأنى كنت مثل الاطرش في الزفّة ، كما يقول المثل الدارج . وها أنا أتذكر بعد أكثر من خمسين سنة ، وقد كانت عام "١٣٦٣" هـ ، الموافق "١٩٤٤" م .

وأعيد القول ، إنني وأنا أتذكر..أعجب من مواقف وجهود كنت أؤديها يومئذ ، ربما لايؤديها الكثير من جيل اليوم ، وهم أكثر شبابا وصحة وقوة ، ولكنهم كسالى خاملون ، ركنوا إلى الدعة ، واقتعدوا الترف ، وجنحوا إلى الراحة ، وهي لاتخلف ملاحة كما يقال ، ولكنها تورث ترهلا وخمولا ، وربما فسادا ، لانها سهر بالليل وقتل للوقت بالنوم طوال النهار ، إنّها جريمة من الإنسان في حق نفسه ، فلا طموح ولاواعز يدفع إلى المعالى والتّوق إلى الرقى والعلم والحضارة ، إنه مردود الترف واهمال التربية التي تسبق التعليم ، مثل الذين اثّاقلوا إلى الأرض ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وصدق امير الشعراء القائل :

شـــباب قُـنّع لا خـــير فيهـم

وبورك في الشباب الطامحينا

• • •



الفصل الثالث

- ١ -

نحن نقرأ في كتابنا العزيز قول الله تعالى : "هل جزاء الاحسان إلا الاحسان" . وأنا حين أتحدث عمن أحسن إليّ ، فإنما أؤدى واجب شكر .. لايفضى إلى شيء في تقديرى ، ولكن أقل ما فيه أنه اعتراف بالجميل .

وليس عسيرا أن يتحدث الإنسان عمّن عرف ، ولكن العسير الحديث عمّن لم يعرف ، فهو أشبه بالرجم بالغيب . فالمعرفة .. مخالطة ومجاورة ومرافقة ، وما عداها .. لايعد معرفة بالمعنى المحدد القريب .

فالشيخ مصطفى بدر الدين الْفِلِيتى .. خالى ، وهو شقيق والدتى رحمهما الله برحمته التى وسعت كل شيء . عرفته بآخرة ، لانه كان يعيش في بلد ، وكنا نعيش في بلد آخر ، والبلدان بعيد بعضهما عن بعض . ودام البعد ثلث قرن ، وهو زمن طويل في الشدائد وقصير في اليسر والحياة الرخية .

منذ عام ١٩١١م حين غزا الإيطاليون ليبيا ، وكان خالي يومئذ كما قيل لي موظفا في "جمرك درنة" ، وكانت تركيا تحكم العالم العربى ، ومنها ليبيا ، أو لوبية .. كما

كانت تسمى عند المؤرخين والجغرافيين ، فترك البلاد وشرّق ، فحط رحاله في الحجاز ، وكانت هي الأخرى تحت الحكم العثماني .. أو قل في أواخر ذلك العهد ، وكانت الحياة صعبة في تلك الأيام ، ولعله سافر إلى تركيا مع من رحل من الأراضي الحجازية . فأنا لم أتتبع حياته من زوجه أو ابنائه .. في تلك الحقبة بعد رحيله من لوبيا ، وكانت فترة مضطربة بالاحداث الجسام .. وعدم الاستقرار ، والحياة قاسية صعبة . وخلال العهد السعودى .. عمل في شمال الحجاز ، في الحقل الجمركى .. وتعب كثيرا ، لقسوة المناخ وشح الامكانات وقلة الموارد .. في أرض قاحلة ، لانبات فيها ولا ماء . ولكن الإنسان ابن ظروفه .. شاء أم أبى ، ليس له خيار في حياته ورغائبه ، وصدق الشاعر الهذلي القائل :

والنفس راغبة إذا رغّبتها   واذا تُرد إلى قليل تقنعُ

ويقال في الأمثال : عش كيف تجد .. لاكيف تريد .

واستقرت الحال بالخال مصطفى بدر الدين – رحمه الله – في جدة .. حيث أصبح " ناظر عموم الرسوم " أي مدير عام جمارك المملكة العربية السعودية . ولعل كلمة " النظارة " ، أتت من المسميات العثمانية . ولعله ارتاح

بعض الشيء من الترحال وذهاب الاستقرار والعناء والنصب ، ومضى الكثير من عمره .. في تعب متصل ، والحياة كلها تعب ، كما يقول أبو العلاء .

وهو الذى جلب المهندسين من الاسكندرية .. لبناء مقر الجمارك ، حيث مبنى المحمل اليوم .. التابع للبنك الأهلى التجارى ، وبقايا من أقواس المبنى الجمركى باق ، ملاصق لمبنى وزارة المواصلات سابقا .. في شارع الملك عبد العزيز بوسط جدة - القديمة - .

كانت والدتى رحمها الله .. تبعث بالرسائل مرة في السنة مع حجاج " بنغازى " إلى خالى رحمه الله ، تبثه أشواقها إلى رؤيته ، وتسأل عنه وعن أسرته . وكان يبعث إليها مع من يعرف كل عام من الحجاج جنيهين أو ثلاثة ذهبية ، فكانت تفرح باخبار شقيقها .. وتفكره لها . وكان لهما شقيق ثالث اسمه " بشير " هاجر إلى تركيا وانقطعت أخباره .

إذن إلحاح والدتى رحمها الله على شقيقها .. في كل عام بتلك الرسائل مما دفع عاطفته إلى السعى لتقدم عليه مع ابنها الوحيد ، وكان لها بنتان ، تزوجت الكبرى ، ولحقت بها الأخرى ، وما كان في برنامج الوالدة .. عليها

رحمة الله أن تصحب معها سوى ابنها ، في الوقت الذى كانت فيه الابنة الصغرى على وشك الزواج من ابن عمتها . وبعد زواجها بأيام .. يسر الله سفرنا إلى جدة ، حيث يقيم الخال في موسم حج عام ١٣٦٣هـ ، مع حجاج بنغازى .. كما أشرت آنفاً ، إلى الاسكندرية – على ما أذكر – أو إلى مطروح .. لا أدرى! . ثم ركبنا القطار إلى السويس ، وكانت السلطات في مصر .. تريد حجزنا في الكورنتينة ، وبعد احتجاج من الحجاج .. لطف الله بنا ، وركبنا البحر إلى جدة . وكانت المواخر .. تقف في عرض البحر ، ثم ينقل ما تحمل من سلع وركاب .. بواسطة السنابيك – ، قوارب شراعية .. تسيّرها الرياح إلى رصيف الجوازات والجمارك . وقد وصلنا سالمين والحمد لله على الباخرة .. وأظن أن اسمها – شارللا – ، لعله اسم هندى ، ووجدنا خالى واقفا على الرصيف .. بملابسه البيض الناصعة وعقاله الغليظ على رأسه ، وهو كما قلت يشغل وظيفة – ناظر عموم الرسوم – وكان على نفس الباخرة .. التى أقلتنا من السويس صهره .. زوج ابنته السيد محمد العالم ، سورى الجنسية ، وأصله من طرابلس الغرب .

وأخذنا خالي بسيارته إلى منزله في – النزلة اليمانيـة – وهي سيارة صغـيرة متواضعـة جـدا "BB" فـي ذلـك الوقـت المبكر .. ولبثنا يومين عنده ، وكـانت فرحـة والدتـي بلقـاء شقيقها لا توصـف ، فالعاطفـة جيّاشـة عنـد ذلـك الجيـل .. الذي لم تلوثه المدنية .. التي تُقسي القلوب وتقتل العاطفة.

وسحت يوما في مدينـة جـدة ، وكـان حولهـا – سـور يطيف بها ، وهـي جديـدة علـيّ وغريبـة لغـة وحيـاة ونمطـاً ونماذج بشرية خليط من اجنـاس شـتى . وكنـت أسير فـي شـوارعها وحيـدا .. كمـا يسـير أي غريـب طـارئ ، فـي تحفظ وهدوء ، ثم شاء الله أن أكون منها ، وفيهـا مقيمـاً ، لانها – هواى – . ولا يعرف الشوق إلا من يكابده .. كما قيل . وهي تُحَب ، لانها .. الحب !

وأبلغ خالي صهره وأنا بأننا سنحج مع المطوف – جعفـر عبد الغنى عابد – ، ومقره في الشبيكة ، بمكة المكرمة ، وقـد أخبره بذلك ، أما والدتي .. فسوف تحج معه وأسرته .

وركبنا سيارة لورى .. محمد العـالم وأنـا إلـى مكـة .. وهناك كانت المفاجأة ، فحين وصلنا إلى منزل المطوف .. وجدنـاه قـد رحـل بحجاجـه إلـى عرفـة ، وأظنـه كـان يـوم التروية ..

فاسقط في أيدينا .. ونحن حجاج ، لا نعرف أحدا ، ولانعرف شيئا ، واستأجرنا حمارين من القشاشية إلى عرفة ، ايجارة الحمار يومئذ ريالان .. على ما أذكر ، هكذا أشير علينا أن نفعل ، لندرك الحج وكلانا محرم ، منذ أن حاذت الباخرة التى تقلنا –الجحفة– ، سابقا ، أو رابغ . والجحفة .. جزء من رابغ ، وهو الميقات .. الذى يحرم منه المارون عليه والمحاذون له . وقالوا لنا انكم ستجدون مطوفكم في عرفة . والحج كان يومئذ قليل العدد . وكانت ليلة ليلاء .. فالمشوار طويل من مكة إلى عرفات ، ولكننا كنا صغارا . ووصلنا عرفة أخر الليل ، وقضينا نهارنا يوم الوقفة..نفتش عن مطوفنا حتى جهدنا ، ولكن دون جدوى ، ونصحنا بأن نذهب إلى خيمة شيخ المطوفين .. لنستريح عنده بعض الوقت ، ونصيب ما يتاح لنا من طعام ، فهو مأوى الحجاج التائهين إلى أن ينفر الحجيج إلى منى في مغرب يوم الوقفة ، وهناك في منى معروف أماكن المطوفين ، وقد كان ذلك ، حيث قصدنا شيخ المطوفين .. ونحن غريبان ، وهناك تغدينا مع غيرنا من التائهين ، والتعب أخذ منا مأخذه ، وحين غربت الشمس دفعنا إلى المزدلفة راجلين ، ومنها إلى منى ، وفيها

التقينا بمطوفنا ، وخالى لا يعلم من أمرنا شيئا . وقد حاول الاخ محمد العالم الاتصال ببيت خالى من مكة هاتفيا .. حين وجدنا أن مطوفنا تحول إلى عرفة ، ولكن لا أحد يجيب ، فأدركنا أنه حمل أسرته ووالدتى إلى الحج ، وقد اطمأن علينا حيث وكّل أمر حجنا إلى المطوف . وفى الحج لابد من المشقة والتعب . ويقال : الاجر على قدر المشقة .

ولا أنسى .. وأنا في المسجد الحرام .. في إحدى الصلوات ، كان يجلس بجانبى رجل ، لابد أنه من أهل مكة ، فهو لم يكن محرما ، ولعله لاحظ أن إزارى فيه مخيط ، ربما لم يكن قطعة واحدة ، لأنه لايوجد يومئذ – إحرامات – في بنغازى ، فأنا فقير مدقع وفى عوز ، والبلاد خارجة من حرب وتحكمها إدارة عسكرية بريطانية ، وليس لها موارد حتى ما يسد الرمق والنقص في كل شىء ، والحياة كفاف ، وأنا ليس لي احرام مناشف أو قماش أبيض جديد .. غير مخيط ، والله وحده .. هو العليم بالحال كلها ، وإليه المشتكى .

ولعلى هززت رأسى للرجل الناصح ، أو تمتمت بكلمات .. أشبه بالهمس ، بالاستجابة لما قال . ولكنى

لا أحمل مالا ، لا قليلا ولا كثيرا ، ولعل لسان حالي يـردد قول نبي الله موسى عليه السلام : " رب اني لما انزلت إليّ من خير فقير " .

وعدت ورفيقي محمد العـالم إلى جدة .. بعـد الحـج مباشرة لنبقي عند خالي يوما وليلة ، ثم يبعث بنا مع والدتـي إلى المدينة المنورة،وكان ابن خالي .. عبد اللـه بـدر الدين .. رحمه الله يشغل هناك " مأمور الرسـوم " .. مديـر الجمرك بلغة اليوم ، متزوج وله طفل على ما أذكر ، ونـزل ثلاثتنا عنده أياما . ثـم عـاد السيد محمـد العـالم إلى أهلـه حيث يقيم ويقيمون فـي دمشـق ، أما أنـا ووالدتـي .. فقـد استأجر لنـا ابن خـالي بيتا مـن بيوت المدينـة – صغير – يؤوينا .. في حوش التكارنة بالساحة غـير بعيـد مـن المـنزل الذى يسكنه .

وظللت أياما ، أو ظللنا والدتي وأنا ، نتناول دراهم مـن ابن خالي نعيش بها فـي حـدود الكفـاف ، ولـم تطـل حيـاة والدتي ، فقد انتقلت إلى رحمة الله . وأشـهد أن وفاتهـا .. عليها رحمة الله ، قد ترك لي فراغا وأى فـراغ ، وكنـا معـا نعيش غريبين ، لاتواصل ولا معارف ، وقد بعدنا عـن البلـد الذى كنا نعيش فيه والأهل هناك . وضاقت علينا المدينـة ،

ولا أقول .. ضاقت بنا . وكنا راضيين بذاك الامتحان ، فخالي بجدة ، وابنه قريب .. وإن كان مشغولا بحياته ، وابنة خالي الكبرى زوج الشيخ أسعد عويضة ، تتفقد والدتي – عمتها – بالزيارة .

وكان يظلنا المناخ الروحي .. في جيرة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، فقد كنت أذهب إلى المسجد النبوي للصلاة .. وهو غير بعيد من سكنانا ، وأعود إلى أمي .. تملأ عليَّ فراغي واملأ فراغها وبعدها من بلدها وأهلها ، وخاصة بناتها ، ولكن ليس لنا خيار ، وقد رضينا بما قدر لنا وعلينا،لكن كان ثمة قلق في النفس خفي لايظهره أحدنا للآخر ، ولعل الصمت يغنى عن البوح ، إذ ليس لنا من الأمر شيء . وليس لنا من عدة سوى الصبر ، وهو صعب ، غير أن الله يعين على الاحتمال . وكنت أتلو ما معى من القرآن في المسجد الشريف . وكلانا ، والدتي يرحمها الله وأنا يجد كل منا عند الآخر الإيناس في الوحشة والوحدة . إنه امتحان واى امتحان ، ولكن الجوار الكريم .. يخفف من ثقله ورهقه . وصدق الله القائل : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ ، ولعلها حال امتحان !

غير أن وفاة والدتي .. زاد آلامي وقسوة وحدتي

وغربتي ، وهي لم تتخط شهر المحرم من عام ١٣٦٤هـ ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ . فانتقالها من ليبيا ، لترى أخاها وتحج فرضها ، ثم ترقد في الجوار العزيز الكريم ، وهو أماني الكثير من المسلمين ، ترك لي وحشة كبرى ، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت . وأنا أعزل من كل شيء إلا من إيماني بخالقى وصبرى . وهما أقوى سلاح وامضاه . وقد ذهب الصدر الحنون الحانى ، وتركنى في غربة ، لا أهل ولا علم ولا مال ولا زوج ، لا أحد غير الله ، الذى لا يترك أحدا مما خلق . ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

كانت مرارة ، وكان بكاء مرا وحزنا ، لانه فراق من أحب ومن يحبنى بأغلى من نفسه ، ويتمنى أن يهبنى الحياة ويذهب لأبقى . وهذا امتحان جديد لى .. أقسى وأعنف من سابقه . فإلى الله المشتكى والمفر ، ولا راد لحكمه وقضائه . ولاحول ولاقوة إلا به . ذهب من أحب ، ومن يحبنى بلا حساب ، مضى الصدر الحنون والقلب الحانى ، والجوارح التى تتألم لألمى ، وتخشى عليَّ هبوب الرياح ، وترتعش خاشعة لخالقها بان يقينى ويحمينى ويعافينى ويغنينى ويسعدنى ولا يشقينى . والأمر لله من قبل ومن

بعد . ما شاء الله كان .. وما لم يشأ لم يكن . فعليك يا أمي رحمات ربى ما طلعت شمس ، وبزغ بدر ، وغرد طير ، وسبح ذاكر ، ودمعت عين ، وخفق قلب ، وتذبذب نبض ، وخشع عابد وصلى وصام وسجد وكبر لمن خلق وقدر ، عالم السر وأخفى . وسبحان من له البقاء ، الذى ﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ .

وكتبت إلى خالى رسالة ، بخط وتعبير الله يعلم حالهما لأن معارفى لم تتجاوز حفظ بعض الكتاب العزيز ، على النمط التقليدى ، وهو كتابة – ايات – على لوح خشبى .. وبعد حفظها أمحوها ليكتب لي غيرها الفقى الذى كنت أتردد على كتابه لهذه الغاية ، ووصل حفظى إلى سورة الحج ، بدءً من الفاتحة وسورة الناس صعودا إلى ذلك الحد ، ثم تركت المكتب .. لأتوجه إلى العمل ، وأنا في سن مبكرة .. لا تتجاوز الحادية عشرة ، لأنفق على والدتى كعامل في مقهى .. ومقهى . ثم في فرن عند خباز ، لاحمل الخبز إلى بائعيه ، واحضر النشارة للفرن ، وأساعد في استقبال خبز البيوت وصوانيهم نهارا الخ .. في بلدى الذى ولدت فيه وعشت . واستجاب خالى رحمه الله لطلبى

الملح ، الذى أعلنت فيه بذلك التعبير الردىء غير الواضح ، وربما غير المفهوم . الذى قلت فيه .. إنني لا أريد تجارة ، كما أشعرنى الخال ، ليصبح لي عمل . ولكنى أريد أن أتعلم وأن أدرس ، أريد المعرفة وحدها ، وذلك من فضل الله عليّ الذى ألهمنى وشحذ نفسى إلى هذا التوجه ، وبمناسبة ما رأيت في العنبرية بالمدينة من طلبة المدارس .. في استقبال ركب ملك مصر .. وهم يرددون تلك الأناشيد العذاب .. التى تغلغلت في نفسى فانحفرت فيها ، ولم أعد أريد من الحياة .. غير العلم لأصبح مثل أولئك التلاميذ .

كتب خالى لابنه عبد الله ، أو كتب مباشرة إلى مدير مدرسة العلوم الشرعية ، وهى مدرسة أهلية .. في المدينة المنورة أسسها السيد أحمد الفيض أبادى رحمه الله ، لأن المدارس الأميرية لا تقبلنى لكبر سنى ، ولكن مدرسة أهلية .. قد يكون فيها شيء من تسامح لكي تقبلني . لكن حتى هذه المدرسة اعتذرت بأدب عن قبولى للعلة نفسها ، وهى كبر السن !

ومارس خالى من مركزه الرسمى ومن خلال شخصيته .. ما يسمى الضغوط الأدبية ، فقبلتنى المدرسة

مشكورة ، في عهد مديرها الشاب السيد حبيب محمود وألحقت بالسنة الرابعة الابتدائية ، أما السنون الثلاث الاولى من هذه المرحلة ، فهى مخصصة لحفظ القرآن وتعلم الحروف وكتابة الكلمات ونطقها إلخ .

ولعل المرحلة المدرسية الجادة يومئذ .. ويمكن حتى اليوم فهى السنون : الرابعة والخامسة والسادسة .

التحقت بالمدرسة ، بعد بدء الدراسة بنحو ثلاثة أشهر ، وكانت الدراسة تنتهى على ما أذكر بحلول شهر رمضان ، وتبدأ من المحرم .

وكنت في فرحة غامرة ، لايعلم قوة أثرها وعمقها .. إلا الله ، ثم نفسى المتحفزة إلى المعرفة ، وأذكر أن الفترة التى مكثتها في السنة الرابعة لاتزيد عن أربعة أشهر .. قبل بدء العطلة الدراسية ، ولم يكن يومئذ عطلة نصف سنوية ولا هذا التعطيل الذى نراه اليوم المتعدد !

وكنت ألتهم الكلمات والسطور ، واستعين بعد الله بزملائى الأصغر منى سنا ، وأنا أسنّ مَنْ في الفصل .. وكانوا كرماء معي ، يعينوننى فيما احتاج إليه .. لافهم ما فاتنى من الدروس في الشهور التى خلت منذ بدء الدراسة .

بل كنت التقى معهم في ساحة الحرم النبوى لنذاكر دروسنا ، بعد العصر ، وفى الحقيقة ، فقد كنت المستفيد الاول من هذه اللقاءات .. لأفهم أكثر وأحفظ ما فاتنى وما أحاطوا به هم ، لأنهم سبقونى تأسيسا منتظما وشهورا يتلقون من أساتذتهم المعرفة ، وكانوا أساتذة مخلصين لان التعليم كان يومئذ رسالة . ولكنه اليوم أصبح وظيفة .

وحين جاءت العطلة الصيفية ، نصحنى أستاذى محمد الحافظ .. أن أدرس مقرر السنة الخامسة في الحرم خلال العطلة الصيفية ، ولعله دلنى على الأستاذ عبد الوهاب بخارى وكان يعمل في التعليم .. ليساعدنى على فهم بعض الدروس خاصة الحساب والقواعد ، والمواد التى لاتدرك بالحفظ ، ولم يكن يومها العون في المذاكرة وافهام الدروس يخضع للاجر والمتاجرة كما هى الحال اليوم كم تدفع أولا ؟ وكان العلماء وبعض المدرسين أو كثير منهم يسعون وراء طلبتهم لاسيما النجباء لعونهم على فهم دروسهم .. في أوقات الفراغ تطوعا ، ورغبة في بث المعرفة ، لأن هؤلاء المعلمين حملة رسالة في التعليم .

وكنت سعيداً بهذا التوجيه ، لانى شغوف أن أتعلم ما أستطعت إلى ذلك سبيلا ، وليس عندى ما يشغلنى إلا أن

أتعلم . وأنا أسكن في بيت اشتراه خالى .. في السنبلية بباب المجيدى – وحيدا – .

واتصلت بالأستاذ عبد الوهاب بخارى لعونى على فهم الدروس .. التى احتاج ، وهو رجل كريم على خلق ، فوافق بترحاب ، وبدأت معه كل يوم في المسجد النبوى .. بعد صلاة العصر ، ستة أيام في الأسبوع ، واليوم السابع .. الجمعة راحة ، وأستطعت بفضل الله ، ثم وفاء واخلاص أخي عبد الوهاب .. وتشوقى إلى المعرفة هضم مقرر السنة الخامسة ابتدائية في ثلاثة أشهر ، وهى العطلة المدرسية يومئذ ، في جو قائظ ، ولكن الهمة أقوى من قسوة المناخ !

واستؤنفت الدراسة بعد الصيف ، وأعلنت لأستاذى الحافظ أنني فهمت دروس السنة الخامسة . ولعله تأكد من الأستاذ عبد الوهاب ، فأعلن له عن حماستى وشغفى لتلقى الدروس وسرعة الفهم ، وحب الشيء يفعل فعل السحر ، أو قل ما لا يتحقق بالجهد التلقائى ، لان في الحب دوافع وقوة وقدرة .. ربما تشبه المستحيل .

وألحقتنى المدرسة بالصف السادس الابتدائى ، وأنا ألقى من اساتذتى الدفع والتشجيع والعون بالنصح . شكر

الله فضلهم وأثابهم على اخلاصهم ووفائهم لرسالة التعليم والعون عليها وبثها في أوقات صعبة ، بالقياس إلى المرتب المتواضع .. لقاء جهد كبير ، لان التعليم وظيفة شاقة وأمانة .

كنت خلال دراستى في العام الدراسى للسنة السادسة الابتدائية .. أحب الحساب ، وكنت أول من يحل المسائل .. رغم خبرة وسبق زملائى في دراستهم الأولى ، والحساب له مدارك رياضية ، وكان أستاذنا في هذه المادة الشيخ عبد الرحمن عثمان رحمه الله ، والد الدكاترة والاساتذة ، اسامة ، وأنس ، ونعيمان ، وزاهر ، وحسان ، وخالد .

وكان يكتب لي على دفترى كلمته التشجيعية : أحسنت ، وكان ذلك يفرحنى ، وكان يكلفنى في بعض الأيام .. حل المسألة على السبورة ، ليفهم طرق الحل .. من لم يستطع حلها كما يجب .

إنى في هذه السطور ليس الهدف أن أتحدث عن حياتى ، وإنما الحديث عن خالى الشيخ مصطفى بدر الدين ، وهو بعون الله الذى أعانني لألتحق بالمدرسة ، لانى أحسست بنقصى وحاجتى إلى المعرفة ، فاقتضى

الحديث بعض البسط في شأني والهدف من ذلك .. ذكر فضل خالى عليَّ بعد فضل الله ، لانه سبحانه صاحب الفضل على الناس كافة .

من المفارقات ، وهذا شيء طبعى لدراستى العجلى السريعة ، ألاّ يكون رصيدى ونصيبى من التعبير كافيا ، لان فترة دراستى المنظمة قصيرة جدا ، هى سنة دراسية .. في العام السادس الابتدائى ، وأربعة أشهر في السنة الرابعة ، ولم تكن دراستى في الحرم تعنى بشيء من التعبير ، لان الاهتمام .. كان منصبا على فهم دروس الحساب والنحو وحفظ الدروس الأخرى ، لكى يتاح لي أن ألتحق بالسنة السادسة ، فأوفر سنة ، وأترك المرحلة الابتدائية ، دفعا لاحراج المدرسة .. التى أفضلت بقبولى .. ولقيت فيها التشجيع من أساتذتى وخاصة شيخى محمد الحافظ ، وكان وثيق الصلة بإدارة المدرسة ، وكانت تعتمد عليه كثيرا ، لعلمه ولحيويته وعمله المتواصل فيها واخلاصه الذى لاحدود له إلى حد التضحية .

إذن كان نصيبى من التعبير ضيقا محدودا ، لايؤهلنى إلى شيء . وأذكر أننا حين كنا في درس – الإنشاء –

التعبير ، كنت أكتب في الموضوع الذى يعطى لنا في السنة السادسة سطورا ، لاتتجاوز الستة ، بينما كان زملائى يكتبون صفحة كاملة ، وبعضهم يكتب أكثر من صفحة .. بخط دقيق ، مثل الأخ أحمد محمد نمنكانى.

والمفاجأة .. وأنا أعتبرها اليوم ممرعة ، أما يومها فقد كانت غير ذلك إذ إنني " أُكملت " في درس الإنشاء في امتحان آخر السنة .

والامتحان في مدرسة تابعة للمعارف ، حتى يحصل الطالب الناجح على شهادة الدولة الرسمية ، بجانب شهادة المدرسة المماثلة .

واستاء أستاذى الحافظ .. حتى قال : إن التعبير يكتسب بالمرانة والممارسة ، وليس درسا أساسيا يكمل فيه الطالب ولاينجح . وأقول اليوم ، بعد مرور خمسين سنة : رب ضارة نافعة ، والحمد لله ، فقد خدمنى من لم ينجحنى في التعبير يومئذ ، وأدعو له بالرحمة ، لأنه كان مخلصا في رسالته مع ربه وأمانته ، ذلك أنه سلك مبدأ : الدين النصيحة .

كان ذلك درسا .. في رد الفعل يومئذ ، دفعنى إلى

القـراءة وإيثـار الكتـاب علـى غذائـي الضـروري ، بلـه الكماليات ، ولم يكن في أيامي الاولى ما يسمى اليـوم بـ : الكماليات .

وقضيت أيام العطلة "منكّـدا" ، لأنـي لـم أنجـح ، ولـم أدرك يومها قيمة النجح الحقيقي ، وإلا لحمـدت النتيجـة ، كما عنـد الصبـاح .. يحمـد القـوم السـرى ، وفـق مدلـول المثل العربي .

وجاء وقت امتحان الـدور الثاني ، وذهبـت إلـى درس "الإنشاء"،وكتبت ما فتح الله به عليّ فـي الموضـوع الـذي اخترت .. ولا أذكره اليوم ، ولكنـي أذكـر أنني قلـت في أخره ، بغيـة أن أنـال رضـا المصحـح وعطفـه فينجحنـي ، قلت : لو كان في الوقت متسع لتوسعت فـي الشـرح في هذا الموضوع ، والحقيقـة أن قدرتي انتهـت عنـد حـد مـا سطرت . ولعـل صحـة لغتـي .. أعنـي النحـو ، ومـا يسـمى اليوم القواعد ، قد شفعت في انجـاحي ، فقـد كنـت أحـب النحـو والحسـاب ، بدليـل أنني نجحـت فـي الامتحـان الأول .. في كل الدروس ما عدا – التعبير – لضيق أفقي . وقد شكرت الأستاذ المصحـح .. الـذي أكملني فـي هـذا الدرس[٢٠] .

ومن أساتذتي في مدرسة العلوم الشرعية ، فضيلة الشيخ صالح الزغيبي رحمه الله .. إمام وخطيب المسجد النبوي ، وهو رجل تقوى وصلاح ، هادىء ، طيب النفس ، محبوب من الناس وطلابه في المدرسة ، ثم ولي الدين ، وراشد . وفي الحرم الشيخ عبدالرحمن الافريقي مدير دار الحديث ، والشيخ عمر بري رحمهما الله . ومن زملائي في مرحلة الدراسة القصيرة : السيِّد محمد مصطفى سبيه ، وأزهري صادق ، وعلي بافقيه ، وعبدالمجيد خجا ، وغالب دبُّور ، ومحمد حسن فلاّته ، وأخرون . ومراقبو المدرسة السيد عمران الحسيني ، وسليمان سمان ، وفي الادارة السيد حسين كاتب ... خال السيدين محمد وجعفر مصطفى سبيه .



الفصل الرابع

- ١ -

حين نجحت في الدور الاخير - الإكمالي - ، كان خالي قد تقاعد من وظيفته ، حيث بلغ السن القانونية للتقاعد . وأنا مازال عندى رغبة في التعليم ، وقلت في نفسي .. إن خالي مثقل بأسرته ، والتقاعد الزهيد الذى خصص له واعتذر عن قبوله ، وهو "١١٠٠" قرش ، أي مائة ريال ، لايليق أن أكون عبئا عليه ، حين استمر في الدراسة خمس سنوات أخرى .. حتى أنال الشهادة الثانوية . لذلك رجوته .. أن يسعى لي لارسل إلى جامع الأزهر بمصر في بعثة رسمية لأدرس علوم الدين هناك . وكتب خالي رحمه الله إلى مدير المعارف العام رغبتي ، وجاء رد الشيخ محمد بن مانع ، وهو مدير المعارف العام يومئذ ، أن ثمة معهدا علميا في مكة المكرمة ، وإذا كانت لي رغبة في الدراسة ، فعليَّ الالتحاق به ، ولكنى آثرت أن أعمل ، وأن أحاول القراءة الحرة .. لأشبع ما في نفسي لادراك المعارف التى تتاح لي ، حين يصبح لي مرتب ودخل شهرى . وأعلنت ذلك لخالي ، حتى أنني قلت له ، ليتك بقيت بعض الوقت في مركزك في الجمارك حتى

تضعني في وظيفة بجدة أعيش من دخلها ، فرد علي بنبرته الجادة الواضحة قائلا: "كنت أحرث للدنيا واليوم أريد أن أحرث للآخرة" . فقدرت عزمه وتوجهه .

وقد تعرّفت في المدينة .. في تلك الفترة المبكرة على العم زرُّوق ، وكان يصنع الفول المدمس في باب المجيدي ، وهو من طرابلس الغرب ، رجل فاضل سمح ومرح ولطيف المعشر . ولعلي تعرّفت عن طريقه على صديقي وأخي .. حمزة علي أبو غرارة ، وكان له دكّان في باب المجيدي ، قرب باب بصرى ، وامتدت الاخوة إلى اليوم ، وهو والد الشباب الناجح ، الدكتور علي في كلية التربية بالمدينة وأسامة في ديوان المراقبة العامة واخوتهم . كما تعرّفت على الشيخ العالِم الجليل أمين إزمرلي .. من طرابلس الغرب بواسطة العم زرُّوق ، وهو رجل فقيه ، واسع المعارف والعلم ، يعمل في المدارس .. ولعل له دروساً في الحرم . وتعرّفت على رجب أبو هلال ، وأصله ليبي ، كان يعمل مراقباً في دار الأيتام . وعرفت آخرين .. بواسطة مَنْ عرفت من الصديق .

وكتب خالي رحمه الله إلى الوجيه الشيخ إبراهيم شاكر بجدة ، كما كتب إلى انور أبى الجدايل رئيس

التحرير في أمانة جمارك الحجاز ، حيث أن نظارة الرسوم قد غُيّرت ، وأصبح هناك أمانات جمارك فيالمنطقة الشرقية والمنطقة الشمالية والجنوبية إلخ . وأنور عمل مع خالي قبل أن يتقاعد .

توجهت إلى مكة في غرة شهر صفر عام ١٣٦٦ إلى منزل الشيخ صالح عيسى بوقرى ، زوج ابنة خالي ، ومكثت عنده شهرا كاملا ، ثم توجهت إلى جدة ، وأنا لا أعرف أحدا فيها ، وليس معي من حطام الدنيا شيء ، وزرت الشيخ ابرهيم شاكر في مكتبه ، بشارع فيصل ، حيث عمارة الملكة اليوم ، وكلم أنور أبو الجدايل وذهبت إلى الاخير .

وكتب باسمي طلب توظيف ، وأرسل إلى وزارة المالية ، وبقيت أعمل ستة أشهر بدون مرتب ، لانى لم أنل بعد الجنسية السعودية التى بها أقبل موظفا في الدولة .

وضقت بفراغي ، وأنا أكره أن أكون عاطلا ، ذلك أن الحياة حركة . ولم أركن إلى الخمول انتظارا لريالات تصلني من خالي أو غيره ، صدقة وعونا ، وأنا شاب .. في تقديري أنني يجب أن أعمل ، وأني قادر بإذن الله على العمل ، لذلك توجهت إلى "جراج الحكومة" في الرويس ،

علّي أحصل على عمل في هذا الجراج ، أمد المفاتيح والادوات المتصلة بالميكانيكا .. للمهندس الذى يصلح السيارات وماتوراتها ، وهو عمل متدن في عيون كثير من الناس ، أما أنا فلم استنكفه ، ولا أتأفف منه ، مادام عملا شريفا .. يتحقق من ورائه عائد مادى .. فيه كفاف لشاب مثلى ، لطعامه وشرابه وسكناه . وكلها أمور متواضعة جدا ، والسير يومئذ في هذه المسافات ، خلال عام ١٣٦٦هـ وما بعده .. على الاقدام ، لاسيارات ، ولا توصيل بوساطة صديق ، ولاسيارات أجرة ، ولا حتى دراجة تحملني وأمثالي . وحتى جراج الحكومة .. لم يتح لي فيه عمل – صبى – ميكانيكى في ذلك الوقت ، وهذه الأبواب المغلقة في وجهى .. لم تكن لتثنى عزيمتى ، لأنى أدرك أنها امتحان ، وقد يكون عسيرا ، والصبر هو الذى يواجه الشدة والعسر ، وأدرك أن مع العسر يسرا ، وعدت من الجراج يحدونى الصمت العريض .. المطبق واختزن في داخل نفسى آلامى وبثى ، وأشكو ما أجد إلى الله ، ولكن في صمت كذلك !

وفكرت في الالتحاق بالجيش ، فهو فرصة ، فأتخرج بعد دراسة لمدة محدودة إلى ملازم ثان ، وارتقى في سلك

الجيش ، وأنا شديد الاسف على الشبان الذين يأنفون من خدمة العلم ، ويهربون من هذا الشرف ، ذلك أنهم يريدون الدعة والشيء السهل ، والخمول والكسل ، وليسوا في تقديرى طامحين . سعيت إلى الطائف ، وكلى آمال .. أن أجد فرصة سانحة في الالتحاق بالجيش ، ولم يكن في حلمى من قبل أن أصبح ضابطا ، غير أن الحياة تدفع إلى السعى وراء الرزق في أي مجال يتاح لي ، وقابلت رئيس القسم الذى فيه يقبل المتقدمون ، وأنا بزى المتواضع ، ليس فيه مظهر يدل على الوجاهة .. ليكون موضع اهتمام واحتفاء . ولكن للحق ، أستطعت أن أصل ، وأن أعلن رغبتى لرئيس قسم القبول ، وكان السؤال الاساسى والاول ، هل أحمل الجنسية السعودية؟ وكان الرد الذى لا ثانى له – لا – فاعتذر إلىّ .. بما يليق أن يقال لي ولغيرى . فعدت أدراجى كسيفا ، وأوشك أن أقول حزينا !

وفى كل هذا الانتظار والخطوات في سعيي .. نحو الوظيفة والعمل ، لم أرد اخبار خالى بشىء ، لانى كرهت أن أثقل عليه ، وأن أحرجه ، وهو رجل قد ترك عمله وتوجه إلى ربه بالعبادة .. في الجوار الكريم ، في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو شكوت إليه حالى

لسعي ، وربما استعان بالكبار .. الذين يحققون هذه الخدمة اليسيرة ، والبلاد يومئذ قليلة المهاجرين وطالبى الجنسية ، ولم تكن بالتوسع الذى شاهدنا رقعته .. بعد ذلك ، ولا وصلت إلى هذا التطور الكبير .. ولكنى لم أرد !

وتشاورت مع أخي صالح أدهم ، وصحبنى معه مسرعا إلى الصديق الكريم .. الأخ حسن برغوته رحمه الله ، وكان موظفا في قائمقامية جدة ، وشرح له صالح حالى ، وهو الذى عرفنى به ، لانه يعرفه قبلى ، واقترح الموظف الواعى .. ذى المرانة والخبرة والمروءة اقترح رفع برقية التماس إلى جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله ، وكان ذلك خلال شهر شعبان ، وكتبها حسن ، ليس ذلك فقط ولكنه دفع أجرتها ، لانى لا أملك أجرة البرقية ، وأسرعت إلى إدارة البرقيات مع صالح لإيداع البرقية ، ومشاعرى تلهج إلى بارئها أن ييسر أمرى ، وكان الرد كريما وسريعا ، من غير وساطة ورجاءات ، وكان الرجل العظيم نعم المجيب .. لإنسان ضعيف مثلى ، فقد تلقيت خلال شهر رمضان الرد .. بان أراجع وزارة الخارجية ، فقد صدر إليها الأمر باللازم . وكم فرحت وكم سعدت بهذا الانفراج والفضل لصاحب الفضل بعد الله ، فأسرعت إلى

الخارجية وكان مقرها في حارة البحر ، وكان فيها إخوة كرام ، لم أعرفهم يومئذ ، لانى طارىء على البلد وسرعان ما أحيل الأمر الكريم إلى السيد " أحمد صائم الدهر " في حارة اليمن ، وهو المسؤول يومئذ عن بطاقات الجنسية ، واقسمت اليمين ، وأخذت بطاقة الجنسية ، وكنت فرحا ، حتى أني شعرت أن الأرض بما رحبت لاتسعنى ، وحمدت الله إليه على فضله ، وشكرت مؤسس الكيان الكبير ، وهو رمز كبير وعظيم في نفسه وتصرفاته وحكمه ، لانه رجل عبقرى فذ ، وحين تحققت هذه الوسيلة ، أصبحت رسميا موظفا في الجمارك بجدة .

انقطعت إذن عن الدراسة .. بعد المرحلة الابتدائية ، التى درستها في مدرسة العلوم الشرعية .. في سنة وأربعة أشهر ، وهى الدراسة المنتظمة ، بجانب دراسة مقرر السنة الخامسة خلال عطلة الصيف على الأستاذ عبد الوهاب بخارى كما أشرت في الحرم ، ولم أستطع مواصلة دراستي ، لانى كرهت إثقال كاهل خالى بمؤونتى وهو قد تقاعد ، توجهت نحو الجمارك في جدة للعمل ، وأنا أتحرق شوقا للتحصيل العلمى والفكرى ، غير أن الحال التى كنت فيها لا تعين على الاستمرار في الدراسة

المنتظمة .. كما كنت أرغب .

ومن توفيق الله وعونه .. تعرفي على الأستاذ الاديب الشاعر ذى الخلق العالي .. محمود عارف في جدة ، حين استقررت فيها ، وذلك خلال عام ١٣٦٨هـ ، فأعلنت إليه حاجتى إلى الزاد المعرفى .. ورجوته النصح ، والرجل كريم وسمح وذو مروءة ، فأشار عليّ أن اشتري - نظرات - المنفلوطي ، وأبدأ في قراءتها عليه .. بعد العصر من كل يوم ، وكنت لصيقا في ذلك الوقت لدى آل راجح ، في بيتهم ، في حارة المظلوم ، وكان محمد وعبد العزيز راجح الشقيقان زميلى .. في الجمارك ، وكنت وعبد العزيز معا في قسم التحرير ، في أمانة جمارك الحجاز . والأستاذ عارف .. كان يسكن غير بعيد من بيت آل راجح.

وبدأت قراءة فصول نظرات المنفلوطى على الأستاذ عارف ، وكان يقوّم لي نطق الكلمات التى كنت أخطىء فيها .. وما أكثرها ، لان تحصيلى اللغوى كان محدودا جدا . وكنت الخص ما أقرأ في كراس في اليوم التالى . ولعل هذا العون امتد شهورا : قد لاتزيد على الثلاثة ، ذلك أنني كنت شغوفا بالقراءة ، ومن توفيق الله .. أنني كنت لا

أقع في خطأ وقعت فيه من قبل وصحح لـي ، وهـذا أعـانني على سرعة الجمز في قراءاتـى ومطالعـاتى ، وقـد نصحنـى استاذى العارف أن أقرأ مجلة " الرسالة " ، لصاحبها أحمـد حسن الزيات ، فكنت أحرص على اقتنائها في يوم وصولهـا من مصـر .. علـى بواخـر الشـركة الخديويـة : " الطـائف وتالودى" ، ووكيل توزيع الصحف المصريـة يومئـذ محمـد حسين أصفهانى ، وكنت أبكر يوم وصول هواى "الرسالة " إلـى مكتبـة الاصفهـانى التـى تشـبه الكشـك .. فـي السـوق الكبـير .. فـي ركـن – مسـجد عكـاش – ، واقـف انتظـر وصول الاصفهانى بسيارته الجيب – الولز– يحمل أكيـاس الصحف والمجلات .. لاختطف – الرسالة – وأسهر ليلتى فرحا بالغنيمة . وكنت أفهم بعض ما أقرأ .. ولا أفهم الكثير مما تحفل به هذه المجلة .. التى كانت مدرسة فـي أيامهـا ، والتى ظلت تصدر نحو عشرين سنة ، ثم طوتها الأيام .. في عهد الثورة المصرية ، والـذى يقـرأ مـا كتبـه صـاحب هـذه المجلـة عنـد توقفهـا يحـزن ، لانـه كـان يطمـع أن تسـتمر وتزدهر في عصر التغيير ، ولكنه منى بغير مـا كـان يتوقـع ، وما أكثر الذيـن تبهرهـم المظـاهر الخلابـة ، وهـى كـالبرق الخلب ، الذى لايأتى معه أو بعده مطر . وفى العهـد الـذى

وصفه صاحب مجلة الرسالة بالفساد والضرائب ، كانت الرسالة تصدر ، وكانت تتغلب على مصاعبها ، وكانت مجلة الثقافة ، التى كانت تصدر عن لجنة النشر والتأليف والترجمة ، ويرأس تحريرها الكاتب الكبير الأستاذ أحمد أمين ، هذه المجلة الراقية وهى كالرسالة ، توقفت في عهد الثورة ، كما صمت وتراجع الكتاب الكبار في مصر ، وكانوا صوّالين في ساحات المعرفة .. مع كل الظروف ، التى كانت أحيانا تحول بينهم وبين نشر أفكارهم .

وحصلت من الأستاذ عارف على نسخ قديمة من مجلة الرسالة كان يحتفظ بها ، فغنمت هذه الصفقة وفرحت بها .. واعتبرتها هدية ومكسبا .

وعطشى إلى المعرفة ، وشعورى بما أحس من نقص .. كان يدفعنى .. إلى التقتير على نفسى في مأكلى وملبسى ، لاقتنى كتابا ، فقد كنت أعتبر اقتناء كتاب يومئذ غنيمة . وأذكر أنى كنت أخرج من الجمرك في أخر الدوام .. وفي جيبى خمسة ريالات ، متوجها شطر سوق الندى لانال غدائى في أحد المطاعم - العدنية - . وحين أرمق المكتبة .. التى كان يقتعد فيها رجل يمنى مسن ، يلف ساقيه وظهره بحبوته .. في مبنى من مبانى الاوقاف .. في

تلك السوق ، فهذا الرجل يقضى القيلولة في مكتبته .. التى تحوى كتبا قديمة ، قليل راغبوهـا .. أجـد الشـوق يدفعنـى إليه .. لاشترى كتابا بثلاثة ريالات ، مضحيا بغدائـى ، وأنـا فرح وسعيد .. بما حصلت عليه من زاد فكرى ، وانصـرف عـن المطعـم إلـى بـائع الجبـن " والشـريكة " المطـرزة بالسمسم ، فأشترى وجبتى ، وأمضى نحو سكنى سعيدا بما نلت من غنم . وبعد تناول وجبتى التى ارتضيتها مـن الخـبز والجبـن ، أنـام سـاعة ، ثـم اسـتيقظ .. لاسـتأنف تقليـب صفحات الكتاب الذى اشتريت ، وآخذ في قراءتهـا ، فـإذا شعرت بتعب الجلسـة علـى طراحتـى القطنيـة علـى خسـفة وحنبل .. على الأرض ، وتكون الشمس قد غربت ، أضـع – الفانوس – عند رأسى على صفيحة قاز فارغـة ، واتمـدد على ظهرى .. وآخذ في القراءة .. حتى يداهمنى النعـاس ، وفى بعـض الأوقـات ، اغفـو والكتـاب علـى صـدرى ، ثـم استيقظ ، لأضع الكتاب علـى الأرض وأطفـىء الفـانوس .. وأمضى في نومى.

وكنـت خـلال هـذه المرحلـة استعير كتابـا من أحـد أصدقـائى ، لانـى لااسـتطيع اقتنـاء كـل كتـاب أراه فـي المكتبات ، فالمرتب لايحتمل ميزانية الكتب التى لاحـدود

لهـا . وكـان الصديـق كرمـاء ، يعـيروننى الكتـاب الـذى يجذبنى عنوانه ، على أن أعيده في وقت قياسى كما يقال ، خلال يومين ، وكان لابد من السهر فـي ناموسـية الشـاش ، هروبا من الناموس ، واحتمل دخان الفانوس بجانبى .. لاقرأ شطرا من الكتاب ليلا ، وأكملـه خـلال النهـار ، ثـم أعيـده إلى صاحبه مصحوبا بالشكر والعرفان بالجميل .

وكنت أبتعد عن السهر مع الصديق .. في تلك الفـترة التكوينية ، إن صح هذا التعبير ، لأنى فـي حاجـة إلـى الـزاد المعرفى .. بقدر ما يتاح لي ، فـي حـدود امكانـاتى العقليـة والمادية . وأتساءل أين الطموح في شـبان اليـوم . ليقـرؤوا ويتثقفوا والكتب تملأ المكتبات والحال المادية ميسـورة ، ولكن الهمم نامت وخمـدت !

وأحسسـت أننـي فـي حاجـة إلـى الـتزود مـن القواعـد والصرف وتعرفت على المربى الفـاضل الأسـتاذ " حمـزة السعداوى " وكان مدرسـا .. فـي مـدارس الفـلاح بجـدة ، ويسكن في حارة المظلـوم حيـث أسـكن ، ورجوتـه عونـى بدروس في النحو والصـرف ، وهـو رجـل مـبرز فـي هـاتين المـادتين ، فاسـتجاب لرغبتـي ، وبـدأت معـه الـدرس بـلا مقابل ، كما كانت الحال مـع الأسـتاذ عـارف . ولـم تطـل

مصاحبة الأستاذ السعداوى ، فهو رجل – جاد – شديد ، وأنا قصرت مرة أو اثنتين في انجاز الواجب الذى أعطى لي ، فتخلى عنى ، وقد سجلت هذه القراءة فيما كتبت من تلك الفصول التى عنونتها بـ :"هؤلاء عرفت" ، وربما يضمها كتاب ، وقد نشرت منجمة في زاوية أسبوعية .. في صحيفة "الجزيرة" ، التى تصدر في الرياض !

ولم تتوقف دراستى وتحصيلى ، فقد قرأت على الشيخ أبى تراب .. بعض المتون في المنطق والنحو ، كألفية ابن مالك وشرح المغنى وإيساغوجي ، وأنا يومئذ موظف في الجمارك وأصدرت مجلة الرائد . ذلك أن الرغبة عندى إلى المعرفة ليس لها حدود ، حتى إنى في بعض الأوقات .. قبل أن أتزوج شرعت أدرس منهج المرحلة الثانوية ليلا .. في المدرسة السعودية بجدة ، من خلال حصص ودروس خصوصية بمقابل مادى ، وكان لي زميل يمنى ، كان مدرسا في إحدى مدارس جدة .. اسمه "مُسَاوى الحكمى" ، غير انى لم أكمل تلك الدراسة ، فقد كنت مشغولا بالقراءة الحرة ، ولبعد العهد بينى وبين الدراسة المنتظمة ، أصبحت صعبة ، لاسيما التفكير في الدراسة الجامعية ، ولم يكن في تلك الأيام في البلاد جامعات ،

وذلك في العقد الثامن .. من القرن الرابع عشر ، وهكذا دوافع الطموح ، ولسان حالي يردد : "مالا يدرك كله ، لا يترك جله" ، وأن الإنسان ليس له إلا ما سعى . وأذكر خلال تلك الفترة ، أنني مرضت بالحمى في رمضان ، وأنا ساكن في – مربعة – ، في الكندرة وحدى ، وبقيت أسبوعين ، منها أسبوعا .. لا أذوق سوى الماء ، وأخرجه ثانية ، وحين شعرت ببعض العافية ، سعيت ليلا .. نحو وسط المدينة ، لكى أصيب بعض الطعام ، لانى جائع وجلست مرتين قبل أن أصل إلى سوق الندى من الهزال والضعف ، وأنا صابر .. لايدرى عنى أحد ، وربما "أموت .. وحيدا" ، فلا يشعر بى أحد ، ولكنه الصبر والصمت ، وهما من أقوى الأسلحة ، بعد الايمان بقيوم السموات والأرض ، فله حمد لايحده شيء ، إنه حمد الشاكرين ، وكم يمر على الحاج ويحج ، كما يقول المثل .

وكان الشيخ صالح بوقرى رحمه الله .. يبعث إلىّ بثلاثين ريالا شهريا ، لابد أن ذلك بايعاز من خالى .. وأحيانا يأتينى المبلغ من خالي ، قبل أن أتوظف . وتعرفت على أحمد أبو عزة من المدينة ، أخو عبد الرحمن أبو عزة،

سكنت معه بعض الوقت ، ثم سكنت في مقعد بمفردى .

وكنت أطمع أن يزوجنى خالى إحدى بناته ، ولكن الامهات لا يزوجن بناتهن للمفلس ، وآنا ذاك الرجل !

ومرت الأيام وتوفى خالي رحمه الله في عام ١٣٧٣ - ١٩٥٣ في المدينة المنورة ، وكان رجلا مستقيما جادا ، حتى إنه حين كان ناظرا للجمارك ، وكان يسكن في النزلة ، كان يتفقد حراس الجمارك على البضائع في الساحة الجمركية ، حيث مقر الجمارك الذى أشرت إليه آنفا ، وكانت الحراسة .. أن كل جانب من ساحات الجمرك فيه حارسان ، حتى إذا ذهب أحدهما لقضاء حاجته أو ليأكل بقى زميله يؤدى واجبه ، فكان الخال .. إذا جاء يتفقد الحراسة ليلا ووجد واحدا.. يبادره بالسؤال: أين زميلك ؟ فيقول له : ذهب يتعشى أو يقضى حاجته .

كانت الحالة المالية في البلاد ضيقة ، والرواتب لاتصرف إلا بعد ثلاثة أشهر ، حيث يصرف مرتب واحد ، لكن خالي المؤتمن على أموال الناس وما يرد للحكومة يخشى أن تغلب الحاجة النفوس ، فتمتد الأيدى إلى ما تحتها وعندها .. يقع المحظور ، لذلك ذهب إلى وزير المالية يومئذ الشيخ عبد الله السليمان ، يدفعه حرصه

وصراحة مغربيته ، ليقول لـه : إليـك مفـاتيح مكتبـى .. فأنـا لا أريد العمل في إدارة فيهـا أموال وموظفوهـا لا يقبضـون مرتبا إلا مرة كل ثلاثة أشهر . ولكـن الرجـل الحـازم يقـدر الرجل الحازم . فأمر وزير المالية أن تصرف رواتب موظفى الجمارك شهريا دون غيرها من الدوائر . من نفس صنـدوق الجمرك . ولم تكن الرواتب تصرف من المالية .. كما هى الحال اليوم ، بل إن خالى من حرصه رحمـه اللـه استصدر أمراً من الوزير أن يعطى للموظف الجمركى .. كـل عشـرة أيام ثلث المرتـب .. ليعـف ، حتـى إذا مـد يـده للاختـلاس عوقب وحوسب ، لأنه لا عذر له .

كان خالى عفـا وأمينـا ومستقيما ، عـاش فقـيرا ومـات فقـيرا ، وكـان يمكـن أن يكـون مـن أغنـى النـاس ، ويـترك وراءه ثـروة طائلـة ، لـو أن نفسـه كـانت متدنيـة وهلوعـة وجشعة ، ولكنه أبـى أن يخـون أمانتـه أو يفـرط فيهـا ، لان نفسه كبيرة ، وهى من التىعناها المتنبي بقوله :

واذا كانت النفـوس كـبارا

تعـبت فـي مـرادها الاجسام

كـان لـه بيـت متواضـع حيـث كـان البنـك الأهلـى

التجارى .. في شارع الملك عبد العزيز .. أمام المحمل الان ، فباعه إلى ابن محفوظ بخمسة آلاف جنيه ذهب .. وبنى به بيتا متواضعا في السحيمى بالمدينة المنورة ، ولم يكن له شيء أخر ، فهو رجل يعد من الفقراء ، وكان صريحا وشجاعا وحازما ، وإداريا ناجحا ، وكنت أسمع منه بعض التعبيرات ، ولم أكن أعيش معه ، فهو قد جاء إلى المدينة ، وأنا قد غادرتها إلى جدة ، وكان متفرغا للعبادة ، من بيته إلى المسجد النبوى ، يكثر من قراءة القرآن ، ويحارب التدخين ، وكان يسمى المدخن – حشاشا – وترجم كتيّباً عن التركية عن مضار التدخين ، وكان يضيق بتلك الخروق التى تفرش في الصف الاول من المسجد النبوى .. يحجز بها أصحابها مقاعد لهم ، وكان يعلم ما يؤكده التوجيه النبوى بأن المكان للذى يصل المسجد مبكرا قبل غيره ، وليس محجوزا لغائب .

كان يردد قول الشاعر .. وقد أنستني الأيام بعضه ، ولم تترك لي إلا بعضه ؛ ولعله ليس ببعيد عن :

من يستقم يحرم مناه

ومن يزغ يمنى بفيض من فنون

انظر إلى الالف استقام فحرم العـــ

جـمي وفاز اليوم بالإعجـام نـون

ومع ذلك .. فإني لا أطمئـن إلـى الكلمـة الأخـيرة فـي البيت الأول ، كما أنني لا أطمئن إلى عــدد التفعيـلات فـي البيت الثاني.

وكان الخال في حياته كلهـا كـالالف ، عفـة واسـتقامة وخلقـا وسـماحة وصراحـة وتعـاملا مـع الآخرين .. وعونـا لهم . وسمعت عن عونه .. حين كـان فـي الجمـارك ، من محمد حسـين أصفهـانى وصـالح شبكشـى رحمهـمـا اللـه . وهو كذلك كما عرفه الموظفون الذين عملـوا معه ، وفـى مقدمتهم عبد الله رجب وكان مثمنا ، وهو والد عبد العزيـز وعبد الله رجب ، ومحمد على يحيى وغيرهما .

وكان خالى صهر الشيخ محمد سـرور الصبـان رحمـه الله ، فالأخ عبد الرحمن ابن الشيخ محمـد سـرور متزوج إحدى بناته ، ولكن خالى لم يستغل هذا الرحم بـأى شـكل وبـأى صـورة مـن الصـور ، فالعصـاميون تكفيهـم القناعـة ، وكان الشـيخ مصطفـى بـدر الديـن أحـد العصـاميين ، ومـن رجالات الدولة ، البعيد عن المداجاة والطمـع ، ولـم يكـن

من ذوى الايدى السفلى ، وإنما كان ذا اباء وشمم وعلو نفس ، ويقول بعض من عمل معه .. إنه كان يأتي إلى وظيفته مبكرا جدا ، أي بعد طلوع الشمس مباشرة ، لانه كان من جيل لاينام بعد صلاة الصبح ، وهذا دليل على حبه لعمله واخلاصه له ، لانه يدرك في قرارة نفسه أنه أمانة ، وأنه مؤتمن عليها ، وأنه أهل لها ، لذلك أداها على وجهها ، وكان ذا سمعة أغلى من المجوهرات ، وكان في موازين الرجال كبيرا ، بثقته في خالقه ، ثم بنفسه وارادته ، وكان يغار على محارم الله ، ويكره الظلم والجور ، سمحا .. قليل الكلام ، قليل الغضب ، راضيا بما قسم الله ، لذلك فهو غني بهذه القناعة ، مؤد عبادته لربه على أحسن وجه ، يحب الناس ، ويسعى في الخير ويعمل للمعروف ، لين الجانب ، كريم الجوار ، يحنو على أسرته كأبٍ وراعٍ ومربٍ . وقد علم أولاده في مصر وبيروت على حسابه الخاص .. التعليم الثانوى والجامعى .إنها خصال كريمة اتصف بها وتحلى ، وفى مقدمتها الإباء والعفاف ، والحفاظ على كرامته ، والترفع عن الصغائر ، محبا لمكارم الأخلاق ، تاليا لكتاب الله آناء الليل وأطراف النهار . ومما عرف عنه ، أنه حين كان في وظيفته

بالجمارك بجدة ، ويأتي إلى وظيفته كما أشرت مبكرا ، كان يجلس في الشرفة التابعة لمكتبه ليقرأ القرآن حتى يحضر الموظفون ويبدأ العمل ، وكان صوّاما ، لاسيما بعد أن ترك الوظيفة ، وكان في رمضان يذهب إلى ابنته في دمشق زوج محمد العالم ، ليصوم هناك في جو الشام الجميل . وكانت بناته بارات به ، لانه رباهن على مكارم الأخلاق والوفاء والحدب والحنان والحب الاسرى ، وقوة الشخصية والاباء والترفع عن الدنايا .

وفى موازين الرجال .. فإن هذه الخصال الحميدة والكريمة .. كان يتصف بها الخال ، وأنا أكتب جادا ، فلا أجعل للعاطفة على نفسى سبيلا ، وأدرك أن كلام الإنسان وأفعاله محسوبان عليه ، ولعلى أجهل الكثير عن حياة الخال الفاضل .. وما يتصف به من مكارم الأخلاق ، وحياته كلها كدح ونصب وترحال وعناء ، وحين أتيح له أن يستقر بعض الوقت في شيخوخته ، كان عنده العدد الوفير من البنات ، وكانت نفسه الابية .. تأبى عليه إلا أن يكون ذا مروءة وصلة رحم ، وأن يترفع في شمم ، فلايتدنى لما يجرح كرامته ، وهو في مركز كان يمكن أن يغنى منه بالحرام ، ولكنه لم يكن الرجل الذى ينزل إلى

هذا الدرك الاسفل ، لأنه عف النفس ، كما هو عف اللسان . وجهاده في الحياة كان سعيا وراء رزقه وأسرته ، وحرمان نفسه مما يلوثها .. مكتوب له في ميزانه عند ربه إن شاء الله . ونادر جدا أن نجد من يحكم نفسه أمام مغريات الحياة إلا من سلم الله .. ودفع عنه السوء ، ليبقى نقياً طاهراً . لان الحياة وما فيها إلى زوال وفناء ، ولايبقى إلا العمل الصالح .. الذى يرفعه الله سبحانه وتعالى إليه .

وأذكر أن قريبى الأستاذ محمد الكاديكى رحمه الله .. قال لى .. وكان وقتا ما يشغل منصب متصرف بنغازى ، إن السفير البريطانى في جدة .. حين تلقى رسالة من الخال الشيخ مصطفى بدر الدين ، وكانت (برقة) قبل استقلالها تحت حكم الإدارة العسكرية البريطانية ، ورسالة الخال طلب فيها ترحيلى ووالدتى إليه .. بعد هزيمة ألمانيا وإيطاليا .. واستقرار الحلفاء في ليبيا .

وكتب السفير البريطانى إلى وزارة المستعمرات البريطانية يقول فيها عن الخال .. إنه رجل نظيف وكيّس ورجل عمل جاد في مركزه بالجمارك .. إلا أن توجهه محورى ، ومع ذلك تقديرا لمكانة الخال ووزنه الادارى ، لا يرى السفير البريطانى مانعا من ترحيلى ووالدتى من برقة

إلى جدة ، وكتبت وزارة المستعمرات إلـى حـاكم برقـة - الإدارة البريطانية - باسـتجابة الطلـب . وهـذا نمـوذج مـن شهادة محايدة .. تعطى خالى بعض حقه ، وتنصفـه بمـا هـو له أهل من النزاهة ونظافة الذيل .

وليتنى كنت قريبا منه بعض الوقت لاعرف عنه الكثير والمزيد من قرب ، ولكـن سيقال إنهـا شـهادة مجروحـة ، لانها من ابن أخت لخاله .

غير أن الذى يرقب ربه فيما يقول ويعمـل لايبـالى بمـا يقال ، لان ساحة القول ملأى بـالحق وبالبـاطل ، ومـا أكـثر البـاطل فيهـا .. وأقـل الحـق ، ولايسـلم مـن كـلام النـاس أحد .. وكذلـك قيـل : ويـل للنـاس مـن النـاس ، ولاأقـول سوى حسبنا الله ونعم الوكيـل ، ورحـم اللـه ذلـك الرجـل الإنسان .. ذا المروءة والشهامة والصبر والحيـاء ، ورطـب ثراه .. كفاء إحسـانه وأعمالـه الخالصـة للـه ، وجـزاه خـير الجـزاء ، وهـو سـبحانه وحـده القـادر علـى ذلـك ، يوفـى الاجر .. ويضاعف الاحسان ، ويعطى بغـير حسـاب ، لانـه جواد كريم ، لايسأل عما يفعل ، إنه هو الرحمن الرحيـم ، فله الحمد ، لانه ولى النعم .. وولـى المتقيـن والصـابرين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكان الخال محل إكبار وتقدير من أصهاره ، آل الصبان وآل البوقرى وآل عويضة ومن كل من يعرفه . وكلهم يقولون له الشيخ مصطفى ، كما كان موضع تقدير الحكومة .. التى خدمها باخلاص وأمانة ، وكان موضع ثقتها .. لاسيما في الظروف الصعبة ، فاستحق التقدير والشكر .. لنزاهته ، وكل من عرفه يثنى عليه .. ويذكره بخير . ويعرف بالناظر ، لانه كان خلال وجوده على رأس عمله في نظارة الجمارك .

ورأيته مع رجالات آل البوقرى في منى وعندهم الكبار من الضيف ، وكانوا يقدمونه .. ليؤمهم في الصلاة ، تقديرا له واحتراما ، لان شخصيته تستحق ذلك .. لوزنها ، وحسن قراءته لكتاب الله ومسلكه السوى ، وهو حقيق بكل تقدير واحترام .. وفاء له ، بل وفاء لرجولته وسلوكه وخلقه الدمث . ومرة أخرى وددت وما تغنى الودادة .. لو أنى عشت قريبا منه لعرفت عنه المزيد ، وكتبت أكثر من هذه الصفحات القليلة ، وفاء له .. قبل حق القرابة وواجبها ، وذكراه باقية مع الأيام في نفوس من عرفوه وأجره على ربه ، كفاء صوالح أعماله . أرجو الله أن يرحمه .. إنه هو البر الرحيم .

وقد ترك رجالا يحملون اسمه ، وهم ناجحون ، رجل أعمال وطب وسفارة ، وترك بناته عند رجال .. اختاروه للمصاهرة ، ورضى بهم .. لانهم أكفاء ، فعاشت بناته مكرمات ومنعمات ، وسعيدات في حياتهن ، وأنجبن رجالا وسيدات بيوت ، أعنى زوجات ناجحات ، وتلك هى الحياة الدنيا ، حيث يذهب جيل ويأتى أخر .. ليعمر الكون إلى ماشاء الله وأراد .. وهى سنته في خلقه وكونه .

• • •

- ٣ -

كنت أزور المسجد النبوى صحبة الأخ حسين يحى في أواخر رمضان ، وكان ينزل عند بعض الصديق ، وكان عنده سيارة جيب – ولز – أمريكية ، وكانت الطريق بين جدة والمدينة يومئذ لم تزفت بعد ، فكانت السيارة حين تغطس – تغرز – باللغة أو اللهجة العامية في الرمال ، عند مستورة وأبيار بن حصانى ، يستعمل أبو وهيب – الدبل – أو الدفرنس الثاني .. لكى تخرج من الرمال بتلك القوة الاضافية ، وكنا نقضى أياما جميلة في بلد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ثم نعود بعد العيد إلى جدة ، وفى بعض الأوقات كنت أذهب وحدى بسيارة البريد ، حين يكتب أمين جمارك الحجاز الشيخ زكى عمر رسالة إلى مدير بريد جدة لاركابى إلى المدينة مرجعا ، وكنت أنزل عند بعض الصديق ، ولم نكن نعرف يومئذ النزول في الفنادق ، ولم تكن الفنادق .. تتجاوز فندقاً واحداً فقط ، وكان من الأصدقاء ومعارف بيت خالى الشيخ زيان عمر ، والد الدكتور محمد زيان عمر ، وهو رجل كريم محب وفى .

وفى تلك الأيام الخوالى .. كنت أذهب والأخ حسين

يحى مع الأخ عبد الله هاشم – صاحب شركة هوندا – اليوم .. إلى رابغ لصيد الغزال ، وكان يرافقنا أخ من بيت عبد البديع ، وكنا نظفر بصيد ثمين ، عبر مطاردة ، وكان الغزال كثيرا في تلك المنطقة وما حولها ، وكانت الحياة رخية سهلة .. لاتعقيد فيها ولاعسر . وكان التعارف والتواصل سجية وميسورا ، ولقد اختلفت الحال اليوم أيّ اختلاف ، فيها جفاء وتكلف وتباعد ، وأوشك أن أقول .. إلى حد التباغض .

وكنت أذهب مع أبى هلال إلى إحدى مقاهى كيلو خمسة ، في طريق مكة ليلا ، لنتعشى هناك الكباب الميرو ونحوه ونشرب الشاى والجراك وننام ، وفى الصباح ننزل إلى جدة .. بعد أن نجرى مسافة لاتقل عن كيلو متر ، وفى – المشْوَرة[٢٠] – نتناول الفول اللذيذ عند عبد القادر أمير ، أو فتة الحليب والقشطة عند عمر عبد الدائم في الخاسكية ، قرب بيت زينل ، ثم انطلق أنا إلى الجمرك ، في مقره في البلد ، أو حين تحول إلى ميناء جدة الجديد ، منذ شهر جمادى الأولى عام "١٣٧٠" هـ .

وسكنت فترة من الزمن .. في الصحيفة ، في جيرة آل شاهين ، وتوطدت علاقتى بعميد الأسرة الشيخ سالم

شاهين ، وهو رجل سمح ، عركته الأيام ، ومن الرجال المعروفين .. ويعرف الرجال الكبار ويتحدث عنهم بمعرفة وإدراك في بلاده وفى مصر مثل محمود باشا الذى كان رئيس وزراء مصر ، والشيخ سالم إذا حدّث ينصت إليه ، فهو يتقن القول ، ويتسلسل حديثه .. حتى يود المستمع إليه ألا يسكت ، وفى حديثه وضوح وحكم وطلاوة وتاريخ ، مما عرف وسمع وخالط .

وعرّفنى الشيخ محمد الحافظ أبو موسى بالأخ محمود شاهين ابن الشيخ سالم قبل أن أعرف الوالد ، وكان يعمل عند الخرايجة .. في مبنى ، في شارع الملك عبد العزيز اليوم ، حيث مقر البنك الأهلى التجارى سابقا ، وعرفت بعد ذلك أبناء الشيخ سالم : على .. ومحمد وحمدان وحسين ، ومحمد وأحمد كانا زميلين لي في الجمارك .

وعرفت في الجمارك .. في ذلك الوقت المبكر الشيخ عثمان ناظر ، رئيس المركز وهو لقب الوظيفة أي رئيس المراقبين و – المبصرين – معاينى السلع الواردة والقائمين بإجراءات رصدها واستخراج عينات منها ، ليذهب بها التاجر أو مخلصه إلى قسم التثمين لاتمام الإجراءات .

وتعرّفت على رؤساء اقسام الجمارك منذ كانت الإدارة

في البلد . قبل الانتقال إلى الميناء الجديد ، وهم الشيخ محمد لارى رئيس قسم التدقيق ، وهو رجل رزين ذو رأى صائب ورؤية إدارية دقيقة وحكيمة ، ويعتمد عليه وعلى رأيه أمين الجمارك .. أحمد ناظر ثم زكى عمر ، واحمد بك لارى وغيرهم ، وأحمد عبد الفتاح رئيس المحاسبة ، وهو رجل لطيف وبسيط ، يهوى الفن ويدندن على العود مع اصدقائه .. في لقاءات أخوية ، وعلى محمد عيد رئيس قسم المانفست ، والشيخ محمد نور تركى وأبنائه قاسم ويس وسليمان ويوسف ، ومحمد على ريرى رئيس "الاسكلة " أي الارصفة التى تفرغ فيها السلع الواردة . وعلي المحيسن رئيس الحرس ، ونائبه حسن أبو الجدايل ، ومحمد على جبرة ، كان مأمور جمرك الرويس ، ثم صار رئيس الأبواب في الميناء .

وكنت أذهب في بعض الليالى إلى ذلك الجمرك ، وكان حارسه الليلى عمر باحسين ، وهو صديق عزيز محب ، كنا نسهر ونتعشى جبنا وزيتونا وحلاوة طحينة ، ونشرب الشاى والجراك ، وننام على موسيقا موج البحر ، يصفق في أعمدة المكتب الخشبى المعلق أو القائم على قوائم خشبية ، وكانت من أجمل الليالى ، لاسيما ليالى

القمر . وكنا نلتقى والأخ علي راشد ، ووالـده كـان يعمـل في مكتب خالي مصطفى بدر الدين ، يوم كان ناظرا لعمـوم الرسوم .

وفى التثمين عمر يحى والسيد حسن الوسـيه .. رئيـس قسم التثمين . وكان السيد الوسيه من أبرز مـن تـرأس هـذا القسم ، ذا ذكاء وفطنة .. وألمعية ، رغم أنه رجل بسيط .

وفى التبصير – الشيخ أحمد زهـيرى ، والـد عبـد ربـه وفـؤاد وفـواز زهـيرى ، وعبـد الله وعبـد الرحمـن كيـال ومحمد على نبلاوى . وسالم خميس في الميزان ، ومحمد سالم خميـس في التبصـير ، وعبـد الله وعلى عـارف فـي الصندوق ، وعلى الرابغى وزين سعيد أبو الجدايـل عداديـن في الصندوق ، والصديق الوفى العزيز أبو يحـى .. حمـدان صدقة . ولابد من وقفة للحديث عنه وصداقته الممتدة إلى اليوم ، وقد ذكرته في كتابى وتلك الأيام ، ومكانه سـيكون إن شاء الله في : "هؤلاء عـرفت" . واسحق نواب ، عرفتـه عند .. آل البوقرى ، ثم أصبح مديرا لجمـرك جـدة ، وقـد عملت معه ، وهو إداري جيـد واع وحـازم . لانـى قضيـت سنى حياتى في الجمارك في التحرير ، وهى أكثر مـن سـت عشرة سنة .

وفى وقت مبكر ، بعد وصولى إلى جدة بمدة وجيزة .. قد لاتزيد على الشهر ، تعرفت على الصديق العزيز الأخ صالح يحى أدهم .. ووالده واخويه محمد وعباس ، وكان لهم مطحنة للحب والذرة إلخ . في مبنى قديم بالعلوى .. يعود للشيخ عبد الله رجب .. وتعمقت صداقتنا حتى أصبحنا أخوة ، وهذه الأسرة كانت تعيش في الحبشة .. في أسمرا ، وصالح ووالده يتكلمان اللغة الأمهرية ، وقبل إنشاء الطاحونة كانوا يعملون في – التنجيد – وعمل اللحف والطراريح والمخدات ، ثم تحول الشباب إلى الوظائف الحكومية ، فعمل صالح في مالية جدة ، ثم عملوا في إذاعة جدة .. منذ أن كان يرأسها معالى الأستاذ عبد الله بلخير . وعرفنى الأخ صالح على إبراهيم الجروشي ، وهو رجل من أصل ليبي كان عطارا في السوق الصغير ، وامتدت صداقتنا إلى أن توفاه الله ، وكان الجروشي رجلا بسيطا مرحا لطيفا ، نلتقى به في جدة حين يقدم إليها لعمل ما . وكنا أحيانا حين نذهب إلى مكة نزوره ، وقد أصبح رجلا مكيا .. في لجهته وأسلوب حياته .. وتعامله وسمته ومسلكه ، وكانت تغلب عليه الصراحة والمداعبة في بعض مزحه وأحاديثه ونوادره ،

ولعلي أسجل في صفحات " هؤلاء عرفت " سطورا عن أخي أبي فهد .. صالح أدهم .

وعملت في أحد مواسم الحج كاتبا عند الوكيل الشيخ أبو بكر بخش ، وعرفت الشيخ الطيب الساسي يوم كان رئيسا لتحرير أم القرى ، وفي إحدى زياراتي له أعطاني بعض تجارب مواد الجريدة لتصحيحها ، ودارت عجلة الزمن بطيئة أحيانا .. وسريعة أحيانا أخرى وأنا معها أدور في خضم الحياة ، موظف في وظيفة حكومية ، أنفق شطر ما أتقاضاه في اقتناء الكتب .. لكسب شيء من المعرفة لم يتح لي تحصيله على رَحَلات الدرس ، فحرمت خيرا كثيرا ، وعشت الطموح وبالطموح والأمل ، جادا .. ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، أتوق إلى الارتقاء المعرفي ، ليست لي أطماع ابعد من امكاناتي ، لا أحسد أحدا ، وأغبط الناجحين ، وأحب الطامحين من الشباب ، وأبتهج بهم ، وأمسك على أياديهم حين ألقاهم .. مشجعا ومحفزا على المضي .. نحو الارتقاء في خضم الحياة .. التي لاتعرف سوى الايمان بالله والقوة سبيلا .

وهذه سطور عبقة ، من أخ وفي ذي مروءة ، هو المربي الفاضل الأستاذ عبد العزيز الربيع ، مدير التعليم

العام .. في منطقة المدينة المنورة .. يومئذ ، فيها لغة التطمين المشجعة . وليرحم الله الربيع ، فقد كان ربيعا .. لايعرف المحل ولا الجفاء ، وإنما أخاً وصديقاً حميماً وفياً ، صادقاً ، شجاعاً أديباً وكاتباً وشاعراً ومكافحاً ، يعمل لامته ووطنه .. مااستطاع إلى ذلك سبيلا . وقد نشرت رسالته في العدد (٦) من مجلة الرائد ، عام ١٣٧٩هـ ، وتقول الرسالة الكريمة :

" اسمح لي ياصديقى أن أهنئك من أعماق قلبى على هذه المفاجأة الرائعة .. التى لقيتها عند عودتى من اجازتى خارج المملكة ، ثم يقول : " ولست أدري لماذا قفز إلى ذهنى تلك اللحظات .. مقالك القيم الذى كنت نشرته في البلاد السعودية ، على إثر اجتماع في " عروة " ضم ثلاثة من الرفاق هم أنا وأنت وزميل طبيب ، لقد كان هذا الطبيب زميلا لك في فترة من فترات الدراسة ، وأتاحت له الظروف أن يواصل دراسته النظامية .. فوصل إلى كلية الطب المصرية .. وتخرج منها طبيبا ، ولم تهيء لك الظروف الدراسة المدرسية ، وإنما هيأت أنت لنفسك دراسة قوية عميقة .. لا تتقيد بمنهج ، ولا ترتبط بأستاذ ، وافترقتما طويلا كل في طريقه .. حتى كان ذلك اللقاء ..

الذى كتبت على إثـره مقـالك الرائـع ، الـذى صـورت فيـه خواطرك وانفعالاتك تصويرا لا يحسنه إلا قلم بليغ .. سـبق له التغلغل إلى أعماق النفس البشرية ودروبها ومسارها .

وقد حاولت في مقالك أن تقارن بين ما وصلت إليه في دنيا السمعة والمجد .. وما وصل إليه رفيقك ، وأعتقد أنك وصلت في مقالك إلى نتيجة لا أوافقك عليـها ، ولا أعتقـد أن الكثيرين يوافقونك عليها .

أقـول : " إنـى لسـت أدري .. لمـاذا قفـز إلـى ذهنـى مقالك القيـم ذاك .. وأنا أتصفح الصفحة الاولى من مجلتك الرائعـة . ولكننـى أسـتطيع أن أؤكـد لـك فـي صـدق وإخـلاص .. أنـك فـي ميزان أرجـح مـن كثير مـن الذيـن أتاحت لهم الظروف أن يواصلوا دراستهم . إنك يـاصديقى مـلء كثير مـن الاسـماع والقلـوب ، وأن لـك فـي كتـاب المجد القومي لصفات لن يقوى الزمن على محو سطورها ، وحسبك ذاك " .

• • •

إن سكنى متنقل ، حتى وصل إلى باب شـريف ، رجـل عزب ، مأكله من السوق ، وغسـيل ملابسـه فـي السـوق ،

وسكنه بالايجارة ، ودخله محدود ، وهو قانع بحياته وكده ، والعفاف يقود الى القناعة ، لأن الرزق في السماء ، ولا ينال المرء إلا رزقه وما قدر له . إذن ليس هناك وفر من الدخل المحدود في حدود الامكانات ، وقد لا ينال المرء حقه في وظيفة ،لأن الحياة وجاهة ووساطة والتماس وذل وخضوع ، وأنا لا أملك ولا أحسن شيئا من ذلك ، لانى أقرأ وأردد قول شاعر العرب .. الذى لايشق له غبار أبى الطيب

ذلّ من يحسد الذليل بعيش

رب عيش أخف منه الحمامُ

أفكر في بناء بيت ، أعنى الزواج ، ولكن كما يقال : العين بصيرة واليد قصيرة ، والزواج يحتاج إلى مال وانفاق وتكاليف .. وأنّى لي ذلك ؟

ولن أنسى يوم شعرت بهزال في جسمى ، وأخذت رسالة من الجمرك إلى مدير المستشفى العام يومئذ الدكتور (...) ، فأحالنى على طبيب وبعد الفحص .. كتب : معه وهن عصبى ، وعدت إلى مدير المستشفى .. أسأله العلاج ، فقال لي بسخرية : اقرأ الفاتحة كل يوم على

الريق ، فرددت عليه بحدة ، لانى لا احتمل هذه الأسـاليب وهـذا التعـامل غير الكريـم ، قلـت : يـادكتور لـو تمسـكنا بالفاتحـة كمـا تقـول لمـا احتجـت أن أصـل إليـك أسـألك العلاج والعون ، وانصرفت من مكتبـه ، وهـذا فـي تقديـرى رد مهـذب .. علـى مـا قـال ، ولسـان حـالى يـردد ، وكـان يمكن أن اقول له بأكثر عنفا : لو تمسكنا وعملنا بدسـتورنا لما وجد لك مكان بيننا . وأخذت أردد قول الشاعر :

يقضى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حسنا ماليس بالحسن

غـير أن لقـائى بأصدقـائى الاقربيـن .. يهـون علـيَّ الصدمات وما ألاقى في سبيلى وحياتى ، ومن هؤلاء ، ولعله فـي مقدمتهـم استاذى محمـود عـارف ، وشـيخى محمـد الحافظ وصديقـى الوفـى المحـب علـى عبـاس قمقمجـى ، ومحمد العامر الرميـح وعبـد العزيـز الربيـع ومحمـد هاشـم رشيد . وهذه الصداقة والاخاء سلوى ، والشاعر يقول :

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة

يواسـيك أو يسليك أو يتوجـع

وسلوتى بجـانب هـؤلاء الصديق الاعـزة .. الكتـاب ،

فهو خير جليس .. كما يقول أبو الطيب ، وصدق شوقى في قوله :

إن يجدنى يتحدث أو يجد

مللا يطوى الاحاديث اقتضابا

تجد الكتب على النقد كما

تجد الاخوان صدقا وكِذابا

فتخيّرها كما تختارهم

وادّخرْ في الصُّحْب والكتب اللّبابا

وقد صدق وأحسن الوصف ، فالذى يربط علاقة أو علقة مع الكتاب بصلة وثيقة ، لا يجد مللا ولا ضيقا ولافراغا ، وأهم شيء في حياته بعد اليقين صحة البدن . اللهم يا أكرم الاكرمين ياحى ياقيوم عافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت .

• • •



الفصل الخامس

- ١ -

وتنطوى الأيام ، لنصل إلى جمادى الآخرة من عام ١٣٧٤ هـ الموافق الأسبوع الثانى من شهر يناير ١٩٥٥م ، وتعقد اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية اجتماعها في جدة ، برئاسة الأستاذ العميد الدكتور طه حسين ، وأنا أتوق أن أرى هذا الرجل وان أسمعه ، وقد قرأته في شيء مما كتب ، فأعجبت بأسلوبه الأخاذ ، وسلاسته وبلاغة لسانه ، وفصيح عباراته .

وسعدت بتلقى دعوة لحضور جلسة الافتتاح في فندق قصر الكندرة ، ويرأس وفد الحكومة المضيفة .. سمو الامير فهد بن عبد العزيز وزير المعارف - الملك - ، واستمع إلى ذلك النبع المتدفق من ذلك اللسان الذرب ، بعدما وقف كل ممثل دولة من كل وفد ، بضع دقائق ، ثم يعلن من غير تردد إلى ترك الحديث إلى أستاذهم وأستاذ الجيل الدكتور طه حسين . ويقف الرجل في سمت الكبار .. آخذا في الحديث .. بتلك العذوبة النادرة ، كأنه نبع زلال قراح يفيض سهلا متدفقا ، في تلك التموجات التى تشبه السمفونية المتميزة في ايقاعاتها وتأثيرها على

السامعين ، لا لحن ولا توقف .. ولا يرتج عليه ، تكلم أربعين دقيقة متواصلة ، وكان عمره يومئذ ستا وستين سنة ، وكأنه ابن الأربعين أو ما حولها . وتواصلت كلماته ، في مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، ودار السرور ، منزل الشيخ محمد سرور الصبان ، ومع البعثة المصرية ، من الازهر ووزارة المعارف ، وكان حديثه إلى مواطنيه .. حديث الصراحة الجادة في تلك اللباقة التى لا مجاملة فيها ولا التواء ، ويعتذر لسمو الامير - الملك - ، بأن بينه وبين قومه ، حين يلتقون ويتعاتبون ويتحاسبون الجد والمصارحة والمواجهة . وأنّى لهم أن يجاروه ، أو يقفوا في طريق السيل الهادر .. الذى يكتسح ما أمامه ؟ وألقى الشيخ محمد متولى الشعراوى قصيدة جميلة ، وكان ضمن البعثة الازهرية في كلية الشريعة بمكة ، حيا فيها الأستاذ العميد ، وعدد مناقبه وريادته ، ثم أوصاه بالازهر خيرا[٢١] . وتمضى أيام الأستاذ العميد ، في جدة ومكة والمدينة ثم يعود إلى وطنه .

الى بنغازى

بعد انتهاء اجتماع اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية

وسفر الوفود .. المشاركة من المغرب وتونس ومصر وسوريا ولبنان والعراق واليمن . طلبت اجازة لمدة شهر .. فمنحت لي ، وقررت زيارة الأهل في بنغازي ، وقد أصبحت ليبيا مملكة بعد استقلالها ، وبويع السيد محمد إدريس السنوسي ملكا عليها في شهر ديسمبر ١٩٥٢ م . وقررت أن أسافر إلى مصر بالبحر ، ولم يكن يومها إلا طائرات الداكوتا .. التي تقطع المسافة بين مصر وجدة في نحو أربع ساعات ، وأتيح لي الحجز على باخرة اسمها – ريجيكا – ، وكالتها عند العطار بجدة ، في الدرجة الثانية إلى بورسعيد ، فانا لا أعرف هذه المدينة ، ووددت أن أنزل فيها بدل السويس ، رغم أن الباخرة ستقف على السويس ، وربما كان اختيار بورسعيد لأرى قناة السويس والباخرة تسير فيها ، وأذكر أنه كان في الباخرة بعض الركاب من جدة ، أحدهم نزل في بورسعيد هو الأخ ياسين سقا من أهل جدة ، والبقية وهم قليل عبارة عن افراد .. نزلوا في السويس ، وذلك في أواخر جمادى الآخرة .. (١٣٧٤هـ) .

وكنت قد عرفت في جدة الاخوين أحمد ويوسف محمد عبد الوهاب ناغي ، وكان بين والد الشابين وبين

البحراوى شراكة ثم انفصلا ، وكـان الشـيخ النـاغى يشـغل أمانة صندوق مدرسة الفلاح بجـدة . وكنـت يومهـا موظفـا في الجمارك كما قلت . وعرفت الشـيخ البحـراوى ، لانـه كان يأتي إلى الجمارك في بعض الأوقـات .. حيـن يعـترض معاملة من معاملات التخليص على البضائع التـى يسـتوردها عقبة ، لا يستطيع مخلصــه حلهـا ، وكـان "صبيـان" التجـار يومئذ من الحضارم .. قبل أن تتغير الدنيا ويكثر التجار .

وربما عرفـت أحمـد ويوسـف نـاغى بوسـاطة الصديـق المربى الأستاذ حسن إدريس ، وكان يومها يعمل في حقـل التدريس ، وربما في الفلاح ، وتعرفت على الأستاذ حسـن ربما بوساطة الأستاذ محمود عارف أو مصادفة ، وثم قرابـة على ما أذكر بين الشيخ بكـر إدريـس إمـام مسـجد عكـاش بجدة يومئذ والأستاذ حسن ادريس .

وكان لآل الناغى بعد الانفصال مـن آل البحـراوى دكـان بباب مكة يبيع قطع غيار السيارات حسبما أذكر ، يجلس فيه أحمد في الصباح ، ثم يأتي الوالد بعد الظهر ، ويأتى يوسف .. لانه يومئذ مازال يواصل دراسته في مدرسة الفلاح بجدة .

كنت أجلس عنـد هذيـن الشـابين .. بعـض الأوقـات ، لان سـكنى لـم يكـن بعيـدا عـن محلهـم ، فأنـا أسـكن فـي

الصحيفة ، وتعرفت على والدهما ، فهو رجل هادىء طيب ، قليل الحديث ، وعرفت من مخالطته أنه يستمع أكثر مما يتحدث ، فهو على مايبدو يريد أن يستمع إلى ما يقول الآخرون .

وتوطدت الصداقة الودية مع الشابين . وأذكر أنهما .. حسب موافقة والدهما اشتريا أراضي من الشيخ محمد سرور الصبان في "كوفينكو" خلف مبنى الاذاعة القديم .. في شارع المطار ، وأخذا يبيعانها على الناس بالتقسيط ، على مسمع ومرأى مني ، ولم أكن أملك "سنتيمترا" من الأرض ، ولم أطلب شراء قطعة أسوة بغيري ، وأنا الصديق والأخ لهما ، وهما لم يعرضا عليّ ذلك . ويعرف ذلك صديقي الأستاذ حمدان صدقة حمدان ، فهو كان أحيانا يشاركني الجلوس في دكان آل الناغي .

ويوم سفري حملني الأخ أحمد ناغي بسيارة كاديلاك ، كان قد ابتاعها .. مع أخيه يوسف من محل الزاهد ، وكنت حاضرا هذا الشراء ، وكان الشابان فرحين بامتلاك الكاديلاك في عام ١٣٧٤ هـ !

ذهب معي أخي أحمد عبد الوهاب ناغي إلى ميناء جدة ، وصعد معي إلى الباخرة ، وقبل أن تغادر الباخرة

تعانقنا ، وإذا بدموع أحمد تمطر خديه غزيرة ، وأنا أعرف أنه رقيق وعاطفي ومحب ، ودعني وذهب ، وشكرته على وفائه ووداعي . ودارت الأيام ، وانشغلا ، ولم أعد أراهما .. خاصة أحمد ، وكنت أرى يوسف أحياناً . وأصبح الذين في الواجهة موظفون أجانب ، يصرفونك إذا سعيت إلى صديق لتراه أو تراهما ، ولا يبلغون رسالتك إليه أو إليهما ، وإلى الله ترجع الأمور !

• • •

- ٣ -

وقفت باخرتنا في السويس بعد ثمان وأربعين ساعة ، وبقيت أنا وياسين سقا ، واصلنا الرحلة إلى بورسعيد ، وقد استمتعت برؤية قناة السويس ، وقدرت السواعد المصرية التى حفرتها ، ليلتقى البحران .. الاحمر والابيض المتوسط . ووصلنا بورسعيد نحو منتصف الليل ، ونزلت وسبقنى الأخ ياسين ، ووصلت إلى الجمرك وكنت أحمل (٣٠) جنيها مصريا ، أعطيت منها واحدا للذى كان يقدم لي الطعام في الباخرة ، ومعى في حقيبتى الخفيفة قطعة صوف بدلة – ثلاثة امتار – وسجادة صلاة وبعض السبح ، وشيك بمائة وخمسين جنيها استرلينيا ، فكتبت كل ذلك في الاقرار الجمركى ، وقدمته لرجل الجمارك .. فى ذلك الوقت المتأخر .. من الليل ، وكان برتبة"صول" رجل عريض طويل ، فترك كل ما في البيان وتوقف عند الـ (٢٩) جنيها مصريا .. نوت ، وقال إن المصرح به فقط عشرون جنيها . وأخذت أشرح له بغية إقناعه ، أنني موظف جمركى مثله ، وآثرت أن أكون صادقا ، وكان يمكن أن أخفى التسعة وأسجل عشرين فقط وأمر بسلام ، وأنا أعلم

أن المصرح به عشرون جنيها فقط ، لكنى آثرت الصدق .
ولم يجد مع صاحبنا كل الشروحات ! وقلت له إنني مسافر عبر الصحراء مسافة طويلة ، والإنسان عرضة للمرض والحاجة .. فالجنيهات التسعة الزائدة .. سأصرفها طعاما ووسائل نقل إلخ ، ولكنه لم يقتنع . وأن الحل عنده استبدال التسعة الجنيهات الزائدة بعملة أخرى عن طريق المصرف . وسألته : أثمة بنك مفتوح في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ فقال لا ، ولكن غداً يتم التبديل ، وأعلنت إليه أنني غريب ومسافر في الصباح الباكر إلى القاهرة ، ثم إلى بنغازي ، ولا وقت عندي للبقاء هنا ؛ ولكنه أصرَّ على رأيه ! وضاقت بى السبل .. فقلت له : يقال ! وكان أخر ما في جعبتي . قلت له يقولون : إن الرحمة فوق القانون ، وكان رده السريع .. "دا شيء في الكتب" . وهذا الرد المتعجرف .. والمتصلب والمتعالى الجامد ، أفقدنى توازنى ، وجعلنى لاأرى ما أمامى من الغيظ والغضب ، ولم يبق أمامى مجال للمداراة والرجاء ، فقد استنفدت كل وسائلى المتاحة مع من أمامي ، ولم يبق إلا الجد ، لانه مفرّق الحيل كما يقال . وكان أيامها الرئيس جمال عبد الناصر في أوج مجده وقوته ، بعد أن استبعد

الرئيس محمد نجيب ، ولم يبق أمامي مجال للمهادنة والاحتمال .. وكان بيدى قلم باركر (٥١) فخبطت يدى بالقلم على طربيزة الصول ، وهو جالس وقلت موجها الكلام إليه : اسمع : إن هذه الامة العربية بأجمعها إما أنها لا تستحق الحياة .. فهي أشبه بقطيع يساق إلى المجزرة ، لانها لاقيمة لها ، وإما أن يكون قادتها يكذبون عليها ويلعبون بعقولها ويسومونها سوء العذاب ، بالسيطرة والقمع والاستبداد والاضطهاد ، وأنا أسألك : ماهى الحقيقة ، وما هو الحق ، وما هو الباطل ؟

وماكدت ألتقط أنفاسي واتوقف عند هذا الحد ، لانى قلت ما في نفسي .. إلا والرجل قام من على كرسيه ، وأخذ يهدىء عليّ ويرجونى أن أجلس ، وأسرع إلى خارج مكتبه ، وجاءنى بفنجان قهوة تركى ، وفتح درج مكتبه واخرج منه بكت سجاير – لكي سترايك – الذى نسميه " أبو اسطوانة.." وقدمه إليّ ، واعتذرت بأني لا أدخن السجاير ، وكنت يومها أشرب الجراك ، وقد تخلصت منه بآخرة والحمد لله .

وأدركت من هذا الكرم أن الامور ستسوى على نحو مرض ، وأخذ الاقرار الذى كتبته .. فنقل مافيه ، وجعل الـ

"٢٩"ج.م عشرين ، ووقع عليه ، وحين أكملت شرب فنجان القهوة .. قام يودعني إلى خارج مكتبه ، فشكرته .. وذهبت إلى أقرب بنسيون .. نمت فيه ليلتي ، وفي الصباح قصدت محطة القطار .. لأذهب إلى القاهرة ، ووصلتها نحو الظهر ، فبقيت فيها ساعات ، ثم قصدت الاسكندرية بالقطار ، وأنا آتي مصر لأول مرة .. بعد مروري بها الأول .. قبل إحدى عشرة سنة ، وأنا قادم من بنغازي إلى جدة ، وربما لم نرها ، لانا نقلنا إلى السويس مباشرة ، فحجاج جرب قادمين من ليبيا الفقيرة " عابرين " لا محل لهم للتوقف في القاهرة ، لانهم ليسوا باشاوات ولا أفندية ولا سياحا يحتفى بهم ويرحب . وإن كنت لا أنكر كرم مصر ومواقفها في الحرب والسلم وإيواءها للزعماء والفارين اللاجئين السياسيين ، فهي صاحبة الصدر الرحب .. وهي التي تتحمل الغرم وتوفي وتضحي ، وفاء لعروبتها ودورها ، وهي لاتصد قاصدا محتاجا إلى عون ، فلا أبخسها حقها ، ولا أنكر مواقفها العربية والإسلامية ، فلست جاحدا الفضل والعطاء والمغارم ، وقضية فلسطين الكبرى والحروب من أجلها .. التي دفعت فيها مصر الغالي قبل الرخيص لأكبر شاهد ، ثم دعم الشعوب على

استقلالها من سيطرة المستعمرين بالجاه والعتاد كليبيا في حربها مع إيطاليا والجزائر مع فرنسا وغيرهما . ومواقفها متواصلة ، لأنها قلب العروبة النابض ومركزها الذى يحسب له الحساب .. في المجتمع الدولى .. بحججه وأدلته وجدية مواقفه .

وحين وصلت " مساعد " .. الحدود الليبية ، رأوا ما معى من الكيل اليسير أو البضاعة المزجاة ، مما لا يذكر والبلد على الصفر .. تتلقى الدعم أو قل ميزانيتها من بريطانيا العظمى ، قالوا لي تدفع جمارك على ما معك ! قلت قطعة قماش صوف .. أريد أن أصنعها بدلة وعدد من المسابح .. أتستحق هذه رسوما؟ وأخذ الموظف يتمحك ، وأخذت أجادل بالمنطق ، وأنى موظف جمركى مثلهم ، وأنى كاتب ، وسأعرّض بهم في وطنهم ثم حين أعود سيكون لي موقف من هذه المعاملة التى لا تليق ، فتركوا سبيلى .

وسمعت حين وصلت بنغازى .. أن بعض من يتقاضون تعويضات دراهم معدودة من مصر من سكان الحدود وأمثالهم ، يشترون بما ينالون من دراهم أشياء لا تخرج عن ثياب وألبسة بسيطة ، فكان الجمرك في " مساعد " على

الحدود المصرية الليبيــة يـأخذ منهـم رسـوما عليهـا ، وهـى لا تساوى شروى نقير ، فلجأ البـدو إلـى لبـس عـدة ثيـاب علـى اجســامهم حتـى لايدفعـوا جمـارك .. علـــى الحـــدود الليبية ، وقال قائلهم يومئذ:

يجيكم "أبـو زينـوبه" يجمــ

ــرك اللى منكم مجدد ثوبه

وأبـو زينوبـة هـذا موظـف جمركـى معــروف ، ولعلــه مسؤول ، وهـو الـذى كـان يتصـــدى لهـؤلاء المســاكين فيعتصرهـم ويضيـق عليهـم الخنـاق ! وتعرّفـت علـى مديــر الجمارك العام الأستاذ محمد عبد الكافى السمين ، فـاعتذر بعد أن قرأ ما كتبت عن جماركه ، وأوصى مطـار بنينـة فـي بنغازى بالعناية بي ، فكان الأمر كذلك .. في كل سفراتى .

ووصلت بنغازى ، واحتفى بى أهلى وفرحوا بقدومــى ، وربما سبق وصولى رسالة منى لابـن عمتـى الأسـتاذ محمـد الكاديكى قبل وقت .. أنني قادم ، فهـم إذن كـانوا عـالمين بقدومى . وحزنوا لأن والدتى لم تكـن معـى قادمـة .. وقـد سافرنا معا ، وقصصت عليهم أمر وفاتها المفاجىء الذى لم أشهده ، ذلك أننـا نمنـا ليـلا معـا كعادتنـا ، وفـى الفجـر ..

ذهبت إلى المسجد النبوى ، ولما عدت لم أسمع صوتها .. حين فتحت باب - الخوخة - الذى له صوت كما تعودته ، ولما صعدت إلى حيث تنام .. كلمتها فلم ترد عليّ .. فهززتها ، فكانت جثة هامدة ، ففزعت وبكيت بحرقة ، وأسرعت إلى ابن خالي أبلغه النبأ !

وقلت لأهلى : هنيئا لها ، فقد نامت في جوار كريم .. ما أكثر المسلمين الذين يتمنونه ، وقد أتيح لها من غير تعب ولاعناء ، ومرد ذلك إن شاء الله نيتها الطيبة ، فهى قد رأت أخاها بعد ثلث قرن من الفراق ، وحجت فرضها ، وماتت موتة هنيئة ، ربما تمناها الكثير،فهى لم تمرض ، ولم تتعب أحدا ، ولم تتألم . نعم الفراق مر ، ولكن لامفر من الموت والاجل وقدر الله ، " كل شيء هالك إلا وجهه " .

مكثت عند شقيقتي الصغرى معززا مكرما .. في احتفاء واهتمام ، متنقلا بين العزائم عند أهلى وأقاربى .. لايعكر حياتى شيء والحمد لله .

ولقد قدمت على بنغازى وهى في حال حزن ، فقبل نحو أسبوع من قدومى ، كان الشريف ابن السيد محى الدين السنوسى قد شنق .. جزاء قتله لناظر الخاصة الملكية - ابرهيم الشلحى - وهذا الشاب عمته زوج الملك

إدريس ، لكن الملك رأى أن هذا التصرف والإقدام على قتل أحد رجاله المقربين موجه إليه ، وترتب على هذه الحال تشريد الأسرة السنوسية رجالا ونساء ، فقد نفوا إلى الكفرة وجغبوب ، وجردوا من أعمالهم وتجارتهم ووظائفهم ، وجاء السيد صفى الدين بن أحمد الشريف إلى جدة لاجئا ، ولكن اقامته لم تطل فلم يطق الحياة عندنا ، ولعله توجه إلى مصر أو عاد إلى ليبيا ، ولم يبق مع الملك إدريس أو لم يستثن إلا أبناء السيد عابد السنوسى ، كالسيد عبد الله عابد .. صاحب الشركات والمشروعات في البلاد وأخويه شقيقه السيد طاهر ، وأخيه من أبيه السيد أحمد بن إدريس ، واختار السيد الزبير بن أحمد الشريف وابناؤه الاقامة في الابيار شرق بنغازى .

قضيت أياما .. ربما عشرين ، محاطا بالرعاية والعناية مع اخواتى وأخى منصور وعمى على الهشكة ، وابن أخي منصور حمزة ، وبقية الأسرة العريضة ، والأصدقاء الذين كنت أعرف ، وحال البلاد متواضعة ، لانها فقيرة ، وفى حاجة إلى تعمير وبناء وانفاق وتعليم وارتقاء . أمامها إذن مرحلة أو مراحل لكى تصبح بلادا يسعى إليها ، حين يكون عيشها رغداً ، وقد تحقق ذلك بظهور البترول فيها ، ولكن

لم يطل رغد عيشها ، لان حالها تغيرت وتبدلت ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

لعل شقيقتى الصغرى التى أقيم عندها فترة إجازتى .. لوحت لي بالزواج ، وربما مصارحة ، ولعلى قلت لها إنني لم أفكر فيه بعد ، رغم أنى على أبواب الثلاثين ، وربما قلت لها إنني إذا فكرت مجددا فسوف أتزوج من بلدى ، من جدة أو من المدينة . وقد كنت أطمع أن يزوجنى خالى إحدى بناته ، لكن كثيراً من الامهات هن اللآتى يتحكمن ، وهن لايردن الفقير أمثالى ، وإنما يردن لبناتهن السعادة .. وهن يرينها من وجهة نظرهن .. أنها في المال قبل كل شيء ، ولعلهن على حق !

وأعلنت أنني سوف أسافر بعد أيام قافلا إلى جدة .. وذات يوم صحوت في الصباح ، ومددت رأسى إلى الجنينة فرأيت ابنة بنت خالتى تكنس الجنينة .. فعرفتها ، وقد كانت طفلة يوم غادرت ليبيا مع والدتى ، وكانت تجرى وراء – الكروسة – التى كانت تقلنا من منزلنا إلى ساحة السفر .

وسألت أختى عنها ، فقالت لي إنها كانت متزوجة وتطلقت وعندها طفلة صغيرة ، فقلت لها : اخطبيها لي من

ابنة خالتي ، وكانت عندنا في البيت ، جاءت ربما لوداعي .. حين علمت أني عائد ، وأسرعت شقيقتي إلى محادثة ابنة خالتها ، ولم تقل لها إنني دفعتها إلى ذلك ، وكان الرد أنها لاتمانع لولا أن المخطوب له على سفر ! وكانت تقدر أنها تتخلص بهذا العذر ، غير أن أختي كانت أكثر استعدادا ، لانها كانت متحمسة لزواجي ، فأنا الأخ الشقيق والبعيد عنها ، وقدرت أنني حين أتزوج من بنغازي .. سيكون لي ترداد متصل ، على نحو المقولة : اين بلدك ياجحا ؟ فقال التي منها أو فيها امرأتي . وكان رد شقيقتي : إذا كان العذر أن أخي على سفر .. فنستطيع تأخيره عشرة أيام أو أسبوعين !

واسقط في يد الأم ولم تحر جوابا ، ولم يسعها إلا أن تقول : إنه ابن خالتي ولانجد خيرا منه .. وهو أولى بها ، وإن كانت داره بعيدة ، لكن الرأى لابيها ، ولم يكن في موازين القوم يومئذ .. أن يكون الرأى الاول للبنت أو للمرأة !

وتمت الموافقة خلال يومين ، وخلال أسبوع أو عشرة أيام .. كنت متزوجا ، وأستخرج للزوجة جواز سفر .. وحصلت لها على تأشيرة من السفارة السعودية في

طرابلس ، وخلال أيام .. رحلنا إلى القاهرة ، ثم إلى جدة على إحدى طائرات السعودية الداكوتا . ولعلها المرة الأولى .. التى أركب أنا وهى الطائرة ، وكانت رحلة متعبة ، ولعل ابن عمتي زودني ببعض النقود التى ركبنا بها الطائرة ، ولم تكن الامور معقدة كما هى الحال اليوم ، صرف عملة ، وهات عملة صعبة ، ولكنك تشترى تذكرة بعملة البلد وتسافر ، وإذا كان عندك عملة أجنبية تصرفها في أحد المصارف لتقضي مآربك .

وقبل أن نسافر من مصر بعثت برقية إلى أخي حمدان صدقة بأني قادم يوم كذا بالطائرة السعودية ، ولم أقل إن معيَ رفيقا ، ولكن تركت الأمر للمفاجأة !

وجاء أبو يحي إلى المطار ، وكان معه الشيخ محمود قمصاني .. أبو أحمد ، وكان يومها شيخ الحمّال في ميناء جدة ، وكانت تربطنى به صداقة ، وحينما تكون عنده مشكلة يقصدني لأكتب له شكوى في رسالة أو برقية ، وكانت تقضى الامور بتيسير الله ، فكان يؤثرني ويقدرني . وكنت أسهر عنده في بيته في كيلو "٣" بطريق مكة . أذهب مع أبى يحي من الصحيفة راجلين ، فنلعب البلوت ونشرب الشيشة ونتعشى ، ثم تنقلنا سيارته إلى بيوتنا ،

وكان يسهر معنا المرحوم عبد الله ناظر ، وحين سكن الشيخ عبد الله كامل في جدة بجانب الشيخ محمود .. كان يشاركنا السهر في ليالينا الجميلة . وكان مداوم الحضور ولعب البلوت عمر شاكر ، وكانت أياما غالية عزيزة ، فيها وفاق وايناس وحياة وادعة ، وايلاف ووئام وهناءة وهدوء بال ومتاع . وليس قيمة المتاع فيما تملك وتنال ، وليست في المال والنشب ، ولكنها في العافية أولا ، ثم في الوداعة والصحبة الكريمة ، بعيدا عن الاحقاد والتشاحن والقلق والعناء . تلك هى الحياة الاليفة اليسيرة التى نجد فيها ذلك اليسر .. الذى لاعسر فيه ولاصخب ولاضيق ، وإنما هو نوع من التوافق في تلك العلاقات .. التى يظللها الاخاء والوفاء والحب .. الذى لاينغصه أنانية ولا أطماع ولاحسد ولابغض ولامصالح ، وتلك هى الحياة الرخية .. التى يحياها البسطاء العقلاء الذين يألفون ويؤلفون ، في توازن وانسجام ونكران الذات ، بعيدا عن التعقيد والاثرة والشح . فما أجمل الأمس وما أغلاه وأودعه وأيسره وأسعده وأفضله !

لاقانى حمدان وخلفه الشيخ محمود قمصانى ، ورأى حمدان صاحبه .. الذى ودعه بالامس مسافرا .. لزيارة

الأهل ، يعود اليوم وخلفه امرأة ، ولم يقل له صاحبه إنه تزوج ، إذن من تكون هذه الرفيقة ؟ وسلمت على صاحبي ، وبعده الشيخ محمود الذى غير بعيد ، لان حمدان موظف جمركي ، فسمح له اصدقاؤه .. أن يكون قريبا من لقائي ، وكانت الامور سهلة يومئذ ، وسألنى حمدان من الرفيقة ؟ فقلت قرينتي ! قال : مبارك ، فقلت شكرا . أما هو فقد تزوج قبلي بعام أو أكثر .

وسكنى الذى كنت فيه حجرة في حوش تغطيه السماء وسقفها خشب ، فإذا هطل المطر ، يصبح السقف كأنه غربال!

وأذكر مرة نزول الغيث ، وأنا قد سكنت تلك الحجرة من اللبن في الصحيفة .. منذ شهور ، لا أعلم عن حالها . وحين أمطرت السماء نزل عليّ الماء من فوقي ، فاتخذت ركنا يقيني الماء الهابط ، وغطيت دولاب كتبي بحنبل هو فراشي فوق الخسفة على أرض تراب ، وربما .. كان - وجهها - نورة ورمل ، وطراحة من قطن هي فراشي على الأرض .

ومر بى فجأة السيد الحسن بن زين ، وكان يعمل حارسا في الجمرك ، وظللنا سنين أصدقاء ورفاقا . جاء

مارا بى .. يتفقد أحوالى ، وهو أخ خدوم دائب الحركة ، ودفع الباب ، فهو باب لايقى من شيء ، ودخل عليَّ فوجدنى على تلك الحال ، فأخذ يضحك ، ولو كانت عنده آلة تصوير لالتقط لي أطرف صورة ، لأني كنت "مثل الدّيك على الأستيك" . وسألنى عن الحال .. فقلت له كما ترى . قال إن هذا السكن لا يصلح ، فقلت نقضى فيه الأيام ، ثم إني أريد السفر ، وإذا عدت إن شاء الله نفكر في الانتقال إلى غيره !.

إذن ذلك السكن الرث الردىء ، لايصلح باى حال .. أن أضع فيه عروسا ، ونحن لم يمر أكثر من أسبوع على زواجنا ، وليست الحال تتيح لنا أن نقضي شهر عسل أو حتى شهر بصل ، والعسل .. يحتاج إلى المال للسفر والاقامة ، والله عليم بالحال . إذن دعونا في ستر الله !

والشيخ محمود يعرف السكن العزوبى الحقير ، فقال: هات زوجتك وأقيما عندى .. ما شئت أن تقيم ، فالبيت واسع وانتقل متى شئت الانتقال. فشكرته وأكبرت مروءته، ولم يكن أمامى خيار ، ذلك أن سفرى لم يكن مبنيا على رغبة في الزواج ، ولا كان في بالي ، والمرء لايدرى عمّا في الغد ، وهو عنه عم ، كما قال الشاعر القديم .

ومضينا إلى منزل الشيخ القمصاني ، الرجل الشهم الكريم ، وقضينا فيه أياما ، وعدت إلى وظيفتي . وأخذت أبحث عن سكن يؤوينا ، ووصيت زملائي في الجمارك وهم كثر .

ولعل الأخ مكي حكيم قال لي .. إن والدته تسكن في بناية يملكها أخوه من أمه محمد بنوى في سوق الجامع بحارة المظلوم ، وفيها دور خال ، وانها تصلح لي ولزوجي ، ومنها نؤنس الوالدة ، وفوضته أن يحادث أخاه ، وييسر لي الايجارة والدفع ، وأنا مرتبي محدود ، وليس لي دخل سواه ، فوعدني خيرا .

وسرعان ما تم ذلك ، وأخذت أشترى ما أستطيع من أثاث . ولعلي طلبت وتسلمت راتبين سلفة ، تحسم من مرتبي بنسبة الربع كل شهر . وكانت الامور ميسورة ، فأمين الجمارك أو المدير يملك ذلك القرض والتيسير على الموظف الذى يقع في ضائقة . وخلال عشرة أيام كنا نسكن في طابق من البنايات القديمة في جدة ، والاضاءة الفانوس والاتريك ، فلم يحل بعد عصر الكهرباء ، وهناك – ماطور – عند صالح باغفار في داخل باب مكة ، ومثله عند محمد صالح ابوزنادة في الجانب الغربى من باب

شريف ، في موقع البنك السعودى البريطانى اليوم ، تنتج إضاءة لمبات بطاقة ومساحة محدودة لاتزيد عليها ، ولا ينالها كل من يريدها ، وهى تضىء من قبيل المغرب إلى ما بعد العشاء بساعة .. أو نحو ذلك ، وهى محدودة ، ليس في وسع كل محتاج أن تصله ، والماء يحمله – السقا في قربة كبيرة ، أو في صفيحتين .. على كتفه محملتين على عود مربوط في طرفيه سلسلة مدلاة ومشبوك فيهما الصفيحتان . ونحن الآن في نهاية شهر رجب أو أوائل شهر شعبان من ١٣٧٤هـ . وسكنا مع الوالدة للأخ مكى والبنوى . وكانت امرأة طيبة ، يأتيها طعامها من منزل ابنها مكى القريب منها ، وهى تحبه أكثر من أخويه عبد الرزاق حكيم ومحمد بنوى ، وهو حنون عليها ، وتشفق لحاله لانه متزوج اثنتين ، وحين تتحدث لي ولقرينتى أم وديع .. الذى لم يأت بعد تقول وكأنها تضرب الأمثال: "من دارهم تجارتو ياخسارتو " .. تعنى النساء!

وكنا نقضى عندها السهر في بعض الليالى ، وهى في الدور العلوي ، وكنت أذهب كالعادة أسهر عند الشيخ محمود قمصانى مع الأصدقاء ، وأترك قرينتى مع تلك العجوز .. التى كانت تعتبرنى ابنها الرابع وزوجى ابنتها ،

ولاشــيء مــن التســلية ، فــالراديو يتحــدث بالبطاريــة .. وحدها ، وكنت استمتع من خلاله بأحاديث الأستاذ العميد طه حسين .. كـل عشـية يتحـدث مـن ركـن السودان فـي إذاعـة القـاهرة ، أو هكـذا كـانت تسـمى ، وربمـا سـمتها السياسـة . تلـك الاحـاديث التـى تمتـع وتجـذب وتطــرب وتثقف ، ومن خلالها عرفت طـه حسين ، وأعجبـت بأدبـه وثقافته العريضة ، فأمتعنى وحبب إليّ الأدب ومتابعته والنهل منه ، بقدر ما أستطيع بفهمى المحدود ومداركى المحدودة كذلك ، وبقدر ما يتيح لي تحصيلى المحدود ، مـن خـلال فراغي اليسير . وكانت أمنا - زهرة - وهذا أسمها تحدثنـا عن الماضي والحياة .. وهى تشرب - التبـغ - مـن خـلال شيشة عندها ، وتأنس إلينا ، وكنـا نـأنس بهـا ، وتقول فـي أحاديثها وأمثالها ، ولعلها تعنى البلد أو جدة ، إنها : " تغنـى الغريب وتفقر أصحابها" .

وكنـا نسـمع مـا تقـول ونتـأمل ، ولانـأخذ مـا تقـول مسلمات ، ونعرف أنها امرأة كبيرة .. لها تجاربها وخبراتها وحياتها وأيامها الخالية ، في تلك الحياة البسيطة اليسيرة !

مكثنـا سنة ، ربمـا كـانت الايجـارة "١٢٠٠"ريــال ، أو نحوهـا . ومرتبى يومئـذ لا يتجـاوز ثلاثمائـة ريـال ، وكـان

يكفينا ، فالأسرة رجل وامرأة ، أقل شيء يسد الحاجة ويغني.

وانتقلنا إلى مبنى للسيد محمود عشماوى في حارة المظلوم نفسه ، بجانب بيت آل راجح ، الذى سكنت فيه بعض الوقت ، لان أهله زملائى في الجمرك ، وكنت أتردد عليهم سهرا ، وبعض الأحيان مبيتا .. أين ما تمسى ترسى .. كما يقال!

وجاءت الكهرباء .. حين انتقلنا للسكن الجديد ، وبدأت الحياة تأخذ مسارا متطورا ، ليس طفرة وإنما في تدرج بطيء ، وهى سهلة ، والإنسان هو الذى يعقدها ويلويها ويصعبها على نفسه ، وربما على غيره . ونعود نستنطق أبا الطيب ، فنراه يقول:

كلما أنبت الزمان قناة   ركّب المرء في القناة سنانا

وخلال سكنانا في بيت البنوى ، وحين قرب عيد الفطر خطر لي أن نقضيه في المدينة .. كماتعودت وليس من وسيلة إلا السيارات الكبار اللوارى ، وركبنا واحدة محملة بُراً ، وكنا على الاكياس ، وكانت رحلة طويلة ومتعبة .

وكنا ضيفا على الرجل الطيب الكريم الشيخ زيان

عمر ؛ قضينا الأيام الاخيرة من رمضان وأيام العيد ، ثم عدنا إلى جدة بالوسائل نفسها ، وحدث مالم يكن في الحسبان ، وأنا قليل الخبرة في أمور النساء والحمل وما إليه . وكانت أم وديع حاملا ، غير أن السفر المتعب أدى إلى ما يشبه الاجهاض ، فسقط الجنين بإجراءات في أحد مستشفيات جدة ، ولم يكن هناك أمل في بقائه في بطن أمه ، وأسفنا على ماحدث ، وندمنا على تصرفنا وسفرنا ، وأنا لم أكن مدركا ، ولعل الزوجة لم تقل لي بالاخطار ، ولاكنا ندرك تلك المخاطر التي ارتكبنا ، نرجو الله أن يعفو عنا .. ولا يؤاخذنا بما كان منا ، لانه كان عن جهل . والإنسان خطّاء ، وإنا نتوب إلى الله ونستغفره ، إنه غفار الذنوب .

وبالزواج من بنغازى ، درجت قدماى على السفر إلى هناك ، ربما كل عامين ، ويأتى أهل الزوجة للزيارة والحج ، وهكذا تجر الزوجة الرجل إلى حيث كانت ، وإن كنت لا أنكر مسقط رأسي ، فالعرب تقول : "مسقط الراس غالي" .

ورزقت الذرية ، فقد ولدت لي ليلى في شهر رجب ١٣٧٧هـ ، ووديع في ١٣٧٨/١٢/٥ ، وسلوى .. في

٢٩ ربيع الاول ١٣٨٠ هـ ، وأنا في السجن .. نتيجة حادث دهس توفى فيه رجل .. وكان الوقت ليلا من أحد أيام الجمع ، وكنت ذاهبا من دارى في عمائر البنك الأهلى التجارى في الكيلو (١) من طريق مكة ، كنت متوجها إلى مطبعة الاصفهانى .. في شارع المطار وهكذا العمل عندى هاجس ، لا تختلف عندى الأيام ، فالجمعة مثل السبت ، والخميس كالاثنين وهكذا[٢٢] . وولدت سهير في شهر صفر ١٣٨٢هـ ، وأسامة وسمية .. توأمان ، في شهر جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ .

• • •



الفصل السادس

- ١ -

والحديث عن ... بدء ممارسة الكتابة ، كان منذ عام ١٣٦٩هـ في صحيفة المدينة المنورة ، فقد ضم ذلك كتابى : "وتلك الأيام" الذى أصدرته في غرة جمادى الآخرة من عام ١٤٠٦ هـ الموافق ١٩٨٦/٢/١٠ م . وفى ذلك الكتاب تجربتى الصحافية ، في الأضواء ، والرائد وعكاظ .. إدارة وتحريرا ، ومؤسسة البلاد للصحافة والنشر ، ودار البلاد للطباعة والنشر .

إن بداياتى الكتابية إذن كانت في عام ١٣٦٩هـ ، وذلك بكتابة "عمود" .. في جريدة – المدينة المنورة – ، لصاحبيها : على وعثمان حافظ ، رحمهما الله .. حينما كانت تصدر في المدينة نفسها ، وكان عنوان ذلك العمود : " أحاسيس " ، ولم يكن منتظما أسبوعيا ... وإنما حسبما تتداعى الخواطر . وكان يتناول أمورا اجتماعية ، أعالجها بحرص وأناة وتناول لايخلو من دقة ودعوة إلى المعالجة المجدية . وربما كتبت في تلك الخواطر لمحات أدبية ، لانى لم أنضج بعد في تفكيرى الأدبى ، لذلك كان التركيز على الجوانب الاجتماعية ، التى كانت تستدعى

اهتمامي ، وهي بداياتي الأولى .

وأصدر الأستاذ عبد السلام طاهر الساسي كتابه شعراء الحجاز في العصر الحديث .. في عام ١٣٧٠ هـ ، في طبعته الاولى ، ويشتمل على نحو سبعة وعشرين شاعرا ، من شعراء الحجاز . وهذه النماذج الشعرية .. التى جمعها الساسى ، وقدمها في هذا المجلد ، لم تصاحبها دراسة .. أو وقفات تأمل ، وإنما هى تجميعات ، اسهاما من الرجل .. الذى أحب الأدب ورواه ، أعنى الأدب الحديث ، كما اهتم الساسى برواية المعارك الأدبية بين بعض أدبائنا ، وكذلك الاهاجى ، وهى جوانب لم تحفل بها الصحافة السيارة ، لاسيما الاهاجى ، والأستاذ الساسى غير مهيأ لدراسة الأدب وفنونه ، ولكنه يحمل هاجس جمع الشعر وطباعته .. ليقرؤه الأدباء ، وكذلك النثر . وربما تجاوز البلاد إلى مصر ولبنان وسورية . ذلك أننا مجهولون .. عند أدباء تلك الاقطار . وقبل شعراء الحجاز ، قدم الساسى .. في عام ١٣٦٨ هـ ، كتابه الأول : الشعراء الثلاثة " ، وهم حمزة شحاتة ، ومحمد حسن عواد ، وأحمد قنديل ، يحمل قصائد من اختيار الساسى ، أو طلبها من أصحابها فقدموها إليه . والرجل

يشكر على جهده واهتمامه . وهو أول من قدم موسوعة أدبائنا إلى القراء.

وقد كتب الأستاذ حمزة شحاتة .. مقدمة شعراء الحجاز ، ولعل الساسى حذف منها كلمات ، لعلها تتعلق بالشيخ محمد سرور الصبان كما يقال . وهذا الرجل له أفضال على الأدب والأدباء ، ومنهم الساسى نفسه ، مما حدا بالأستاذ شحاتة أن يتبرأ من مقدمته ، مما انتابها من حذف .

وقد تصديت لشعراء الحجاز .. في كتاب الساسى بالنقد ، وأنا في بداياتى الأدبية ، لانغراس حاسة النقد .. في نفسى ، وبدأت أنشر في البلاد السعودية ، غير أن الباب وصد في وجهى ، ذلك أنني أكتب وانتقد أدباء مرموقين ، ذوى مكانة أدبية ، وهم ربما كبار في الأوساط الأدبية ، ومن العسير .. أن يتصدى شاب مثلى .. عدته مهزوزة ، فينال من أولئك الكبار ، ولكنى كنت انتقد أشياء أراها تستحق الانتقاد ، ووجدت شعرا – مهلهلا – ، يستحق أن يغربل ويقوّض ، وأن يقال لأصحابه .. إن هذا ليس شعرا يستحق أن يقرأ وأن ينشر ، ويؤكد بذلك توكيد كاتب المقدمة . وقد رد عليّ الأستاذ الشاعر حسن عبد الله

القرشي .. بمقال ، نشر في جريدة البلاد السعودية ، يوم كان يرأسها الصحافى المجيد والاديب الكاتب الأستاذ عبد الله عريف ، رحمه الله . ولعل عنوان مقالة القرشى ضدى : النقد وعبث صغار الكتاب به " .

وجنحت إلى مصر ، فقد كان هناك صحيفة اسمها – الأحوال – ، مغمورة ، كنت أنشر فيها نقدى لاولئك الشعراء ، حتى أن أحدهم ، وهو الأستاذ عباس حلوانى .. رحمه الله ، من أهل جدة ، ناله شيء من نقدى ، قابل الأستاذ محمود عارف .. فقال له : إن فلانا – يعنينى – ليس عنده إلا – خبز ونقد – وليس مشغولا بشيء .

وانتقدت دواوين الشاعر .. طاهر زمخشرى ، وقرأت القرشي ، وكتابين أصدرهما الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي ، فيهما سخف وعبث .. باسم الدراسة الأدبية لبعض شعرائنا ، وهذه الكتابات للخفاجى .. تشبه – سلق البيض – ، ليس فيها غنى ولاقيمة لها . وقد رد عليّ .. في جريدة البلاد السعودية ، بمسلك التعالى ، والأستاذ الجامعى ، الذى يحمل لقب مشيخة الأدب ، أو الدكترة ، التى لاتنبيء عن عمق معرفة وثقافة .. ترتفع عن التسطح والسطحية ، وقد قدمت هذا النقد في كتابى: "أمواج

وأثباج" مضافا إليه نقدات أخر أدبية .

وهكذا تحول ذلك الصبى العامل في المقاهى والفرن ، وخلط وعجن (مونة) البناء والترميم ، والذى لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية في ثلاثة عشر شهرا دراسية ، وقد ضاعت تلك الشهادة الوحيدة وأصبح – مفتاح – كويتبا ، ناقدا مشاركا في إصدار صحيفة الأضواء .. في جدة ، في نهاية عام ١٣٧٦ هـ ، وهو يومئذ موظف .. في قسم التحرير .. في جمرك جدة ، راتبه لا يتجاوز ثلاثمائة وأربعين ريالا ، ثم أصدر في عام ١٣٧٩هـ بمفرده مجلة الرائد الأدبية ، التى استمرت تُؤدي دورها الثقافى .. حتى قيام المؤسسات الصحافية في البلاد ، في نهاية عام ١٣٨٣هـ . ثم دخل مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر موظفا .. في إدارتها ، ثم أسند إليه .. في شهر شوال – ١٣٩٣ - هـ مسؤولية العدد الأسبوعى من عكاظ ، وهو عدد مستقل ، مضى فيه قدما ، حتى استقال في متوسط عام ١٣٧٦هـ ، ومرد ذلك اختلاف المشارب بينه وبين مدير المؤسسة العام يومئذ ، ثم تحول إلى مؤسسة البلاد للصحافة والنشر مع الدكتور حسن أبى ركبة ، وكانت المؤسسة في وهدتها ، فاستعان الرجلان : أبو ركبة

وأبو مدين بالله ، وشمرا عن ساعد الجد ، فأنقذا المؤسسة من الغرق ، وأنشآ مطابع دار البلاد ، وحققا نجحا وتقدما وارتقاء بالمؤسسة والمطبعة ، وأصبح ذلك الفتى الذى عرفنا آنفا بدايات حياته .. إداريا ناجحا في عكاظ والبلاد المؤسسة والمطبعة ، والنادى الأدبى الثقافى ، وقد تزامنت بعض الأعمال الادارية ، مثل مؤسسة البلاد ، ودار البلاد للطباعة .. والنادى الأدبى ، في وقت واحد ، وهو نجح مشهود ومعلن . وقد سجل ذلك في كتابه "وتلك الأيام" .

الأضواء

ولعل الحال تدعو إلى تسجيل نبذة عن عملى الصحافى ، فربما لا يتاح لقارىء هذه الصفحات .. أن يبحث عن كتابى – وتلك الأيام – الذى سجلت فيه تجربتى الصحافية ، لهذا فإني أقدم إلمامة موجزة عن تلك التجربة .. التى تشبه المغامرة ، ذلك أن بعض الشباب له طموح وتطلع ارتقائى ، ولو لم تكن له امكانات وقدرات ، ولعلى أحد هؤلاء ، وهو شرف لا أدعيه ، ففى ضحى أحد الأيام من عام ١٣٧٦هـ ، وربما كان في منتصف العام الاول ، وأنا في مكتبى بجمرك جدة بالميناء البحرى ،

جاءني صاحبي محمد سعيد باعشن ، وقد عرفته عن طريق خاله الأستاذ محمد حسن عواد ، جاء يزورني ، ولعله كان يحمل فكرة تجميع مقالات لادبائنا .. لنصدرها في كتاب ، كما يصنع الأستاذ عبد السلام الساسي ، ذلك أننا شبان .. نتطلع إلى الشهرة الأدبية ، ونقرأ كتب الأدب ، ونعرف أدباء بلادنا ، وبعض أدباء الوطن العربي ، وخلال الحوار ، جاءنا الأخ محمد كامل خجا ، من المدينة المنورة ، ونحن نخوض في لفائف تطلعاتنا ، حتى وصل تحاورنا إلى طلب امتياز إصدار صحيفة أسبوعية في جدة ، ولعلنا وصلنا إلى اسمها – الأضواء – .

وافترقنا لنلتقي محمد سعيد وأنا في منزل الشيخ محمد الطويل أحد كبار ووجهاء جدة ، وهو رجل له تاريخ عريق .. مشرق ، اشتهر بعمل المعروف ، والسعي في مصالح الناس ، وكان من كبار رجالات الملك عبد العزيز ، رحمهما الله ، وذلك بعد العصر من يوم لقائنا نفسه .. لنبدأ خطواتنا الايجابية ، وانضم الينا بعض الصديق ، وهما محمد أمين يحي وعبد العزيز عطية أبو خيال ، وبعثنا بطلبنا .. إلى المدير العام للاذاعة والصحافة والنشر ، وخلال ستة اسابيع ، تلقينا الموافقة بتحقيق

الحلم ، والموافقة ورقة ، لا تبنى كيانـا ، ولكنهـا مفتاحـه . وبدأنـا مـن تحـت الصفـر ، أو ممـا قبلــه ، إن صــح هــذا التعبـير ، ولا أعـدو الحقيقـة .. إذا قلــت إننــي المتحــرك الميدانى ، أو قل فيما لا ينال اهتمام صاحبى محمد سعيد ، وأنا لي صديق أنال عونهم حين أدعوهـم إلـى ذلـك ، وفـي مقدمتهــم الأخ حمــدان صدقــة ، فهــو نعــم المجيــب ، والبدايات صعبة ، ولكن أمام العزم ، يُذلل الصعب ، وربمـا المستحيل .

وأخذنا ألفي ريال من بيت زينل رضــا ، بـأمر معـالى .. محمد عبد الله رضا ، رأس أسرة زينل رضا يومئذ ، ووزيـر التجارة ، وهذا المبلغ .. ننشر به إعلانات للسـلع التجارية لبيت زينل .

وخطونا سراعا ، لشراء طربيزات وكراسٍ بالتقسيط من الشيخ اسحق نواب ، وكان يبيع هذه الأشياء القديمـة فـي سوق الحراج ، فـي طـرف السـوق الكبـير ، بجـانب باعـة الذهب ، وأخذنا شقة من عمائر البنك الأهلى التجارى فـي باب شريف ، والإجارة إعلانات ننشرها في صحيفتنا .. عن أملاك البنك وتأجيرها.

ومضينا إلـى مؤسسـة الطباعـة والصحافـة والنشـر فـي

كيلو (٥) طريق مكة ، وكان يملكها السيد حسن الشربتلي . وهذه المطابع أسسها السيد أحمد عبيد .. رحمه الله ، يوم أنشأ "مجلة الرياض" في عام **١٣٧٣هـ** مع بداية تولى الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله الملك بعد وفاة والده رحمه الله ، ويوم توقفت مجلة الرياض ابتاع السيد الشربتلي المطابع ، ولعله كان مساهما في رأس مالها .

وأذكر ونحن نتفاوض مع مدير تلك المؤسسة الأخ محمود رضا ، محمد سعيد وأنا ، مر بمدير المطابع الشاعر والاديب والكاتب ، ونائب رئيس مجلس الشورى الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوى ، وسأل محمودا عنا ، فقال له : إنهما فلان وفلان .. جاءا يفاوضانني لطباعة صحيفة لهما اسمها الأضواء ، ونحن مرتبكان منكمشان ، أمام الرجل الكبير العملاق .. بهامته وقامته ، وتحرش بنا .. دون أن تبدر منا أي كلمة ، ولوح بعصاه في الهواء ، وقال: إن من ينتقدنى أضربه بهذه العصا .. . فأسرتها في نفسي ، ويوم جاءت الفرصة ، تصديت لقصيدة ألقاها أمام الملك سعود ، وهى مسخ لقصيدة أبى الطيب التى مطلعها:

المجد عوفِي إذ عوفيت والكرم

وزال عنك إلى اعـدائك الالـم

والأستاذ الغزاوى بدأ قصيدته بقوله :

الشرق عوفى وقد عوفيت والعرب ، إلخ .

وأصبحنا بعد ذلك أصدقاء ، وكان فـي مقـدور الرجـل أن يضرنى لكنه كان كبيراً في نفسه وعقله ومروءته .

وحيـن جمعـت لنـا المطبعـة مـادة العـدد الاول مـن الأضواء ، اختار لنا الأستاذ محمود رضا ، السيد – سـلامة حمودة – ، ويعمل في جمع المواد علـى –اللونتايب – ، وهـو مـن فنيـى مدرسة أخبـار اليـوم ، فجاءنـا فـي مكتـب الصحيفـة .. ليعمـل – مـاكيت – العـدد الأول ، وجلسـنا حوله ، محمد سعيد وأنا ، وكلنا عيون ، وحين صدر العدد الأول فـي شـهر ذى القعـدة عـام ١٣٧٦هـ ، طلـب الأخ سـلامه حمـودة أن نحـدد لـه موعـدا .. ليـأتى إلينـا لعمـل ماكيت العدد الثانى ، فشكرناه ، وقلنا له قد عرفنا أو حذقنا هـذه العمليـة ، ومـرد ذلـك حـب هـذه الحرفـة والطمـوح والجد .. الذى لاحدود له .

وقبل صدور العدد الأول .. لابد من التهيؤ لهذا الحدث ، الذى له في نفوسنا إكبار ، لانه عشقنا وحلمنا وطموحنا ، لابد من إعلام الناس به مسبقا ، ولسنا نملك مالا نستأجر به من يقوم بالدعاية ، فلسنا أصحاب مال ، ولكن ثروتنا جدنا وأحلام معسولة ، وما أجمل هذه الأحلام عند أهلها والمعايشين لها !

عملنا إعلاناتنا ، وهى أمتار من أقمشة ، تحمل اسم الأضواء ، وحلم الشباب والطموح ، والصحيفة الاولى في جدة ، وقد كتبها الخطاط - صنع الله - ، واشترينا الحبال واخترنا الموعد ، بعد أن تخف حركة السيارات ، في ساحة - قهوة بشيبش - ، بجانب مقبرة الاسد .. في باب مكة وبدأت وأبو يحى - نتشعبط - على الاعمدة الكهربية ، لا نبالى بما يحدث ، لنعلق إعلاناتنا ، وليقرأنا الناس مصبحين ، ثم سعينا إلى شارع قابل .. في قلب مدينة جدة وسوقها التجارية الكبيرة .. وأمام مسجد عكاش ، وعلى الجانب الآخر بأعلى مكتب عبد البديع اليافى ، عيادة فيها طبيب إيطالى ، هى سكناه وعمله ، وطرقت بابه ، وكلمته بالإيطالية ، معتذرا عن الازعاج ، وراجيا أن يأذن لنا بربط حبل في " بلكونة " العيادة لإعلاننا ، وقلت

له إننا سنصدر خلال أسبوع جريدة ، والمثقف الواعى يقدر الصحافة ويحسب لها الحساب ، وأعنى الصحافة الجادة ، فسمح لنا الرجل برضا وتشجيع .

وأصبح الناس وأمامهم – الأضواء – إعلاننا ، ثم ورقات تقرأ .. تحمل الطموح والعمل والجد والتحفز لاقامة صحافة .. فيها وثبات وفورة الشباب . فلا بلدية نستأذنها في تعليق هذه الاعلانات ولا قيود تكبل هذا السعى ، وتلك طبيعة الحياة ويسرها وبساطتها .

وانطلقت الأضواء ، وكان زميلى – رحمه الله – الذى يشاركنى من عشاق المظهر والصدارة ، يريد رئاسة التحرير ، فلم أعارض ، ولم أطمع ، ورضيت أن أتولى شؤون الإدارة .. وأشارك في التحرير . وأتولى عنه المسؤولية في غيابه .. ونجحت الأضواء بمقاييسنا ، وإن كانت لم تعمر ، ولكنها تركت دوياً وتاريخاً .. في صدق العمل وإخلاصه وتعبه وكفاحه ، ونجحه واخفاقه ، ولاتحتمل هذه السطور .. الاستطراد لتسجيل دور الأضواء في الساحة الصحافية والأدبية يومئذ ، وهى للتاريخ والدارسين ، الذين يعنون بالدرس والتقويم ، من خلال الامكانات والظروف بعامة . وليس لي سوى الطموح

والعطاء غير المحدود ، في سبيل العشق والحب .. لما أعمل وأختار ، حتى كتابة أسماء المشتركين .. على الوريقات التى تلبس فيها الجريدة وتبعث إلى البريد ، أكتبها بيدى وقلمى ، حيث لانملك مالا نوظف به من يتولى هذا العمل وأمثاله ، وهذا شيء من معطيات العشق حتى الوله .. في سبيل اشباع الطموح وتحقيق الآمال .

إن (الرائد) لا يكذب أهله

فى هذه السطور ، أو في هذه الكلمات التالية .. عن مجلتى الأدبية - الرائد - ، التى سعيت إلى الحصول على إذن إصدارها ، بعد توقف صحيفة الأضواء ، وفى هذه المرة .. استقللت عن المشاركة ، فكنت صاحب الصحيفة ورئيس تحريرها .

لقد أخذت بأيدى الشباب الطامح ، أنشر ما يكتبون ، مشجعا ودافعا لهم نحو العمل والبناء ، وتحقق حلمى ، كما تحقق حلم الطامحين ، وأصبحت اليوم أسماء لامعة في الصحافة والأدب ، وهى نماذج ناجحة ، منهم الدكتور هاشم عبده هاشم والأستاذ العمير ، والدكتور حسن الهويمل ، والأستاذ محمد أبو سليم ، والأستاذ راشد

الحمدان ، والأستاذ عبد العزيز النقيدان ، والدكتور صالح الوشمي رحمه الله . هذه فقط نماذج ، وثم غيرها ، لعلى تحدثت عنهم في كتابى "وتلك الأيام" . كما عنت الرائد بتخصيص صفحات لبعض المقاطعات في وسط الجزيرة وجنوبها ، كان يشرف عليها أبناء المنطقة أنفسهم ويجمعون موادها ويحررون زواياها ، وكان إسهاما من مجلتي لبث المعرفة وتشجيع الشباب لكى يشقوا طريقهم في حياة الكتابة والتعبير ، وهم بعيد عن الأضواء وزحمة الحياة وصخبها ، فينبغي أن ينالوا بعض حظهم على الأقل ، وهذا ما أحسست به .

وكانت الرائد صحيفة أدبية واجتماعية ، سارت في اتزان ، بعيداً عن الأعاصير ، والتزمت المسار الوسط ، فتحقق لها بعون الله النجح ، وأصبحت مقروءة ، وهى مثل الأضواء .. تكونت من لاشيء ، وكتبت فيها أقلام جادة ، أمثال الدكتور محمد سعيد العوضى ، والدكتور عبد الله مناع ، والأساتذة مدنى بن حمد وعبد الكريم الخطيب ومحمود عارف ، وعبد العزيز الربيع ، والدكتور عارف قياسه والأستاذ على دمر ، والدكتور هاشم عبده هاشم وأسماء أخر كثيرة .

والصحافة رسالة وهـي التـي تنجـح ، أمـا الوظيفـة فـإن نجحها محـدود ، بمقاييس وحسابات العقلاء والعـالمين وموازينهم الدقيقة . والامكانات ليست كـل شـيء ، ولكـن العمل الجاد ونكـران الـذات والتضحية والاخـلاص ، هـي السبل التي تُوزن بها الصحافة الناجحة المقروءة . والجانب المـادي عـامل مساعد ، لان الانتشـار والنجـح .. يجلـب المـادة ، ويحقـق الدخـل ، ويرغـب فيهـا الكـاتبون الجادون،والقراء والمعلنـون والمهتمـون بـالإعلام الصـادق الجاد ، وقد لا تعمر هذه الصحافة ، ولايطول بها الزمان .

ولست أؤرخ لمجلتي " الرائد " ودورها ، وما حققـت من مكاسب معنوية .. أما المادية فلاسبيل إليها ، وربما فـي بعض أو كثير من ساحات العمل .. أن الجد خصيـم المـال والغنى ، أو هكذا أرى . على الساحة المحلية ، لأن الرائـد مقروءة ومرغوبة ولكنـي .. أسـرد مراحـل حيـاتي وأعمـالي اللصيقة بي ، ومنها امتلاك صحيفة وإدارتها بعزم ، والكتابـة فيها .. لمعالجة قضايا أدبية واجتماعية وسياسية .. في اتزان وبلوغ هدف ، من خلال جهد شاب .. لم يدخل الجامعة ، ولم يصل حتـى المرحلـة الاعدادية ، وكـانت حياتـه نصبـا وعناء وكبدا ، حياة لايعبأ لها ، لانها جوع وفقر وحرمـان ،

غير أن التصميم .. والتطلع إلى الرقى والطموح ، كل ذلك يحقق المستحيل . وكان العزم الذى أحمل ومازال والحمد لله .. لا يفله الحديد . فحقق نجحاً ، لم يدعمه مال ولاعلم ؟ وإنما وراءه شيء اسمه الطموح ، والتطلع إلى المعالى والارتقاء .. إلى مصاف القادرين؟ إنه فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ولو أتيح للرائد أن تستمر .. ويتصل صدورها ، لكانت اليوم من أرقى المجلات الأدبية في العالم العربى ، لانى لا أستسلم للجمود ، ولا أركن إلى الخمول والدعة والتعالى ، ولا أهاب ، وتلك عدة النجح والتقدم والتطور أو شيء من ذلك ، ودخلت الرائد التاريخ بتوقفها .. مع صدور نظام المؤسسات الصحافية .. في أواخر عام ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م ومنطق الحياة ؛ لكل أجل كتاب ، ولكل سافرة حجاب .

وأسجل هنا .. أننا في ذلك الوقت المبكر ، وقت صدور صحيفة الأضواء ، أننا غامرنا وأصدرنا "سلسلة الأضواء الأدبية" ، فقد أصدرنا ديوان شعر للاستاذ الشاعر محمود عارف .. المزامير ، وأحاديث للدكتور محمد سعيد العوضى ، ومذكرات طالب سابق للدكتور حسن

نصيف ، والأذن تعشق وقصص أخرى ، والحنينة للاستاذ أمين سالم رويحى ، وأمواج وأثباج في النقد .. لعبد الفتاح أبو مدين ، ولو امتد الاجل بالأضواء .. لاصدرنا المزيد ، وحققت المزيد ، في مجال النقد والاصلاح ، غير أن الصحف والمنابر الجادة آجالها قصار .. كما يبدو .

إن عملى الصحافى لم ينته .. عند توقف الأضواء ، واحتجاب الرائد بصدور نظام المؤسسات الصحافية ، ولم يقف عند كتابة المقالات في صحفنا المحلية ، مثل عكاظ ومجلة اقرأ وجريدة البلاد إلخ . ولكنه استمر حين التحقت بمؤسسة عكاظ عام ١٣٩١هـ في إدارتها . وخلال حرب رمضان ١٣٩٣هـ ، وكل إليَّ مدير المؤسسة العام الاشراف على العدد الأسبوعى كمدير تحرير ، ولم يكن في الجريدة اليومية رئاسة تحرير ، وإنما يشرف عليها مدير تحرير مثلى ، وكان العدد الأسبوعى مقروءا وناجحا ، تكتب فيه اقلام مجيدة ، ومن الطريف أنني أمضيت أكثر من شهرين اصدر هذا العدد .. من خلال سيارتى ، فقد كانت شنطتها .. هى مكتبى ، ففيها مواد ما أصدر ، وكنت أذهب إلى مبنى عكاظ .. في طريق الميناء البحرى ، بعد عصر يوم الجمعة ، ولا أخرج منه إلا صباح السبت ..

وبيدى العدد الأسبوعي ، ولا أدير صحيفتي عبر الهاتف والفاكس وأنا في دارى ، ولم يكن عندى جهاز تحرير سوى " ماكاتير " هو الأخ أحمد رجائى ، ومصحح غير متفرغ ، أستاذ بإحدى المدارس ، وذلك بعد انتقال الأخ على مدهش إلى العدد اليومى ، وقد كان معى بعض الوقت في العدد الأسبوعي ، وتركت العدد بعد القرف الذى لحقنى ، وأنا لا أحتمل الضيم مهما كان فاعله ، لانى أبغض الذل ، وأردد قول أبي الطيب :

ذَلَّ من يحسد الذليل بعيش

ربَّ عيش أخف منه الحِمامُ

وفى الأرض منأى للعزيز من الأذى ، والرزق على الرزّاق ، والاجل بيده وحده .

• • •



الفصل السابع

- ١ -

في خـلال عـام ١٣٨٢هـ ، طلبـت اجـازة لمـدة سـتة اشهر للذهاب إلى لندن لدراسة اللغة الانجليزية ، فووفق لي على ذلك ، وأنا يومئذ مازلت موظفـا فـي الجمـارك . وفـى مطلع ذى الحجة وأنا أحزم حقائبى مع أسـرتى .. اسـتعدادا للسفر إلى بنغازى ، لامكث مع أسـرتى بعـض الوقـت ، ثـم أتركهـا هنـاك ، وأذهـب إلـى لنـدن ، جاءنـا قريبـى الأسـتاذ محمد الكاديكى .. ، فبقينا معه بضعة أيام ، ثم أوصيـت بـه خيرا الأخ حمدان صدقة ، ليرافقه إلى المدينة ، ويسهل لـه أمر الحج المريح ، وتعـرّف علـى الدكتـور عبـد اللـه منـاع الـذى وكلـت إليـه أمـر تسـيير صحيفتـى – الرائـد – مـدة غيـابى ، ومعـه الاخـوان : حمـدان صدقـة وعبـد العزيـز فرشوطى ، وتعـرف صهـرى كذلـك علـى الدكتـور عـارف قياسه والأستاذ محمود عارف . ثـم سـافرنا .. وتركتـه فـي بيتى ، وتركت له سيارتى – الأوبـل– ومعـه – جمعـان بـن عبيد – ، مراسل مكتب الرائد وهو رجل أمين وفـي ، وقـد تحدثـت عنـه فـي "وتلـك الأيـام" لانـه ينـدرج فـي مسـيرة التجربة !

وانتظرت في بنغازى حتى عاد الأخ الكاديكى من الحج ، وهو عليم بلندن والانجليز وقد خرج من المجلس التشريعى ، وأصبح مديرا لشركة نقل ليبية هناك.

وسافرنا إلى لندن ، وذهبنا إلى .. المجلس البريطانى ، فاختار لي المدرسة التى سألتحق بها ، ومضينا إليها لاتمام الإجراءات ، وبحثنا عن أسرة – كالعادة – لا قيم معها فترة بقائى قيد الدرس ، وتم كل ذلك بيسر ، وأودعت مامعى من صكوك نقدية .. في أحد المصارف ، في حساب جار ، وحسب الاوراق التى حصلت عليها بقبولى طالبا في تلك المدرسة وموافقة المجلس البريطانى ، أخذ جوازى وأوراق قبولي في المدرسة إلى – Home office – للحصول على إقامة ، فقبلت بكل يسر وتسهيل ، وأعطيت ايصالا بتسلم الجواز والاوراق . وعاد الأخ الكاديكى .. إلى بنغازى ، وتركنى في لندن أتلقى درسى ، وطمأنني إلى أنه من السهل أن أشق طريقى وأنجح ، وأجيد هذه اللغة .. من واقع رغبتى وطموحى !

وسرعان ما جاء ما يسمى عند النصارى بعيد الفصح ، وقررت المدرسة إجازة مدتها عشرة أو إثنى عشر يوما . وكنت قد تلقيت رسالة قبلها من أم وديع ، بأن الطفل ،

وعمره يومئـذ نحـو أربعـة أعـوام وأشـهر يُلـحُّ فـي السـؤال عني ، وكان متعلقا بـي ، وتلـك عـادة أعرفهـا ، فقـد كـان يصحبنـي إلـى مكتـب المجلـة .. فـي المسـاء ، والمكتـب قريـب من السـكن ، فنـنزل بـالمصعد ، وحيـن نكـون فـي الشارع يتوقف عن السير .. ويلتصق بـالجدار ، فهـو يريـد أن أحمله ، ولايريد أن يمشى ، وهو دلـع الطفولـة ، وكـان جميلا في طفولته ، فكنت أضطر إلى حمله إلى المكتب . ولما يطول السهر أيام مجيء الكـاديكى إلينـا حاجـا ، كـان يحرك وديعا للعودة إلى المنزل ، بل في بعض الأحيان كمـا قال لى .. يستعمل الدبوس ، ليصيح الطفل ، ويعلن العـودة .. إلى المنزل ، والعمل الصحافى لاينتهى ، ولا يعرف وقتـا محددا للعمل.

ويوم سافرت إلى لندن من بنغازى وتفضل أخي الأستاذ يحى توفيق بحملى إلى المطـار ومعـى وديـع ، وحيـن قبلتـه مودعا قام بدور عصبي يهز ، حتى أغمـى عليـه ، فتـأثرت ، وكتبت قصيدة ، أثّرت في أخي يحيى .. كما قال لـي فيمـا بعد ، لانها كانت تعبيرا عن حالة ، وشعورا متدفقـا ، مـرده ذلك الموقف من الطفل وتعلقه بى.

قررت العودة إلى بنغازى ، ولـم يمض عليَّ في الدراسة

أكثر من أسبوعين ، ولما عدت .. كان رد الفعل ، من جراء تعلق وديع بى ، وتمسك والدته كذلك وأنه في إمكانى أن أدرس في ليبيا في المجلس البريطانى ، فثبط عزمى عن السفر ، والحق أن الوحدة في بريطانيا ، وربما في بدايتها صعبة وثقيلة على النفس ، وأنا قد أحسست بضباب في عينى ، ربما أن مناخ لندن لم يلائم البصر.

وكان القرار .. الذى لاخيار فيه البقاء في ليبيا ، واخترنا طرابلس للاقامة ، لانها أكبر من بنغازى ، وسكنانا بالايجارة .. فالحال سواء هنا أو هناك[٢٣] .والماء في بنغازى ملح ، صعب شربه ، والماء المستورد غال ومكلف . وانتقلنا إلى طرابلس ، وتعرفت على رجل انجليزى مهندس في قوى الأمن ، واتفقت معه أن يدرسني الانجليزية .. خمسة أيام في الأسبوع ، بأجر ربما كان خمسين دينارا ليبيا في الشهر ، أو أربعين ، وهو ما يعادل خمسمائة ريال ، وقد كنت أُرخص المال في سبيل التعليم ، رغم أنى لا أملك منه إلا القليل في كل الاحوال ، ولكنى خلال إصدارى لصحيفة – الرائد – وكنت أعمل كل شيء مع صحبى ، الفرشوطى وصدقة ، والشيخ ابى تراب يصحح المقالات لقاء (١٥٠) مائة وخمسين ريالا

في الشهر ، وليس ثمة مصروفات..سوى أجور الطباعة وإيجارة المكتب وراتب جمعان والكهرباء والماء والنثريات ، ولم تكن الحال لتسمح بدفع مكافآت للكاتبين ، ماعدا أمين سالم رويحي والأستاذ محمد حسين زيدان ، أما الآخرون فكانوا لايسألون . لذلك .. أتيح لي بناء فيلا متواضعة في الشرفية ، خلال عام "١٣٨١" هـ ، كلفتني مع أرضها نحو"٦٠,٠٠٠" ستين ألف ريال أو خمسة وستين ، وقد بعتها .. بخمسة وسبعين ، حين غادرت جدة ، متعاقدا مع الخارجية .. لأعمل في السفارة السعودية بليبيا.

وحين ذهبت إلى لندن للدراسة ، لم يكن رصيدى الذى أحمله معى أكثر من ثمانمائة جنيه استرليني . وتركت لأهلى نفقة متواضعة ، وحين الاحتياج فإن الاخوة الفرشوطى وصدقة يحولان مما يتوفر من الدخل ، وأنا وهم على اتصال والبريد سريع يومئذ ، في خلال ثلاثة أيام يصل البريد إلى ليبيا ، ودون أسبوع إلى جدة . ولم يكن بهذه الكثافة والزحمة التى نشهدها اليوم !

وبقيت في طرابلس مع أسرتى أقرأ الانجليزية ، ولكن

التحصيل لم يكن في المستوى الذى كنت أطمح إليه . ولعل الذهن مشغول بالأسرة من جهة ، وبالصحيفة التى تركتها ورائى من جهة أخرى ، والصحافة مسؤولية ، ولكن السفينة كانت تمخر ، ووجود الأستاذ عارف قريبا من إدارة الصحيفة ، وإشراف الدكتور مناع .. أعان على المضى .. دون مشاكل أو إخلال ، ورئيس التحرير هو الرقيب على ما ينشر أو من ينيبه ، فقد انتهت الرقابة المسبقة على المواد التيتنشر في الصحف ، منذ أن كان الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله .. وليا للعهد ورئيسا لمجلس الوزراء ، وذلك بتاريخ ٢٩/٧/١٣٧٩هـ[٢٤].

• • •

وعدت إلى جدة قبل انتهاء إجازة الستة أشهر لأجددها بستة أخر ، والنظام يسمح بذلك ، ولعلى أخذت إجازة من مستحقاتى مدة شهرين . ولست اليوم متأكدا من ذلك.

وأصدرت الدولة أمرها بتاريخ ٢٤ شعبان ١٣٨٣هـ ، الموافق١٣/١/١٩٦٤م . والعامة في برقة تقول : قصير أي شعبان – نفضة خُصيّر – أي أن أيامه سريعة ..

الانقضاء ، شبه قصره بنفض حصير . وكانوا حين يكون شهر حصاد الحبوب يجدُّون فيه لاكمال الحصاد قبل حلول رمضان ، ويدرس على - آلة - النورج ويذرى . وكانت النسوة اللاتي يُردن الغلة يأخذن من وراء الحصّادة الذين يستعملون المنجل حين تكون سوق الحبوب طويلة ، أما حين تكون قصيرة ، فإنهم يستعملون أيديهم بلا مناجل . وتدق المرأة السنابل بالميجنة ، لفصل الحبوب عن التبن والقش ، ثم ينفخنها في طبق صنع من السعف ، وبعد ذلك يطحنّه على الرحى ، ويدندن بكلمات اشبه بحداء مرافق الابل في السفر .. لتنشط وتسير بسرعة ، يدندن النساء في حب الولد والأخ ، كتسلية لانجاز العمل وقضاء الوقت . والطحن والرحى مجهد ومتعب ، وحين تكون الرحى كبيرة يتقابل أمرأتان ، للسرعة وتخفيف العبء وهن يحاحين في نشاط متصل . ويردد قائلهم صدى الشكوى من الرحى .. فيقول :

يريد أجر جاه ذنوب التاجر اللّى جاب الرحى

• • •

أصدرت الدولة أمرها بإحالة الصحف التى تصدر في

البلاد إلى مؤسسات صحافية ، وقد استثنى مجلة المنهل وقافلة الزيت والحكومية بالطبع ، كمجلة الحج والاذاعة إلخ . وأُعطيت الصحف مهلة لا تزيد عن ثلاثة أشهر ، تتوقف بعدها الصحيفة التي لاتتحول إلى مؤسسة ، برفض الدولة لها أو عدم قيام مالكها بذلك . وقمت مثل غيرى بتكوين مؤسسة صحافية ، اخترت لها الأسماء التى تتعامل وتكتب عندى ، وأرسلت ذلك إلى وزارة الاعلام ، وكان على رأسها يومئذ .. الأستاذ جميل الحجيلان .كما قدمت لمصلحة الجمارك طلبا باعطائى ستة أشهر أخرى .. إجازة من غير مرتب ، وعدت إلى طرابلس أرقب مايتم ويبرم!

وجاءتنى برقية من الفرشوطى في شهر رمضان تقول إن وزارة الاعلام تطلب بيانا باعضاء آخرين غير الذين اخترت . وأذكر أن الوزارة تمارس حذف من ترى من الأسماء المختارة أعضاء في هذه المؤسسات .. واضافة أسماء من عندها بديلة . وأنا لم أعامل على هذا النحو . وقد أدركت أن هذا التوجه .. هو رفض لطلبى ، وتوقفت الرائد بتاريخ ١٣٨٣/١١/٢٩هـ . وقريش رأى صاحبها الأستاذ أحمد السباعى أن يريح نفسه .. فلم يسع إلى إنشاء مؤسسة صحافية كغيره ، وقد أحسن صنعاً .

وكتبت في العدد قبل الاخير مقالة في الرائد عنوانها :
"ونودع" ثم دخلت التاريخ بما لها وما عليها . وأنا واثق ،
وأتحدث من موقع المسؤولية .. أن الرائد لها .. وليس
عليها . ويكفى موقفها يوم المعركة غير المتكافئة مع نظام
الرئيس جمال عبد الناصر وإعلامه . وهذا واجب يؤدى بلا
منٍّ . والصحافة وأصحابها لم يكافأوا على مواقفهم .. يوم
توقفت صحفهم . وفى سبيل الوطن والواجب ، يهون
الشيء الكثير ، ولا شكر على واجب .. كما يقال .

• • •

عدت إلى بنغازى من طرابلس ، وكان لي قطعة
أرض .. ورثتها عن والدى رحمه الله ، تبلغ مساحتها
نحو"٥٠٠"م .. أما قطعة الأرض التى ورثتها من أخىلأبى ،
حيث كتب لي الثلث مما يملك ، وتلكأ ، أخوه منصور فى
ذلك ، لأن الوصية لم تكن مكتوبة ، ولعله راقب ربه ..
فبرأ ذمته ، وقد بعت ماورثت من أخي بمائة الف ليرة
إيطالية ، أنفقتها على والدتي وعلى نفسي .. أيام الحرب
والمجاعة والكرب .

أما قطعة الأرض التى ورثتها من والدى فقررت بناءها ،

وحولت ما عندى من نقود فـي جـدة ، وعلـى الاصـح وأنـا أحمل نفسى على الصدق ولاشيء غير الصـدق ، اشتريت عملة ليبيـة مـن الأخ سـعيد محمـد علـى العـامودى .. ممـا يحضره معهم الحجاج الليبيـون ، وأخـذت معـى ذلـك إلـى بنغازى ، وكان الجنيـه يومئـذ يسـاوى فـي بلـده نحـو اثنـى عشـر ريـالا ونصفـا ، وفـى السـوق .. ربمـا نحــو التسـعة ريالات ، وقد اشتريت نحو عشرة الاف جنيه ، وبدأت فـي بنـاء أرضـى . بعـد استـخراج ترخيـص بذلـك ، ولـم أجــد اعتراضـا ولا صعوبـة فـي ذلـك ، فقـد تيسـرت الأمـور .. بوسـاطة المعـارف والأصدقـاء . وتـم البنـاء خـلال عـام ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ، فانشأت مبنى مـن دوريـن ، فـي كـل دور شقتان ، وفى الركن جراج ، وفـى ركـن أخـر دكـان ، وسكنت وأسرتى في شـقة ، وبـدأت أؤجـر الشـقق الثـلاث الأخرى ، كما أجرت الدكان . وكانت ايجارة الشقة نحـو ٣٠ ، ٣٥ جنيها في الشهر ، والدكان بـ (١٠) جنيهـات . أما الجراج فاتخذته مخزنا ولم أؤجره . غير أن تلك البنايـة قد أُخذت أو صُودرت ، رغم أني بنيتهـا بمـالي الخـاص .. وأرضها ميراث من الآباء والأجداد ، صودرت مع ما صودر مـن أمـلاك المواطنين .. بذلـك القـرار الـذي صـــدر عـام

(١٩٧٨م) الذي يعلن أن "البيت لساكنه" ، وعند الله لا يضيع شيء ، وعنده سبحانه يجتمع الخصوم ، لأنه لا يظلم أحداً ، مع أن المُصادر مؤجر ويدخل ريعه لخزينة الدولة هناك !

وفى شهر ربيع الآخر .. كما أذكر بعد انتهاء أزمة الرائد ، والفضل لله ثم لجلالة الملك خالد بن عبد العزيز يرحمه الله وكان يومئذ وليا للعهد ، ولسمو الامير عبد الله الفيصل بن عبد العزيز ، وللشيخ حسونة البسطى رحمه الله .. عدت إلى جدة . فصدر أمر سمو ولى العهد بإعادتى إلى وظيفتى في الجمارك ، وكانت الجمارك قد طوت قيدى كما يقال ، وصفيت لي حقوقى عن خدماتى فيها ، تسلمتها من مالية جدة .. قرابة تسعة آلاف ريال سعودى . وبدأت عملى في قسم المانفست ، ثم استقلت بعد نحو سبعة أشهر من عودتى ، وقد شرحت أسباب استقالتى .. خلال حديثى عن الشيخ حسونة البسطى ، في تلك الورقات .. التى أسميتها : "هؤلاء عرفت" أما أهلى فقد أبقيتهم في بنغازى في البيت الذى بنيت حتى يستقر وضعى .. سلبا أم ايجابا ، وكانت استقالتى يوم ١٣٨٦/١/١٠هـ وبقيت بدون عمل .. حتى تعاقدت مع

الخارجية لأعود إلى أسرتي مرة أخرى ، حيث عملت في القنصلية ، في بنغازى .. مع الأخ طلعت ناظر رحمه الله ؛ وفي حديثي عن هذا الرجل .. التفاصيل عن هذا التعاقد .. الذي استمر..أكثر من أربع سنوات[٢٥].

• • •

في رمضان ١٣٨٥هـ أخذت إجازة مرضية ، وحجزت بالطائرة المصرية جدة – القاهرة – بنغازى ، لانه لا توجد يومئذ رحلة مباشرة من جدة إلى ليبيا . وهبطت بنا الطائرة في القاهرة ، وبقيت في صالة الترانزيت بعض الوقت ، ثم عنَّ لي أن أسأل من باب التأكد عن رحلتنا المسائية إلى بنغازى ، لا سيما وأنا صائم ، ولم أتعود الإفطار في رمضان في سفرى الجوى البتة . وحين سألت إحدى موظفات – مصر للطيران – عما بدا لي سألتنى : هل ذهبت إلى الجوازات؟ قلت ما شأني والجوازات .. وأنا مسافر – عابراً ؟ – قالت لابد من ذلك . فذهبت إلى مسؤول الجوازات ، وأظن أنه كان برتبة رائد ، وغاب بجوازى في الغرفة "المظلمة" نحو نصف ساعة ، فأدركت أن في الأمر مشكلة ، وفسرتها بكتاباتي .. قبل ثلاث سنوات ، إثر خلافات بلدى مع جمال عبد الناصر ، وأن اسمي لابد أنه

باق في القائمة – السوداء – ، ولم يلغ منها . وخرج مسؤول الجوازات ليقول لي: إذهب مع العسكرى إلخ[٢٦] . وبقيت تحت الحراسة حتى إقلاع طائرتى.

• • •

وفى صيف١٣٨٩هـ-١٩٦٩م ، أخذت أسرتى بسيارتى – البيجو – إلى مصر ، ومنها بحرا إلى بيروت ، فالي دمشق ، حيث ابنة خالي ، زوج محمد العالم ، وهى سورية الجنسية.

فى سفرنا من بنغازى .. نقصد الشام عن طريق الاسكندرية بحرا إلى بيروت ثم دمشق برا . نزلنا في فندق ، وعددنا ثمانية ، ومعنا عفشنا ، وكان مع أم الاولاد ماكينة خياطة سنجر ، وحين وصلنا السلوم – الحدود المصرية – سجل موظف الجمرك في آخر جواز سفرى ماكينة الخياطة ، حتى لا أبيعها في مصر ، كأنني تاجر ، وهذا إجراء سخيف وتمحك ، يمارسه جهاز الجمارك في مصر .. منذ زمن ، ولم يتحول عنه ، كأن كل الناس تجّار ، وكل قادم غير أمين ، وهو يرى أسرة مسافرة ، هل جاءت لتبيع ماكينة خياطة يدوية ؟ إنه قصر نظر وضيق

أفق ، ما أجدر الموظف الجمركى في مصر أن يتخلص منهما ويرتفع إلى مستوى الامم الراقية ، ولا أزيد !

وحملنا عفشنا يوم سافرنا .. بسيارتى تاكسي .. نريد ميناء الاسكندرية البحرى ، وقدرت عامل الفندق..لقاء خدمته بتحميل العفش ، ومضينا إلى الميناء . وحين تقدمنا إلى موظف الجمارك ، ولم يبق سوى ساعتين ونصف أو ثلاث على سفر الباخرة ، فحص جواز سفرنا .. ورأى تسجيل ماكينة الخياطة ، فقال : أين هى ؟ وفتشنا عنها في العفش .. فلم نجدها ، وتركت أهلى في الساحة،وعدت بسيارة أجرة إلى النزل ، وتوجهت لعامل الفندق .. أخبره أن ماكينة الخياطة لم تكن ضمن عفشنا . فقال ابق هنا ، ومضى إلى موقف سيارات الاجرة ومن لطف الله وعونه .. أن السيارتين اللتين نقلتانا ، عادتا إلى المحطة نفسها بجانب الفندق الذى كنا فيه . ولو كانتا وجدتا ركابا .. وتوجهتا إلى جهة ما ، لما وجدتهما ، ونظرت إلى عامل الفندق من بعيد .. وقد وصل إلى أحد صاحبى سيارة الاجرة ، وكأن عامل الفندق يدرك أين وضع ماكينة الخياطة ، وقال له – افتح شنطة السيارة –فقام السائق وفتحها ، وإذا بالماكينة فيها ، فأخذها وجاءنى بها .. وأنا

واقف قرب سيارة الاجرة التى جئت بها من الميناء فأخذتها وشكرته ، وكافأته بما يستحق على جهده وحيويته .

ولو لم نجد التكاسى والماكينة ، ما كنا لنتخلص من الجمرك ، وأول اتهام أننا بعنا ماكينة الخياطة ، وندخل في متيهة عن قيمتها وجمركها وسداده إلخ ، وإلا فلا سفر ، وربما إذا لم أكن إيجابيا .. بكل معنى هذه الكلمة ، فلن أسافر وأتعطل ، وأعود أدراجى إلى الاسكندرية ، وقد لاتنتهى المسألة بسهولة . وأنا لايهمنى ضياع ماكينة الخياطة ، وإنما الذى يهمنى التعطيل .. وقبله التهمة من موظفى الجمارك بتصرفى فيها، ولن يقبلوا منى صرفا ولا عدلا .!

وقد جربت الكثير من موظفى الجمارك وموظفاته .. فإن بعضهم عنده من الغرور والكبر مالا حد له ، وآخر تجربة في تونس ، خلال الأسبوع الاول من ديسمبر ١٩٩٤ ، فقد ارسل إليّ النادى كرتونا فيه (٢٥) نسخة من كتاب: " نظرية التلقى" الذى ترجمه الدكتور عز الدين إسماعيل ، وذهبت إلى "الديوانة" – الجمارك – بالإشعار الذى وصلنى والمسافة بعيدة ، فندفع أجرة تاكسى في المشوار نحو سبعة دينارات ، وهناك دخلت في دوامة ، منها طلب احضار رخصة توريد وفاتورة بالقيمة ، ثم إذن

من وزارة الثقافة بفسح الكتاب ، وحاولت أن اشرح لمديرة مصلحة الجمرك السيدة - سعاد - ، ولكنها لم تفعل شيئا . وقد قلت لها : هذا الكتاب أدبى ، وهو لبيت الحكمة والجامعة التونسية ، وبعض أساتذة الجامعة ، وإنى رئيس النادى الأدبى الثقافى بجدة ، وهذا جوازى ، وهذا كرت يحمل اسمى ، وعبثا حاولت ، وأخيرا قلت لها ما الرأى؟ هل هناك مسؤول أراجعه؟ فكتبت لي اسم السيد "عبد العزيز مرابط" - ومكتبه - في جانب من مطار قرطاج ، فأخذت سيارة أجرة وذهبت إليه ، فلم أجده في مكتبه ، وانتظرت دقائق فلم يأت ، وكان بجانب مكتبه مكتب فيه سيدة ، قلت لعلها سكرتيرته أو مديرة مكتبه ، فأقبلت إليها .. أسألها ، قالت: خلال عشر دقائق سيعود ، ثم سألتنى عن مهمتى أو مشكلتى فحدثتها ، وأخذت أوراقى تتصفحها ، وخلال ذلك دق جرس الهاتف ، كأنه يريد إحدى الموظفات ، فنادت على من يُنادى عليها .. فجاءت ووقفت تتحدث مع من على الهاتف ، ومسؤولة المكتب مدت لي أوراقى وخرجت ، كأنها لاتريد أن تسمع ما يدور بين زميلتها والمتحدث إليها ، وبقيت أنا مكانى جالسا على كرسى خشبى ، انتظر السيدة أن تنهى

مكالمتها لأمر ، لان المساحة ضيقة بين وقوفها والدولاب الذى خلفها .. فاستحيت أن أعبر حتى لا أضايقها ، وحين أكملت حديثها .. الذى ربما استغرق نحو سبع دقائق ، التفتت إليَّ .. كمن تأبط شرا لتسألنى بأسلوب غير مهذب: ماذا تعمل هنا، فأجبتها أريد المدير السيد عبد العزيز المرابط ، فقالت بحدة انتظره برا ، هنا ممنوع الجلوس . فقلت : ما أردت المرور من ورائك حتى لا أضايقك وأنت تتحدثين . فقالت : استأذن ومر . قلت ما جئت لأجلس هنا أو هناك ، ولكنى صاحب حاجة ، وجئت للسيدة في هذا المكتب أسأل عن المسؤول !

والحق أن هذه السيدة كانت بالمعنى المهذب – قليلة أدب – بكل معنى هذه الكلمة ، لانى لم آت إلى هذه المصلحة شحاذا ولا متسولا ، ولا يهمنى إذا عرفت أنني تونسى أو غير تونسى ، وأنا أتحدث عن التعامل الكريم . ولا أعتقد أن جل موظفي الجمارك بهذا الخلق ، لانى أرى نماذج في مطار – قرطاج – يتسمون بخلق دمث وأدب تعامل كريم ، يليق بتونس الجميلة وأهلها الكرام المحبين ، لأنهم فضلاء مهذبون وأوفياء.

• • •

ولقد قلت لموظف مسؤول في فندق الشرق ، الذى كنت فيه ضيفا على" الإلسكو" في تونس ، حين لم أجد أداة التلفاز .. الذى به أغير من قناة إلى أخرى ، وظللت أتابع هذا الموظف - كليلة - ، قلت له في خاتمة المطاف ، انظر فإن واجهة أي بلد هى : الجوازات ، والجمارك ، والتاكسى ، والنزل ، وعليها يقوّم القادم البلد الذى يحل به ، ولايليق بفندق أجرة المبيت به (٨٠) ثمانين دينارا ، وأظنه أربع نجوم ، أن يكون فيه جهاز تلفزة لايستطيع النزيل استعماله ، والأولى إذا لم يكن معه - الرموت كونترول - ، نقل التلفاز من الغرفة ، وهذا الحوار امتد حتى جاء نائب المدير - المناوب - ، وقد حاولت جاهدا أن أجده عبر الهاتف .. ولكنى لم أجد ردا من مكتبه ، وحين جاء وأنا أتحدث مع السيد كليلة ، قلت مفاجئا مقولة البهاء زُهير مع شيء من التعديل :

أخاطبه إذا "عجز" الرقيب

وأسأله الجواب فلا يجيب

أى أن هاتفك لا يرد عليه أحد ، وأخبرته بغياب - الرموت كونترول - من الحجرة . وكان السيد كليلة قد قال لى .. إن النزيل هو الذى يأخذ هذا الجهاز معه أو أخذه.

• • •

وجاء السيد – مرابط – مسؤول الجمارك ، وسبقتني إلى الباب سيدة فرنسية زوجها تونسى ، عنده مشكلة سلعة تجارية ، وقالت إنها كانت تنتظر مسؤول الجمارك قبلى ، فقدمتها عن نفسى ، وأخذت وقتا ربما ثلث ساعة ، وعقارب الساعة تقترب من الثانية عشرة ، فخشيت أن يغادر السيد المرابط مكتبه – توقفا لوجبة الغداء– ، وما أن خرجت حتى دلفتِ إلى الرجل ، وعنده رجل أخر .. لعله أحد منسوبى الجمارك ، وكان السيد – مرابط – يتحدث بالهاتف ، فسلمت وجلست ، وقدمت له نفسى ، فقال : ماهى مشكلتك ، فقلت (٢٥) نسخة من " نظرية التلقى" .. محجوزة في " الديوانة" ، ويقولون لابد من إذن من وزارة الثقافة فقال: نعم ، وهذا شيء أساسى ، فقلت: إنها ليست للتجارة ولكنها هدايا : للجامعة وبيت الحكمة وبعض أساتذة الجامعة ، فقال: لابد من إذن الثقافة ، قلت : هذا كتاب أدبى ، وليس من النوع الذى فيه مشاكل ، قال : أنت تعيد عليّ الكلام! قلت: لماذا لايكون لوزارة الثقافة – مندوب – لمدة ساعتين في اليوم .. من العاشرة إلى الثانية عشرة – مثلا – حتى يسهلوا أمور الناس ولا يعطلونها ، وتلك وصايا المسؤولين الكبار وأولي الأمر؟! فرد عليَّ :

قل لهم أنت . قلت أنا ضيف وعابر سبيل ، لكن أنت مسؤول تخاطب مسؤولين . وخرجت من عند الرجل خالى الوفاض ، كما يقول المثل . وندمت أنى طلبت إرسال كتب ، رغبة منى في مد الجسور بيننا وبين المثقفين .. في الوطن العربى . ولكن النظم أو اللوائح والجمود هى العائق . وكنت خلال تلك الفترة .. أذهب لمعرض الكتاب في "قصرالكرم" وأشرت لمسؤول الجمارك عنه ، فقال : إن الكتب دخلت بإذن وزارة الثقافة . وحسب مانشرت جريدة - الأنوار - الصادرة يوم الاحد ١٩٩٤/١١/٢٧ ، أن عدد الدور المشاركة في معرض الكتاب"٢٥٧" مائتان وسبع وخمسون ، وعدد العناوين المطروحة في المعرض .. في هذا العام "٥٥٥٤٢٠٠" خمسة ملايين وخمسمائة وأربعة وخمسون الفا ومائتان . فهل كل هذا الكم الضخم ، راقبته أو قرأته وزارة الثقافة الجليلة؟ ، أكثر من علامة استفهام ينبغى أن توضع أمام هذا التساؤل ؟

وسعيت إلى الأخ الكريم والصديق الحميم .. الدكتور عبد السلام المسدى ، وهو رجل محب وفى ، ذلك أنني لا أعرف أحدا في وزارة الثقافة . وحاولت أن أزورها مع

صديقي العزيز الدكتور حمادى صمود ، لكن شواغل الرجل حالت دون ذلك ، فأنا أريد أن اقول لهم ، أنني لست تاجر كتب ، ولكني اتعامل مع مثقفين ومفكرين في بلادهم ، وأريد أن اوصل إليهم إنتاج نادينا ، وليس أكثر من ذلك.

الدكتور المسدى ، كعادته .. كان سريع الاستجابة ، وكان اتصالي به ليلا ، وهو الرجل المثقف والوزير والسفير والأستاذ الجامعي . فسرعان ما هاتفني ، ليطلب إليَّ .. أن أتوجه في اليوم التالي .. الى السيدة "خديجة الحاجى" ، مديرة الآداب ، في وزارة الثقافة ، وحدد لي مكان مكتبها ، بقرب سوق – لافيات – وسط العاصمة ، والموعد بين : "الثامنة والنصف والتاسعة".

وأسرعت إلى السيدة الحاجى في الصباح الباكر .. مع صديقي المربي الفاضل الأستاذ المنجي بن زكرى ، فوجدناها .. لم تصل بعد ، فجلسنا في مكتب بعض الموظفين ، وأخذنا نتحدث عن الكتاب ومشاكله.

وحين جاءت السيدة .. وأُخبرتْ أنني من – طرف – الأستاذ المسدى ، دعتني لمكتبها وصاحبي ، واستقبلتنا استقبالا كريما ، وقالت إن الدكتور المسدى .. أستاذها ،

قرأت عليه في الجامعة ، وضيّفتنا بشاى . وأخذت أحادثها عن النادى الأدبى وإصداراته ، وعلامات وكتاب تونس .. المشاركين فيها ، ومد جسور ثقافية بيننا.

وحدثتها عن رقابة الكتب عندنا ، وأن المراقبين موجودون (٢٤) ساعة فى الميناءين خاصة الحوي ، وعلى الحدود البرية . وقلت : لماذا لا تنهج تونس هذا النهج .. لتيسر على الناس مرور الكتب المسموح دخولها بدون عناء.

وقلت لها .. إن الكتب الآتية من السعودية .. أفسحوها وعيونكم مغمضة ، لانا أحرص منكم .. في كل الأمور الرقابية . وقلت اعملوا للكتب المقبولة .. بها لوائح ، لتمر بدون تعطيل .. وراقبوا الجديد .

واستمعت إليَّ السيدة الكريمة .بإصغاء وانتباه وأدب ، ثم قالت لى: نحن جدد في هذه التجربة ، تعنى – الرقابة – . وأنتم سبقتمونا بزمن ، فنحتاج إلى وقت .. لتكون عندنا خبرتكم . ثم قالت لي إن رقابة الكتب عندهم تخضع للجنة تجتمع مرة في الأسبوع .. فى إدارتها ، ليعرض عليها ما يأتي للبلاد .

ولم أطل الحديث ، فهي مشغولة .. وأنا أريد إنهاء مهمتي ، وآخذ – نظرية التلقي– ، لأوزعه قبل أن أعود إلى جدة . وأفضلت مشكورة ، لأني جئتها من رجل له اسمه وصوته البعيد ، ففسحت لي كتابي ، وهي واثقة مما تعمل ، وتعرف محتوى الكتاب الأدبي ، وأخذت النسخة التي كانت في يدي ، لاني أحضرتها معي من جدة ، فسهلت المهمة ، وينفع الاحتياط دائما . وشكرتها وتوجهت إلى الجمارك .. قرب المطار لأتسلم كتابي ، بعد إجراءات شكلية ، أخذت نحو ساعة ، عدا مسافة الطريق ، ذهابا وايابا .. من حمام الانف إلى المطار ، نحو (٣٠) كيلا .

وقد ذكّرني ذلك كلّه بما يلح عليه المثقفون العرب من ضرورة تسهيل حركة الكتاب بين الدول العربية وتخفيف الاجراءات التي يمرّ بها وتأكيدهم أن من مقتضيات الوحدة الثقافية العربية أن يتحقّق التواصل بين أجزاء العالم العربي على مستوى حركة الكتاب ومشاركة المثقفين في كافة الفعاليات !!

وأعلن اليوم ، وأعلن دائما .. أنني لست ضد النظام ، ولكنني معه ، وأريد النظام المرن ، واللوائح .. التي تيسر

ولا تعسّر ، فأنت أصدر لوائحك وأنظمتك وسهل لي إجراءاتك ، وأنا أعبر الحدود ، أو يصلني بالبريد شيء ليس ممنوعا . وليس منطقا ، وليس مقبولا ولكنه شيء مرفوض .. في كل المقاييس ، وفى كل مكان ، حتى عند الأمم المتخلفة ، أن يصلك شيء يسير ، وانت لست تاجرا ، ولست مقيما ، وحين تراجع بالحسنى أن تتسلم شيئك اليسير ، ولا مانع أن تدفع عليه ضريبة إذا كان ذلك يستحق في أي عرف ، ولكن لايعقل أن يقال لك : هات رخصة توريد ، وهات فاتورة بالقيمة – هذا انغلاق – لاسيما في بلد سياحى مفتوح ، وأنا لا أعترض على الاحتياط ، ولكن سعة الافق وحسن التصرف مطلوبان في هذه الأمور ، والكتاب يقرأ من عنوانه . والدس موجود ، ولكن ليس منا . لذلك لابد من الاستثناء باقتناع . والأشياء يقاس بعضها على بعض كما يقال ، وأنا لا أريد أن أضرب المزيد من الأمثلة ، ويكفى أنى حدثت بها بعض الصديق ، حين تعطل الافراج عن هذا الكتاب . والجمارك عرفت المحتوى بفتح الكرتون واغلاقه ، فور وصوله ، بدليل أن الإشعار الذى وصلنى مذكور فيه اسم الكتاب ، والأصل أن السلعة لا تفتح إلا بحضور صاحبها ، والاحتياط للمحتوى

تكشفه الأجهزة الحديثة المتطورة !

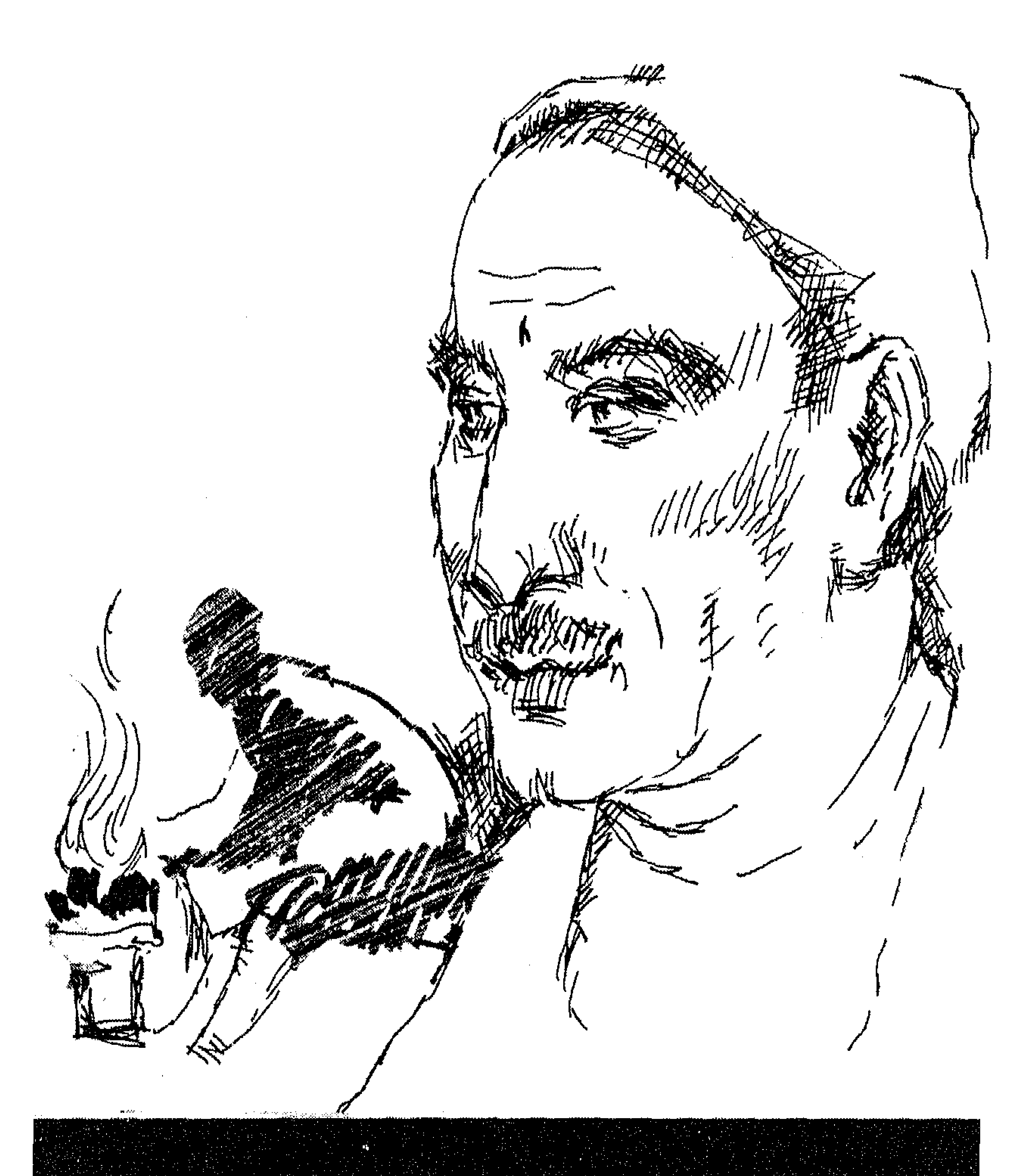
• • •

أعود بعد هذا الاستطراد .. الذى ربما طال ، عن الجمارك والثقافة وعقابيلها ، وهو حديث .. لعله ممل . أعود إلى الاسكندرية وجمركها ، وأنا أردد – مكره أخاك – عدت ومعى ماكينة الخياطة ، وأسرتى في انتظارى .. فى الحر وهم وقوف ، والتعب من الأطفال ، يجلس على "العفش" وتأكد موظف الجمارك من مصاحبة الماكينة لنا ، فسمح لنا بالمضى .. إلى الجوازات ، ثم صعودا إلى الباخرة . وتم ذلك بفضل من الله وتيسيره . والحق أن السفر مع كمشة من الذرية –صغارا – متعب ، لأن الأب ثم الأم يتحملان كل الأعباء ، وكل العناء ، ولكن لابد مما ليس منه بد ، وإذا توفر عند المرء شيء من المال .. يكفى لرحلة صيفية "مثلا" ، فلا يبخل على أهله.

وأذكر ونحن في البحر ، وكنت في "كابينة" ، وفى السرير الأعلى إحدى بناتى – النوسة – ، وهو اسم الدلع ، واسمها الحقيقى – سهير – ومع تمرجح الباخرة .. سقطت على أرضيتها ، وسمعت اصطدامها بالأرضية

فأفقت ولحقتها ، ولكنها .. والحمد لله لم تصب بسوء ، والطفل يمر عليه الكثير والله يحميه ، في الوقوع والسقوط والاذى .

• • •



الفصل الثامن

- ١ -

إلى سورية

وصلنا بيروت ، وتوجهنا فورا إلى الصديق .. السيد "سعيد سيمون" وهو معرفة ، تعرفت عليه مع الأخ عبد العزيز الفرشوطى ، وله مقهى .. في بناية ، بها "بانسيون" ومكاتب تجارية ، بالقرب من مسجد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، قريبا من ساحة البرج .. فاسكننا في فندق متواضع ، ولم نبق في بيروت أكثر من ثلاثة أيام ، ثم حزمنا أمرنا إلى الشام ، بسيارتنا" البيجو" عليها لوحة" هيئة سياسية" ، لانها كانت باسم القنصلية ، لكن القيمة من عندى ، فهى ملكى ، وحيث أنني لست موظفا "دبلوماسيا" وإنما متعاقد بألف ريال في الشهر ، فليس لي ولأمثالى من الحقوق التى ينالها الآخرون شيء ، ولكنى أحمد الله إليه ، فأنا قانع بمبدأ : "الغنى غنى النفس" . وليس كثرة العرض ، والراحة النفسية .. ألا تنظر إلى مافى أيدى الآخرين ، وكفاك ذلك زادا !؟.

توجهنا إلى دمشق ، ولأول مرة أذهب إلى هناك ، وعندى عنوان منزل الأخ محمد العالم ، رفيق الحج .. في

عام١٩٤٤م ، وقد توفى الرجل وترك رجالا خمسة وابنة واحدة ، وزوجه ابنة خالي.

وخرجنا من الحدود اللبنانية ودخلنا أو قل وصلنا إلى الحدود السورية ، وقرأت ذلك الشعار الكبير على بوابة "الجديدة": "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة" ولم أعلق عليه بشيء ، لأن الشعارات ليست مقاييس العمل والقول ! ودلفنا إلى الجمارك – عود على بدء – وقدمت أوراقى وأوراق السيارة .. وورقة أن هذه السيارة بذمتى من القنصلية إلخ . لكن موظفى الجمارك كعادتهم .. ترددوا في السماح للسيارة بالدخول إلى البلاد . وكنا في وقت افتتاح معرض دمشق الدولي ، وإن كان المشاركون فيه من الدول الشحاذة كما أصفها ، وهى الدول الاشتراكية في أوروبا ، ولايعنينى هذا . ووصلت إلى مدير الجمرك وهو فلان – الطرابلسى – ، وقلت له إننا في أيام المعرض الدولي ، ويسمح للناس من كل فج .. أن يدخلوا البلاد سيّاحا وبسياراتهم وأشيائهم ، ثم يعودون إلى بلادهم . وقلت ، كذلك ومن طبعى أنني لا أخاف حين أصل إلى الحدود ، حتى التى تحدث عنها السيد – غوار الطوشى – في مسرحيته الهادفة ، وما أكثر ما أتمثل بقول أبى الطيب :

والهجر أقتل لي مما أراقبه

أنا الغريق فما خوفي من البلل

قلت لمدير الجمرك ، وهو يشبه غيره – انيزة – وغطرسة ، كأنه الحاكم بأمره ، وتلك سمة بعض موظفي الجمارك في العالم العربي المجيد ، بتعبير رضا محمد لاري ، ولاسيما البعيدين عن السلطة ، على الحدود البعيدة ، ومثلهم موظفو الجوازات ، وسوف أتحدث إن شاء الله لاحقا عن السلوم في مصر.

قلت للسيد .. الطرابلسي ، أنا قرأت الشعار الكبير المعلق على هذه البوابة التي لم نعبر منها بعد .. إلى الشام ، فامنحنا بعضا مما في هذا الشعار ، لأن هذا الشعار ما علق عبثا ! وبعصبية بعد ما سمع مقولتي .. شرح على الورق: خمسة عشر يوما للسيارة ، فشكرته وانصرفت . ودخلنا دمشق الفيحاء ..كما شاء الله آمنين . مستعيداً الآية التي ذكرت عن مصر حين قالها يوسف عليه السلام..لآل يعقوب . وذهبنا إلى الشيخ محي الدين ، حيث منزل الاقرباء .. آل العالم ، فرحبوا بنا . وقضينا عندهم بياض يومنا وليلتنا ، وفي اليوم الثاني .. استأجر لنا الأخ رضوان محمد العالم منزلا أو شقة مفروشة ، غير بعيدة من بيتهم ،

في – الجسر الابيض – وانتقلنا إليها . وليلى ووديع بدءا الدراسة في المرحلة الابتدائية .. في طرابلس ثم في بنغازى ، ونحن – الآن – أي خلال سفرنا في اجازة الصيف .

• • •

وأذكر أنني قبل أن أبرح بنغازى في شهر يوليو ١٩٦٩م ، جاءت السيدة أم كلثوم وفرقتها الموسيقية ، وجاء الأستاذ محمد عبد الوهاب ، وكانوا في ضيافة السيد – عبد الله عابد السنوسى– وتعرّفت عليهم وغنت ام كلثوم في حفلتين ، اقيمتا في طرابلس وبنغازى ، حضرهما جمهور كبير ، وأذكر .. وهى تردد في ملعب البركة ببنغازى : ايه العمل وأنت الأمل ، فقال شاب بأعلى صوته : " اللىيعيش يشحت" ، فردت عليه : اخرس – وأحضر السيد عبد الله الصوالين والكراسى من مصر برا . والحفل بمناسبة مولد الملك إدريس ، وهو آخر احتفال في حياة الرجل ، ولعله لا يريده ولا يأبه لهذه الأمور . وقد عرفت السيد عبد الله بوساطة صديقى فضيلة الشيخ عبد المطلب صلاح .. من علماء الأزهر ، ومن بعثة الوعظ التى رايتها في بنغازى . والأيام قُلّب ، فقد كان السيد عبدالله

عابد ذا نفوذ بعيد وكبير وغني ، ورأيته مرة هابطاً من مكتب السعودية في شارع قصر النيل ، بعد ذلك المجد .. في ملابس متواضعة ، فلم أجسر على مقابلته ، وقد كان يأمر وينهي ، وتُقضى حاجاته .. وهو في مكتبه أو بيته ، فقلت : سبحان مغير الأحوال ، الذي بيده كل شيء ، والحياة عِبر لمن يعتبر ، ولكن كثيراً من الناس غافلون !. وتعرّفت على رجالها ، كما تعرّفت على أساتذة الجامعة الليبية من المصريين والليبيين . ومن المصريين الدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور عبد العال عطوه .. والدكتور زكى الدين شعبان وآخرون ، وكانت الجامعة تستقدم خيرة رجال العلم والدين والثقافة.

وتعرّفت بوساطة الأستاذ الكاديكى على الدكتور على ابن سليمان الساحلى ، وهو خريج بريطانيا في القانون ، وشغل منصب رئيس ديوان الملك محمد إدريس السنوسى، وقد رأيته في الديوان في طبرق، حين دعيت عام ١٩٦٢ إلى الاحتفال بمناسبة .. مرور عشرة أعوام على استقلال ليبيا ، ومثّل حكومة بلدى يومئذ الأستاذ إبراهيم السويل وكان وزير دولة للخارجية ، والدكتور مدحت شيخ الأرض سفيرنا بطرابلس ، وقابلت مع وفد بلادى

الملك إدريس ، وتقلب الدكتور الساحلى في عهد المملكة الليبية في عدة مناصب ، هي : نظارة العدل بولاية برقة ، ورئيس المجلس التنفيذي للولاية نفسها ، ثم وزير مواصلات ، ووزير مالية ، ووزير عدل ، ووزير خارجية ، ثم سفيراَ في بريطانيا ، ورئيس الديوان الملكي ، وسفيراً في إيطاليا ، ووزير الداخلية ، وتولى المحاماة والاستشارات القانونية ، وأخيراَ عضو هيئة التدريس في جامعة قريونس ببنغازي ، من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٦م . ونال الكثير من الوشاحات العظمى والنياشين مع الرصيعات .. من الطبقة الأولى ، من بلده ، ومن تونس والمغرب واليونان والصين وإيطاليا .

وعرفت أنه حين كان وزيرا للداخلية عام ١٩٦٧م ، واستقال خلال الحرب ضد اسرائيل .. كان ذلك نتيجة مشاكل ، لست في حل للحديث عنها ، وكلفه الملك إدريس عام ١٩٦٨م بتشكيل وزارة برئاسته ، ثم لظروف رآها الملك بعد توقيع المرسوم .. الذى لم ينشر بعد ، رأى تأجيل ذلك ، لاسباب أبلغها الدكتور الساحلى ، وتوطدت علاقتى مع الأستاذ الدكتور الساحلى ، وهو رجل عالم .. واسع الثقافة ، قوى الشخصية شجاع ، وفيّ ،

وصديق صديقه ، إلى جانب الكرم وطلاقة الوجه ، وخدمة من يقصده حتى وهو خارج السلطة ، محدث بارع ، حين يأخذ باطراف الحديث .. نتابعه ونستمتع بما يقول عن علم ودراية ، وحين تعرفه .. تريد أن تراه مرة ومرة ، لانه صاحب تجارب وعلاقات بالناس وخبرة بالاحداث ، ولا سيما السياسية ، ويهتم بالشعر الشعبى في وطنه دراسة وانشادا ، حتى إنه كان له برنامج في الاذاعة الليبية عن هذا الشعر وأصحابه من المشاهير .. الذين لا يشق لهم غبار ، وهو يحفظ من ذاك الشعر ويرويه بايقاعاته الدقيقة ، ويذكر مناسباته التى قيل فيها ، ويذكر الشعراء الذين عارضوا القصيدة أو القصائد . وفى عهد حكومة الثورة ، آثر الدكتور الساحلى أن يتفرغ للدرس في الجامعة ، وهو يحمل دكتوراه في القانون .. من جامعة لندن ، ودكتوراه في الآداب .. من جامعة البندقية ، ومازالت ذاكرته .. تردد الكثير مما وعت وتلم بالكثير مما حولها . وقد جاء معتمرا في عام ١٣٨٨هـ واهتمت به حكومتنا حيث أبلغت عن وصوله السفارة السعودية بليبيا كعادة سفاراتنا من منطلق التوجيه السامى للاهتمام بالكبار من الرجال ، وهو تقليد كريم .. يذكر فيشكر.

• • •

- ٣ -

في شهر أغسطس من عام ١٩٦٩م جاء الأخ الكاديكي ومعه أسرته ، أو قل بعضها زوجه وابنته الصغرى وسائق لسيارته أتى به من طرابلس اسمه" فوزى" جاءوا بحرا إلى اسطمبول ، وبعد أيام توجهوا إلى سوريا ، وهو رجل يحب السفر وقيادة السيارة لمسافات طوال ، فقد رأيته في امريكا .. يسافر بالسيارة يومين وثلاثة وأسبوعا . وفي بعض الأوقات من غير رفيق من ولاية إلى ولاية ، وأرجو أن يأتي الحديث لاحقا عنه في أمريكا.

جاءنا إلى الشام وبقى أياما ، ثم دعانى أن أصحبهم بالسيارة إلى تركيا ، وأنا رجل أحب السفر حتى ولو كان إلى الصحراء ، لان في السفر صحة ، ولعل حب السفر عدوى من خالى مصطفى بدر الدين رحمه الله .

تركت أهلى في رعاية الله ثم قريبى الأخ رضوان العالم ، ورحلت مع اختى وزوجها إلى تركيا ، عبر"رأس البسيط" ولولا كبر أسرتى لأخذتها معى ، ولكن ثمانية أمر غير سهل .

وحين خرجنا من الشام ووصلنا الحدود التركية ،

والسيارة كانت على أرضهم قبل أسبوع ، رفضوا دخولها إلا – بتذكرة سفر – لها "تريب تكت" ، فكان لابد من الرجوع إلى لبنان ، وهو البلد المفتوح .. الذى يمكن أن يتم فيه الحصول على رخصة عبور السيارة من بلد إلى بلد . وتركنى الأخ الكاديكى وزوجه وابنته في فندق متواضع .. في اللاذقية ، وانطلق مع فوزى إلى بيروت . ومن سوء الحظ فقد وصلها والاضراب والصخب على أشده نتيجة لحرق اليهود للمسجد الاقصى ، فعاد أدراجه إلينا ، والمسافة بعيدة والدنيا قيظ . وفى اليوم التالى من عودته ، وربما قد قيل له .. إنه يمكن الحصول على ذلك الترخيص من – حلب – الشهباء ، فقرر الانطلاق إليها ، وقررت معه ذلك ، لانى أريد رؤية هذه المدينة التاريخية العريقة ، فاسمها عندى يقترن باسم المتنبى وشعره القوى الرائع ، الذى كان يلقيه من تلك القلعة الشامخة ، التى سكنها سيف الدولة الحمدانى ، وحول المتنبى أعداؤه وحاسدوه ، وربما في مقدمتهم الشاعر قريب الامير ، أبو فراس الحمدانى ، وحوله كذلك المعجبون بشعره وإنشاده.

وصلنا إلى حلب بعد ساعات ، ولكن الحال فيها

كالحال في بيروت ، وليست مفتوحة كبيروت ، فحياتها أضيق وأبوابها أغلق ، بل أحكم إغلاقا ولو على الهواء.

ولا يعنينى هذا ، فقد كنت مشغولا بالمتنبى وزمانه ، هنا كان يجلس وكان ينشد شعره جالسا ، وهنا كان القوم في القلعة ، وأمامه كان الامير الحمدانى ، ورجال اللغة والنحو .. الذين كما يصفهم الشاعر : ويسهر الخلق جراها ويختصم" . وهو شاعر لايبالى ، لانه يعرف قيمته ، ولانه الأوحد في هذا الفن .. الذى يباهى به:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى

وأسمعت كلماتى من به صمم

وقوله:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى

إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

وقوله :

ومراد النفوس أصغر من أن

نتعادى فيه وأن نتفانى

غير أن الفتى يلاقى المنايا

كالحات ولايلاقى الهوانا

وقوله :

ولو ان الحياة تبقى لحي

لعددنا أضلنا الشجعانا

لست أريد أن أسبح مع هذا الشاعر الذى شغل الدنيا والناس منذ ألف ومائة سنة بشعره وذاته ، ولو تركت لنفسي هواها ، لملأت صفحات من الاستشهاد بشعره ، ولكنى لست مطالبا بذلك ، وإنما أنا أتحدث في هذه الورقات عن " أيامى " ، إذن لندع المتنبى وشعره ، للذين يدرسون ويبحثون وينقبون في لغته .. ألفاظا ونحوا وصرفا ومعاني وبلاغة ، ولنترك الشهباء ، لانها لم تقض لنا أربا ، وسوف نبقى حبيسى ذلك" البانسيون" التعس ، في ذلك الحر والرطوبة ، حتى تفرج الامور في بيروت ، من ذلك الكرب .. الذى يختلقه اليهود .. أعداء المؤمنين ، كما يعلن الكتاب العزيز . وكان في الامكان أن نذهب إلى رأس البسيط ، فهو بارد ومصيف جميل ، غير أن المسافة ستبعد عن المسافر إلى لبنان .. للحصول على إذن للسيارة ، وقريبى تمنى لو أنه لم يحضر السيارة معه .. مما لاقى من عناء . ولكنها اعانته على السفر الطويل والانتقال في حرية ، وهو يحمل على الاتراك ، ويعتبرهم متاخرين

ومعقدين ، ورؤوسهم منغلقة ، وأنا ألطف .. الجو ، وأقول : إن مع العسر يسرا.

وفرجت الحال ، وفتح لبنان أبوابه ، وللكاديكي أصدقاء فيه ، من العاملين في شركة - شل - وكان هو أحد كبار موظفيها في طرابلس ، وله صديق لبناني ، دائما يذكر اسمه ويلتقي به .. حين يذهب إلى بيروت ، إنّه - جورج سلستي - وقد أعانته شركة شل وربما سلستي في الحصول على - التريب تكت - وعاد الينا فرحا ، ونحن في ضيق من ذلك السجن الاضطراري والحر ، وميناء اللاذقية يومئذ .. لا حياة ولا حركة ، وإنما هو سكون مطبق ، فالاستيراد معطل ، وكل شيء متوقف . والاعتماد على لبنان ، وما يهرب إلى البلد ، ثم على ما ينتج محليا ، من الحبوب القليل ، والخضار والفواكه والماشية .. التي منها اللحوم ، وهكذا الحال ، وتعتبر البلاد رخيصة السلع في تلك الأيام .. بالقياس إلى غيرها من أرض الله . ودمشق عيشها رخي رضي ، والمرء يرتاح على أرضها ويهنأ فيها .. نوما وطيب إقامة وانتجاعا ، والشام بصورة عامة ، لا سيما حلب وحماة .. بلاد كريمة بأهلها الأوفياء اللطاف .. معشرا ومخالطة وتعاملا.

وانطلقنا ، وعبرنا الأراضي التركية برخصة السيارة ، وكنا ننزل قبل أن نمسى ، نبيت في الاسكندرون ، ثم في انقرا ، ونسوح فيها ، ونرى اهتمام الحكومة التركية بمصطفى أتاتورك ، الذى غير مجرى حياة الامة التركية المسلمة ، وجعلها دولة علمانية ، تلبس البرنيطة ، وتكتب من اليسار إلى اليمين ، وغير حالها ، وأبعدها عن إسلامها ، وجعل أمنها خوفا ، وعزها ذلا ، وهدم ذلك المجد المؤثل والتاريخ العظيم .. للامبراطورية العثمانية . ولست بصدد نقد مسار الحكم العثمانى ، وحرمان العرب من التعليم العربى وتخلفهم ، فهذا جانب آخر .. لاننكره وخطأ سجله على الاتراك التاريخ . ولست مع الذين يندفعون في أحكامهم ، فيصفون العثمانيين بأنهم مستعمرون ، لا يختلفون - ربما - في نظرهم عن المستعمر الغربى ، إلى غير ذلك .. من تلك المثالب التى يلحقونها بالدولة العثمانية المسلمة .. حين كانت تحكم البلاد العربية . ولست بصدد الحديث عنها .. لأنه ليس من شأنى ولا تخصصى ، وإنما أتحدث عن رحلة وسياحة عابرتين.

وصلنا إذن إلى اسطمبول ، وبعد أيام معدودة ، لاتزيد على الخمسة ، تركنى رفاقى واستقلوا باخرة مع سيارتهم

إلى طرابلس ، وكنت قد ابتعت تذكرة سفر بالطائرة إلى بيروت ، ومنها .. أذهب إلى أهلي بدمشق وحجزى كان يوم "٣١" أغسطس ١٩٦٩م . ولم أمكث بعد سفر أقاربى سوى يومين ، وسافرت ثالث يوم واستقللت سيارة أجرة حاولت إفهام سائقها ، أنني أريد مطار اسطمبول ، وقلت له بالانجليزية ذلك ، ولعله فهم غير ما قلت ، لذلك فقد حملنى إلى ميناء اسطمبول البحرى ، ففوجئت ، ولكن كان في الوقت سعة . وأخذت أشرح له وسيلة سفرى ، أي - الجو - . وأخيراً ، حملنى إلى المطار وأخذ أجره وانصرف . وقال لي سفيرنا في طرابلس بعد ذلك ، وهو يعرف تركيا ، إن اسم المطار - هواء ميدان - .

ودخلت ساحة السفر .. فرأيت أسراً عربية ، رجالا ونساء وأطفالا يحتسون البيرة ، لا فرق بين كبير وصغير ، فأحزننى ما رأيت . وقلت لنفسى .. إذا كان الكبار يريدون ذلك ، فلماذا وقد بلوا لايستترون ؟ وماذنب الأطفال يعلمون شرب المسكر بناتا وأولادا ، ليكبروا وتكبر معهم هذه الآفة؟ ماذنبهم ووزرهم على الآباء ، لأنهم رعاة ومسؤولون أمام الله عما في ذممهم من ابنائهم ذكورا وإناثا؟ ولاحول ولاقوة إلا بالله .

وصلت بيروت ، وتوجهت إلى الصديق – سعيد سيمون – ، فأنزلنى في البانسيون الذى في نفس المبنى الذى فيه مقهاه في "المرفأ" وطلب لي غدائى ، وسهرنا معا ، وذهبت لأنام ، وفى الصباح جئت إليه .. ليحضر لي الفطار اللذيذ ، فولا بالحمص وزيت الزيتون والمخلل ، وبراد الشاى بالنعناع ، وأشرب شيشة – العجمى – ، حيث لا يوجد – جراك – في لبنان . ونقل إلى .. أن انقلابا عسكريا وقع في ليبيا فجر الأول من سبتمبر اليوم –١٩٦٩م.

وأذكر وأنا في اسطمبول .. حين كنت والأستاذ الكاديكى نسير بسيارته أننا مررنا من منطقة على "الباسفور" فالتفت إلىّ وقال : فىذلك القصر على الجبل يسكن الملك إدريس السنوسى ، وقد جاء منذ شهر لقضاء الصيف هنا .

بعد يوم من وصولى إلى بيروت .. ذهبت إلى أهلى في الشام ، ولم أغب عنهم أكثر من أسبوعين أو نحوهما ، فوجدتهم بخير ، ومكثت معهم أياما حتى استتبت الأمور في ليبيا ، ثم استقللت سيارتى إلى بيروت ، وبحرا إلى

الاسكندرية وعدت إلى بنغازى .. حيـث مكـان عملى فـي القنصلية السعودية ، وسفيرنا .. كمـا أشـرت فـي موضـوع آخر من حديثى عمن عرفت ، هـو الأسـتاذ عبـد المحسـن الزيد.

• • •

- ٣ -

وأريد وقفة .. قبل أن أغادر سوريا .. بشأن سيارتى التى سمح لها بخمسة عشر يوما . فقد سألت عن مدير الجمارك العام .. قبل انتهاء الخمسة عشر يوما ، حتى لا أتعرض للمؤاخذة ، فقيل لي إن نائب المدير العام .. هو الأستاذ عبدالرحمن الكواكبى ، فاستبشرت خيرا ، وسألت عن عنوان مكتبه وسعيت إليه ، فوجدته رجلا سمحا لطيفا ، وسألته عن قرابته للكاتب البعيد الصوت..الذى يحمل الاسم نفسه ، مؤلف : جمعية أم القرى وطبائع الاستبداد ، وغيرهما من تلك الكتب القيمة النادرة ، فقال: إنه جدى ، فزدت من السلام والثناء على جده ، فسر الرجل ، ثم ذكرت له حاجتى ! فقال "إن الحشيش والكوكايين والسيارات عندنا في منزلة واحدة" ، فلم أعجب مما سمعت ، ثم قال : نمنحك خمسة عشر يوما أخرى ، وإذا تأخرت بعدها ، فادفع ما يترتب على التأخير للجمارك .. عند مغادرتك الجديدة ، فشكرته على لطفه وعونه ، وأخذت منه مد المهلة .. وودعته ، وتأخرت فوق ذلك خمسة أيام ، ودفعت الجزاء ، وأنا عائد إلى بيروت ثم إلى

الإسكندرية ، ثم إلى بنغازى بسيارتى وكل شىء تم كما ينبغى بفضل الله وعونه.

• • •

وأريد أن أتوقف قليلا مادمت في ليبيا ، فخلال إقامتى الاولى قبل أن أتعاقد مع الخارجية ، كنت أراجع الخارجية الليبية ، وقد تعرفت من قبل على رجل فاضل صديق هو الأخ – حميدة الزليطنى – ، كان مدير المراسم في الخارجية ، فكنت أراجعه لمد إقامتى ، وكان يكتب رسالة بذلك لمدير عام المهاجرة في طرابلس ، وهو رجل ربما يحمل رتبة عقيد أو نحوها –أبيض – بلغة الاضداد اسمه : "محمد الزنتوتى" . وأذكر أنني جئته مرة .. ووقفت أمام مكتبه مدة نحو ثلاثة ارباع الساعة ، ومعى آخرون ، ولم يسمح لنا بالدخول لان الرجل كما قيل لنا مشغول . وبعد هذا الانتظار ، فإذا بهذا الانشغال .. مع فتاتين جميلتين إيطاليتين ، فقلت في نفسى: لا حول ولا قوة إلا بالله . وحين دخلت إليه برسالة الخارجية ، واطلع على جواز سفرى ، قال لى: إن اقامتك غير قانونية! : ولم أعلق بشىء ، ولو لم اكن في ذلك الظرف الصعب ، والأولاد مجبنة كما يقولون ، لقلت له ولا أخاف: يسعنى ما يسع

هاتين الفتاتين الجميلتين وأمثالهما .. من اليهود مثل "بدوسة"[٢٧] وغيرهم . غير أن الحال يعلم بها الله ، ومن حولى من الأهل والصديق في السفارة.

تركت أهلى في الشام حتى أرى استقرار وضعى ، وقد سعى معى الأخ رضوان العالم شكر الله فضله .. إلى الحاق الأبناء بالمدارس السورية .. وتقويم مستواهم وتذللت الامور.

وصرت أزورهم كل شهر مرة ، حيث .. كانت رحلات جوية للخطوط السورية .. بين بنغازى ودمشق ، وكان القنصل الذى أنا معه يكتب لمدير الخطوط السورية رسالة لاركابى بتخفيض ٥٠٪ كما يعاملون الدبلوماسيين بصورة خاصة . وقنصلنا هو الأخ عبد الرحمن العقيل ، وكانت زوجه دمشقية . أما في عهد القنصل .. الأخ عبدالله بن الشيخ عمر برى ، فلم أكن أتمتع بهذا التخفيض ، ربما لاننا لاندرى ، لكن كان يتاح لي تحويل مرتبى إلى حيث أريد بموجب "شيك" ، وهذا كذلك عون لا أنكر جميله لأخى عبد الله برى . وله موقف كريم لا انساه ، فقد كنت أدرس الانجليزية في المجلس البريطانى.. ببنغازى ، والدراسة عشية إلى قبيل العشاء ،

وحدث أن كنت ذاهبا من القنصلية ، ولعله كان موسم حج، وهي في – الفويهات – عدة كيلومترات من وسط المدينة ، والقنصل الذى يحل في بنغازى ، يسكن في مقر القنصلية ، وجزء منها يشغله المكتب ، وحدث أن دققت رجلا كان راكبا دراجة ، حاول قطع الطريق دون أن يتأكد من خلوها من السيارت ، فدقته السيارة ، فوقع ، وتجمع الناس ، فحملته .. إلى مستشفى – الادفنتست – لاسعافه، ثم أُخذت إلى الشرطة للتحقيق معي .. عن الحادث ، فاتصلت بالأخ البرى ، فجاء مسرعا ، وقبل أن اطلق بكفالة القنصل ، تأكد رئيس قسم الشرطة من المستشفى أن الرجل المصدوم لا بأس به ، وأن به جراحاً يسيرة ، وقد تلقى العلاج وغادر المستشفى .

لكن الذى لا أنساه أن قريبا له ، هو جمعة بن عقيلة العريبى ، وهؤلاء القوم أصهارنا ، فالمجدوب العريبى متزوج امرأة .. من بيت – بومدين – ، ابنة خال أبى ، وله منها رجال ، هم السنوسى ، وكان عضوا في مجلس النواب ، وجبريل من الموظفين في الحكومة . وجمعة يعرفنى ، لأننا قريبان في السن ، ونسكن في حى واحد ، ووالده اشترى أرض بيته من أراضي الوالد ، شأن أقاربه

وغيرهم ، فجمعة اعترض على رئيس الشرطة .. كيف يخلي سبيلى حتى بكفالة القنصل ، والرجل المصدوم .. مازال دمه يقطر كما عبّر ، ولكن الضابط كان مقتنعا ، أولا أن المصاب قد غادر المستشفى سائرا على قدميه . وهو بخير ، ثم إن أمامه قنصل دولة مسؤول .. لو حدثت مضاعفات ، أو غاب أو سافر مرتكب الحادث . وغادرت مركز الشرطة ، ثم حملت مع بعض الأقارب إلى منزل الرجل خروفا ودقيقا وأرزا وسمنا .. كإرضاء واعتذار ، وهى عادة . وانتهت المسألة بسلام ، والحمد لله.

• • •

- ٤ -

لقد تعبت فأهلي وأولادى في بلد وأنا في بلد ، والمرتب غير مشجع ، ولا يكفيني كفرد .. فقررت الغاء التعاقد مع السفارة ، واستقلت ، ثم بعت سيارتى ، وأغلقت شقتى على عفشى ، وغادرت إلى دمشق ، والذى يذكر للشام فيشكر بمزيد من التقدير أنه لاتوجد مشكلة للاقامة .. كما هى الحال بالنسبة لنا في تونس ، وهذا امر يذكر فيشكر لهاتين الدولتين الشقيقتين ، ويقدر لهما إزاء المواطن من المملكة العربية السعودية ، ووكلت الفقي محمد عبد المجيد لرعاية عمارتى وتسلم ايجارة الشقق المؤجرة والدكان وحفظها لي .

وفي دمشق .. ونحن في عام ١٣٩١هـ قلت لأم وديع .. نريد أن نعود إلى بلادنا ، ولكنها رفضت ، ولعل الحياة في دمشق قد راقت لها ، وأنا قد اشتريت شقة صغيرة بنحو "٢٥٠٠٠" خمسة وعشرين الف ليرة في عام "١٣٩٠" باسمها ، فأخبرتها أنني سآخذ أبنائى معى إلى جدة ، ومنحتها مدة شهر أن تعود ، وإلا فإنها ستصبح على ذمة نفسها . لكنى لم أصحب أولادى معى .. حتى أهيىء

لهم سكنا وأفرشه أو أؤثثه ، وعدت إلى جدة ، واستأجرت شقة ذات حجرة واحدة في عمارة الاوقاف – وقف الباشا – في الدور السادس ، وفرشتها فرشا بسيطا . وجاءت الزوجة لتبقى معى أياما ، ثم عادت إلى دمشق بعد عشرة أيام ، والتحقت بإدارة مؤسسة عكاظ موظفا فيها[٢٨] .

وحين استقر عملى في عكاظ .. ذهبت إلى دمشق ، لاحاول مرة أخرى إعادة زوجي وأبنائى لنعيش معا .. تحت سقف واحد كما يقال ، غير أن أم وديع .. رفضت العودة ، فأخذت أبنائى وعدت إلى جدة في مطلع عام ١٣٩٢هـ قبل بدء العام الدراسى ، وقلت للزوجة .. إذا لم تعودى خلال ثلاثين يوما ، فإن العلاقة الزوجية تنتهى بيننا .

وسجلت أولادى في المدارس .. بناتا وأولادا ، بفضل الله ، ثم بعون أخي صالح أدهم . ومن الطريف أن صالحا سجل أحد البنات في مدرسة الأولاد ، ظنا منه أنها ذكر . ومضى الشهر ولم تعد أمهم ، فتم الانفصال .

ولقد دامت حياتنا الزوجية .. أكثر من ستة عشر خريفاً ، تحملت فيها الأم عناء الحمل والوضع والتربية ، والسهر الطويل ، والمعاناة في المرض المتجدد ، وكم من

الصبر عند كثير من الأمهات لا حدود له ؛ وكانت الحياة قاسية صعبة ، وتبقى وتظل أعباء الأم ثقيلة ، وحياتها عناء ، والوصاية بالأم .. تنطلقْ من منطق الحق والعدل ، وحقاً أن الجنة تحت أقدام الأمهات ، فهن صاحبات النصيب الأوفر من الجزاء ، لانهن صاحبات الجهد الأكبر والأتعب والأشق . ومكانة الأم لا يقاس عليها شيء في الحياة ، ويليها دور الأب ، الراعي والكادح والمُنْفِق ، وبذلك أو على ذلك .. تقوم الحياة ، مودة ورحمة .

ومرت علينا أيام قاسية ، لاسيما في رمضان ، وليلى أكبر الأبناء .. عمرها لا يؤهلها لإنجاز طعام صائمين ، وهى طالبة متعبة بدروسها ، ولعلها لم تتعلم الطهو . ولكنى صبرت وصابرت .. وليس من سبيل سوى الصبر . وجئت للاولاد بمربية ، أو قل خادمة من مصر .. ومرت الأيام ثقيلة ومضنية وصعبة ، لاسيما وأنا أعمل في إدارة عكاظ ، ثم في تحرير " العدد الأسبوعى" وأسهر إلى الصباح ليلة صدور العدد ، وأذهب إلى المطابع والمكتب من عشية الجمعة . ولقمة العيش مرة كما يقال ، ولكن الحياة تحد . والقناة الصلبة لا تلين للصدمات أو بالهين ، والشدة محك للرجل والمرأة معا ، وهى امتحان ، والامتحان في تمثله

قاس ، ولكنــه حيـن يطـول يكـون أقسـي وأمـض وأعنـف ، والعـزم لا يفلـه الحديـد ، والـذى يتلـو آيـات الصـبر يزيــد إيمانه ، لأن الصبر من الايمان .. ويستطيع أن يحتمـل وأن يقاوم . قال تعالى : "وبشر الصابرين" وقال لرسوله: "واصبر ومـا صـبرك إلا باللـه" . وقـال عـز سـلطانه:" إنمـا يوفّـى الصـابرون أجرهـم بغـير حسـاب" . وقـال سـبحانه: "ولمـن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور".

وتركت عكاظاً ، وقـد شـرحت فـي صفحـات "وتلـك الأيام" متاعبى وخروجى ، ذلك أن بعض الناس لايطـاقون ، وقد فرضتهم ظروف ليكونوا في منـاطق المسـؤولية ، حيـن يتخلى من يستحق أن يشغل تلك المراكز ، فيصل إليها مـن ليس أهلا لها .

• • •



الفصل التاسع

زواجي الثاني

أعلنت بمحدودية لبعض الصديق .. أنني أريد الزواج .. لأنى تعبت ، والرجل لايستطيع الاعتماد على بناته وأولاده حتى إن كبروا . وفتش لي ، ووجدت سيدة من المدينة ، لاداعي لذكر اسم أسرتها فخطبتها وطلبت صورتى ، وكانت تقيم مع أخوتها في جدة لكن لم أتلق ردا ، لا سلبا ولا إيجابا ، وأخبرت الابن العزيز مالك ناصر درار .. أن يبحث لي في البلد الطيب على مَنْ تقبلنى .. مع – كمشة الأولاد – ، فدلّنى على واحدة ، مدحها ، وقال إنه يعرف أخاها ، فقد كان زميله في المدرسة ، وجاءت شقيقتى الصغرى للحج . وحين ذهبت إلى المدينة أخبرت مالكا .. أن يحملها إلى ذلك البيت الذى دلنى عليه ففعل . وكريمتى أعرفها حريصة وذكية وعليمة بالنساء وبالحياة ، فينطبق عليها المثل السائر: "فأرسل حكيما ولا توصه" ، وجاءتنى فرحة ومعها صورة المرغوبة ، ووصفتها لى ، فاقتنعت بوجهة نظرها وخبرتها ، وتقدمت للخطبة . والذى عرفته فيما بعد من الزوجة .. أنها رفضت رجالا ، وأنها كرهتهم من تجربتها الأولى ، ومن فضل الله علىَّ ، فإني حين دخلت بيتها خاطبا .. وقعت موقع الرضا من الوالدة ،

وقد أحبنى قلبها كما قيل لي فيما بعد ، فذلــل ذلـك رفـض المخطوبة ، وتحقق الأمل والحمد لله وقبلت ، وأملك لـي شيخى القاضى .. محمد الحافظ بن موسى ، فيمطلع العـام أو قل فـي شـهر صفـر من عـام ١٣٩٦هـ . وتزوجنـا فـي المدينة .. وأقيم الفرح في مزرعة السيد حسن الشربتلى .. فـي قبـاء ، وذلـك مسـاء يـوم ١٣٩٦/٣/٢٩ ، ١٩٧٦/٣/٢٩م . والحمـد للـه علـى فضلـه ، وكـانت الزوجة التى أحلم بها ، تقوى وصلاحاً ووفاءً ، ويكفى أنهـا تحملت العبء الثقيل ، الذى لا يطيقه إلا أولو عزم ، وهـو مسؤولية ستة أولاد وبنات ، وهمهم كبير وثقيـل وصعـب . والمعيـن اللـه ، والأعمـال بالنيـات . فـاللهم عونـك . وقـد انسلخ من ارتباطنا الوثيق والحمد لله عشرون سنة هجرية .

وزوجـي لهـا بنـت مـن زوجهـا الأول .. وأنـا لـي أولادى .. وقـد شـاركت بجهدهـا ورعايتهـا فـي تربيتهـم ، ولعلى أخطأت حين حرمتها من الانجاب منى ، وليـس مـرد ذلك سـوى الحـرص لدفـع الشـحناء بيـن الأبنـاء مـن أميـن مختلفتين وأب واحد ، وليس غـير ذلـك مـا هدفـت إليـه ، وقد رضيت بما اقترحت ، وأرجو اللـه أن يسـامحنى ، وان يعوضهـا عـن تلـك الخسـارة .. كمـا أتصورهـا اليوم أجـرا

وعافية بدن ، على الصبر والاحتمال والاقتناع بما هدفت إليه وقبلت راضية ، وفى ظنى .. لو إنها لم ترض بما هدفت لتركت نفسها بلا مانع وأنجبت ، ويومئذ أصبح أمام أمر واقع ، شئت أم أبيت ، ولكنها لم تفعل ، وهى قادرة على الفعل ، والى الله ترجع الامور . وأؤكد أنني عوضتها ترحالا ووقوفا على حياة العالم .. في أمريكا وأوروبا ، وأتيح لها الاستمتاع بما لم يتح للكثير من القادرين ، بتلك الرحلات الطوال ، في صحبة يجللها الوئام والاحترام والحياة الكريمة ، وكله بفضل الله وتوفيقه وعونه ، فهو سبحانه ولى النعم . والحياة الهانئة الراضية الرخية ربح كبير في حياة البشر ، والاستقرار هدف ووئام ، وحسب اثنين أن يهنآ بحياتهما الخاصة .. في توافق وود وحنان ، وصدق الله القائل : "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" . وأنا مدين لهذه الزوجة الصالحة الفاضلة .. ديْناً لاحد له ، ولا يقابله شيء مهما قلت ومهما فعلت ، وأرجو الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .. أن يجعل صنيعها نحوى ونحو أولادى في ميزان حسناتها ، وأن يجزيها خير الجزاء إنه هو البر الرحيم ، والتعبير عن

وفائي ومشاعرى في تلك الكلمة التى نشرتها في زاويتى – موج – بجريدة اليوم ، بتاريخ ١٤١٥/٤/٤هـ وأثبتها هنا وفاء بوفاء ، ووداداً بوداد ، رداً لبعض الجميل ، ونحن نعبر أيام حياتنا في خير ، نحمد الله عليه ، ونشكره شكرا يليق بجلاله وكماله ، سبحانه لانحصى ثناء عليه ، ولكن هو كما أثنى على نفسه ، له حمد الشاكرين ، ونسأله جلت قدرته أن يجعلنا من القليل .

كلمات : همدت جذوة دفقها

" خلال تجوالى في سوق مدينة ، ميونخ الألمانية اعترانى هاجس كأنه يقول لي إنك تستمتع بالتجوال .. وشراء ماتريد من متاع الحياة وخلفك مريضة "قرينتى" ليست نائمة في دارها .. آمنة وليست كذلك على سرير في مستشفى .. تقاوم مايعتريها من الام وتتلقى العلاج والغذاء ، ولكنها بين مشارط الطبيب وهى غائبة عن الحياة ، وحين تستيقظ... سوف تبادرها آلام الجراحة فلا تهدأ حالها لساعة أو أكثر أو اقل .. إلا بشيء من خدر ومهدىء ، ثم حين يزول .. تعود إليها الآلام وهى لاتستطيع أن تتغدى .. إلا من خلال ذلك السائل المعلق

بسريرها .. خلال شريان الدم ، وهي لاتستطيع كذلك أن تنقلب ذات اليمين وذات الشمال .. كما هي حال الاصحاء الذين غفلوا في غمرة الحياة .. عن قيمة العافية وهي خير ما أُعطي الإنسان بعد اليقين .

انتابني ذلك الشعور .. وأنا أسير عبر تلك السلالم الكهربائية ، صاعدا وهابطا في تلك الأسواق العاجة بالبشر والمعروضات ، وكأنّ هاتفا قريبا يشبه ظلي يتابع خطواتي وفي داخل نفسي .. يؤنبني بما يشبه التوتر المتقد .

وكان الرد على ذلك السؤال الحائر : أن الهروب إلى السوق .. كسر لحدة الزمن البطيء ، والانتظار ثقيل وبطيء ومضنٍ ، فكيف به في حال تختلف نمطا لأنها ألم صعب ؟

ورد آخر على ذلك اللوم ووخز الضمير ، وهو أَنْ ليس لي من الأمر شيء ، فأنا قد أسلمتها إلى المستشفى .. قبل يوم ، بعد إجراءات طوال معقدة وانتظار خلو غرفة مستقلة ، امتد إلى اثنى عشر يوما ، ونحن نقيم في نزل غير بعيد من المستشفى الجامعي في ميونخ .

وغلب عليَّ الوجد ليلا .. وأنا عندها حتى إن

الكلمات اختنقت في صدرى ، ولو بحت بها .. لسبقها دمعى وانكمشت أمامها وأنا أتجلد حتى لا تحس بمزيد من الخوف ، لاسيما وهى في بلد لا يتكلم أهله غير لغتهم ، وقليل أولئك الذين يتكلمون الانجليزية ، وهى لا تحسن شيئا من هذه اللغات .

ولو كانت في بلدها .. لكان بجانبها أهلها وذووها يؤانسونها بسمرهم وأحاديثهم .. ليخففوا عنها الآلام والخوف . ولو كانت في بلد عربى .. لآنستها اللغة التى تعرفها بعض الايناس ، ولخفت عنها آلام الغربة .

لم أستطع أن اقول لها حتى كلمة "سلامتك" لأن الكلمة ستدركها حشرجة الاختناق ، فيظهر ضعفى أمامها ، وأنا الذى أزعم الشجاعة ، ولعلها لم تكن في كل الحالات . واكتفيت أو هو ما سهل على إخراجه : ربنا يطمئننا عليك ، وانصرفت .

وفى الصباح الباكر أي في الساعة السابعة .. وأنا عندها ، ولست مقيما معها ، ولكنى قريب منها جاءتها الممرضة .. تدعوها لارتداء ملابس المستشفى المعتادة ، استعدادا للذهاب إلى غرفة العمليات وقد أعنتها على ذلك ، وكنت في شيء من الاضطراب وأنا الذى أُجريت

لي أربع عمليات مختلفة . وعند الذين يمارسون العمل في المستشفيات .. فإن هذه الاجراءات شيء طبعي ، لا يخيف ، وإنما هو شيء عادي ، حتى إنه لا يهزهم ، ولا يشغلهم إلا أداؤه ، وإنجازه.

ورنّت كلمات الممرضة : بعد عشرين دقيقة .. سوف تتحول إلى ذلك " المعمل " المخيف ، وهي ليست عنيفة بالنسبة لي ، حيث ألفت أن أدلف إلى تلك الطريق .. أكثر من مرة ، ولكن هكذا كان شعورى .. وأنا مع مريضتي . وفي أقل من ثلث ساعة .. حان وقت الانتقال ، وسرت مع السرير السائر ودافعه إلى بوابة لايتجاوزها مثلي ، فقبلت جبينها وقلت سلامتك .. مرة واحدة فقط .

وحين أدركت أن الزمن سيكون ثقيلا وبطيئا .. بالنسبة لي في انتظار خروجها بين الصحو والغياب ، مضيت إلى السوق عبر مترو الانفاق لاتخلص من عناء الانتظار . وقلت .. وأنا أحدّث نفسي : ساعود إن شاء الله فاجدها قد أعيدت إلى غرفتها وتم كل شيء بسلام .. بفضل الله .

وعدت في الثانية عشرة والنصف ظهرا فوجدتها أمامي .. وهي بخير ففرحت وحمدت الله إليه على فضله ومنّه .

غير أن رؤيتها .. وسريان الاطمئنان إلى نفسي قد أخفت حرارة ووقد تلك المشاعر الجياشة .. التي أحسست بها وأنا في الاسواق ، ولو أنني اقتعدت في مقهى أو زاوية وبيدي قرطاس .. أطبع عليه ما ساورني من حس . وسرحت بخيالي مع انثيال تلك المشاعر ، وكأني أؤنب نفسي على خطأ ارتكبت .. وأقارن حالي بحالها وشتّان ماهما . لو فعلت ذلك .. لكانت هذه الكلمة أكثر تأثيرا وأكثر إثارة . لقد كنت أتألم بدافع ذلك الشعور الداخلي وكأني أنا المريض .. بل أكثر من ذلك ، لانها المرة الاولى في حياتنا .. التي نضطر فيها إلى الوصول إلى تلك الحال ، بعيدا عن الوطن وعن الأرض العربية ، وأرجو أن تكون الاخيرة . أعني مرضها ونومها وحيدة في المستشفى ، لكنها كانت شجاعة ، وكانت ذات عزم وصبر وتماسك ، ولم أر عليها الخوف ، بل أنا الخائف عليها !

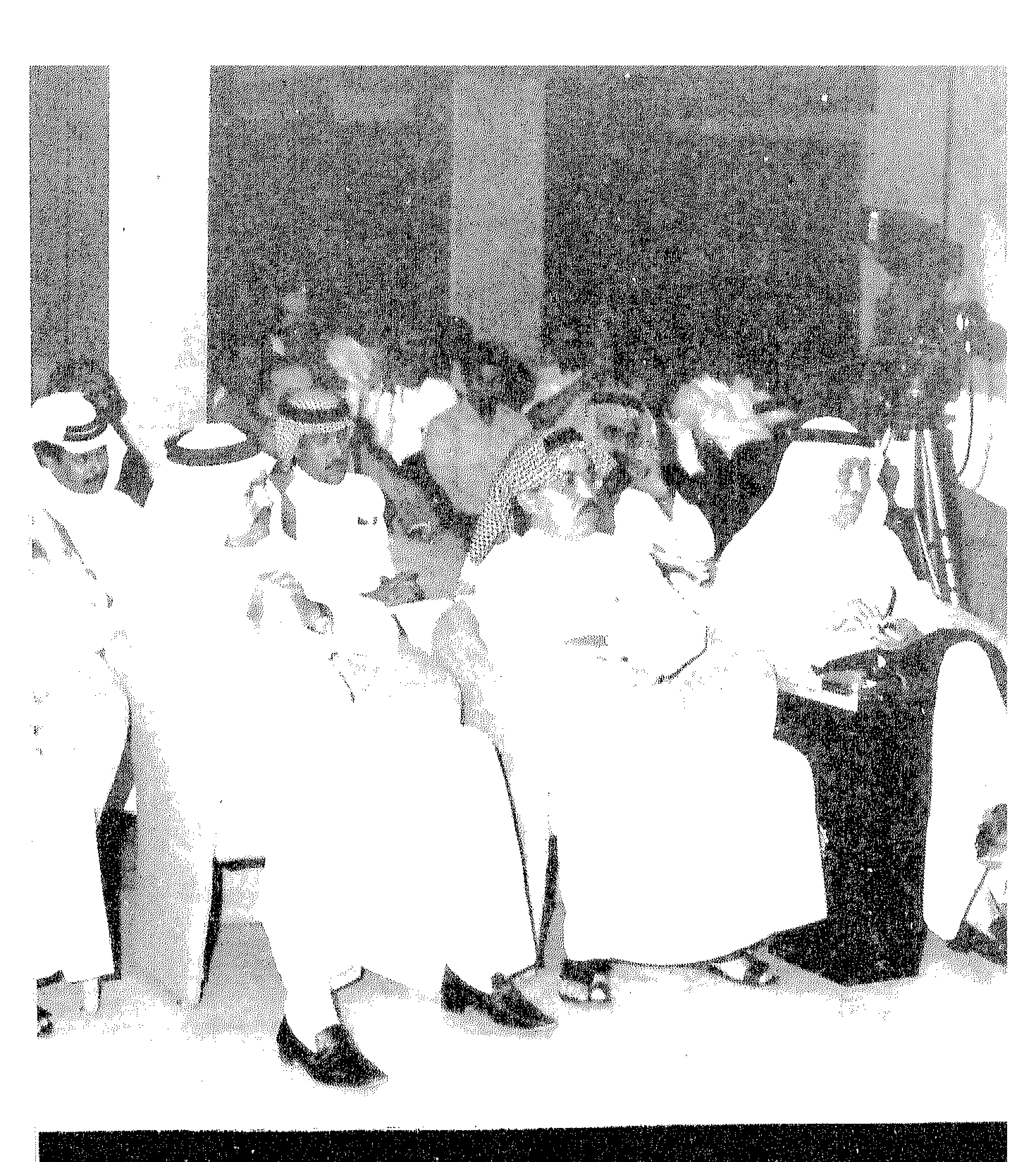
كم كنت أود .. لو أنني سطرت كلماتي .. خلال ذلك الاحساس الدافق بتلك المشاعر الجيّاشة ، لربما كان تأثيرها أقوى وأعمق في نفس من يقرؤها ، ذلك أن سمة المرء في الحياة شعور ، ولبقيت الشفافية وتدفق المشاعر المضطربة في النفس .. ذات اشتعال مباشر مفرط في

الاثارة ، لانه غير متصنع وغير متكلف ، ولكنه صادق كل الصدق ، ومخلص كل الاخلاص ، أوهكذا أتصور.

ولعل الحرص على العودة مبكرا .. إلى المستشفى للاطمئنان لم يتح لي تسجيل الكلمات التى كانت .. تتأجج في النفس . وندمت حين اطمأننت ، لانى لم أكتب ما انداح في نفسى من انفعال .. قبل الرؤية .. التى افضت إلى همود المشاعر والاحاسيس ، أو قل اطمئنانها وذهاب الدفق الشعورى عندى .

هدأت النفس وهمدت جذوة الإثارة .. التى كانت ستحدثها الكلمات لو كتبت وقت دفقها ، وكأنها صادرة من بركان . ومهما يكن من شىء فإني أحمد الله إليه .. على فضله ومنّه وعونه ويسره .. بعد العسر إنه هو البر الرحيم" .

• • •



الفصل العاشر

فى النادى الأدبى الثقافى

أنا من المؤسسين لهذا النادى حين أُذن له أن يكون ، وذلك في متنزه كيلو (١٠) بطريق مكة ، منذ عام "١٣٩٥" ، واختيار الأستاذين الكبيرين : محمد حسن عواد وعزيز ضياء رئيسا ونائب رئيس ، وهما .. طالبا الاذن بتكوين النادى ، وصدور الموافقة السامية إليهما بذلك ، ثم أعضاء مجلس الإدارة عند التكوين . وهم مع حفظ الالقاب : حسن عبد الله القرشي ، محمودعارف ، عبد الفتاح أبومدين ، محمد على مغربى ، عبد الله الحصين .

غير أن بقائى في النادى لم يدم ، لخلاف وقع بين رئيسه يومئذ وبينى ، وكان الأستاذ عزيز شبه بعيد عن النادى ، ولست في حِلٍ أن أسجل تفسيرا لذلك البعد ، ربما لمعرفته بطباع الأستاذ العواد ، ولايريد الدخول في صدام معه ، وربما غير ذلك .

وأوجز أمر الخلاف ، فهو قد بدأ بتصرف .. لا يليق بمكانة العواد ولا بى ، فالرجل ليس صغيرا ، وأنا لست صغيراً! وذات مرة مد لي بأوراق شراء – مايكرفونات –

من السادة رجب وسلسلة ، وكنت أشغل وظيفة أمين صندوق النادى ، والشيك الذى يصدر عن النادى لا بد أن يحمل توقيعي بجانب توقيع رئيس النادى ، والحال قائمة إلى اليوم ، حسب نص لائحة الاندية الأدبية ، والذى استغربته ، أن رئيس النادى حين دفع إلىَّ بتلك الاوراق لانهاء الموضوع الذى احتوته عن المايكرفونات ، وهو أمر يسير يحل بتفاهم ودى ، أن الأستاذ العواد يطلب إلىَّ أن أوقع بتسلم تلك الاوراق ، وهى لا تمثل شيئا خطيرا ولا تصرفا مرفوضا ، فرفضت التوقيع ، وقلت له: حل الأمر بنفسك ، لانى لم أكن المتصرف في الشراء ونحوه.

وزاد الخلاف .. حين كان رئيس النادى يكتب شيكات باسمه من أجل شراء أشياء للنادى ، أو دفع أثمان أشياء ، والأصل في هذا العمل الإدارى ، أن يكون الشيك باسم أمين الصندوق ، وما فيه من قيمة عهدة عليه ، يقدم أوراقا رسمية تحتوي على المشتريات وما إليها مسبقا ، إلى مجلس الإدارة أو رئيس النادى ، إذا كانت لا تحتاج إلى موافقة المجلس ، أو يكون الشيك باسم مَنْ اشتريت منه السلعة ، وغير ذلك من تعامل النادى المختلف الاهداف ، ولا وجه آخر .

وقعت مرة على شيك ، لانى لم أرد الدخول في صدام ، وأنا لا أتهم الرجل ، لكن العمل الادارى يفرض التنظيم الصحيح ، وأنا كشريك سأتحمل شطرا من المسؤولية .. أمام الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، إذا حدث خلل وأخطاء ، وأريد أن أحمي نفسي . ولا أريد تصعيد الموقف .. بالتحدث إلى اعضاء مجلس الإدارة ، أو الكتابة إلى الرئاسة ، لانى لا أريد جرح مشاعر أستاذ كبير رائد ، له تاريخه ومجده ، وأربأ بنفسي عن ذلك وأترفع أن أقع في صغائر . وإكبار الرجل يمنعنى أن أُعرّضه للشك – لاسمح الله – ولكنه الإجراء الادارى .. الذى ينبغي أن يتفهمه رئيس النادى قبلى ، وأن يصحح لي حين أخطىء في تصرف ما ، لا أن أكون المعترض على تصرف يمارسه هو ، وهو غير نظامي .

ولما تكررت الحال بكتابة شيكات باسم رئيس النادى للمصروفات ، رفضت التوقيع عليها .. بيني وبينه . وكتب إلى الرئاسة ، ولا أدري ماذا كتب ، وجاء الأستاذ أحمد فرح عقيلان .. ليقف على الحقيقة والملابسات ، منتدباً من سمو الرئيس العام لرعاية الشباب ، وأنا قد انقطعت عن النادى ، فلم أداوم فيه ، واتصل بى الشيخ العقيلان

لمقابلته ، ولكنى رفضت رغم رجاءات الرجل ، حتى إنه قال لي عبر الهاتف : اعتبرني ضيفاً ، فهل ترفض مقابلة ضيف ؟ وكان في ذلك إحراج لي ، لكنى خشيت أن أقع في مواجهة مع الأستاذ العواد ، فيُخَطِّأ الرجل ، وما كنت أريد ذلك ، وأنا قد أخطأت .. لانى لم أقابل مندوب الرئاسة ، الذى جاء يتقصى الحقيقة ، ولو ذهبت لأحرجت رئيس النادى بتصرفه غير النظامى .. في كتابة شيكات مصروفات النادى باسمه هو . قلت لا أريد ذلك ، فتحمّلت أنا المغرم ، لئلا أوقعه فيما أكره ويكره .

ولعله نقل إلى الأستاذ العقيلان ما نقل ، ولعله اتهمنى .. مما أنا برىء منه ، لا أدري ، لان المحصلة ، أنني تلقيت رسالة من الأستاذ العواد .. تفيد أن الرئاسة أبلغته يإعلامي بتقديم استقالتى . ولايكون ذلك إلا يإدانة أو اتهام بشىء لم أرتكبه ، وقبلت الواقع على مرارته ، ولم أرد تشويه سمعة الرجل الكبير ، ولو أردتها .. لكتبت للأمير رسالة أشرح فيها مخالفات رئيس النادى النظامية والمادية ، ولكنى أبيت ، إبقاءً على قيمة الرجل وتاريخه وكبر سنه ، وقبلت المغرم مكرها ، وقبلت أن أكون الضحية .

ومما بلغنى من الأستاذ العقيلان .. بعد ذلك ، وهو مازال حيا يرزق ، أنه أطلع على رسالة من رئيس النادى للامير يشكو فيها الأستاذ العقيلان ، ويتهمه بما لم يحدث منه كما حدثني ، ولا أقول إلا عفى الله عما سلف ، ولابد من التضحية لا خوفاً ولا جبناً . فلم أعهد نفسى ، منذ بلغت سن الرجولة أنني أخاف الحق ، ولكنى شجاع حين أُتهم بما لم يحدث منى ، وأقف بقوة استمدها من ربى ، حين أكون مظلوما ، فلا أقبل الجور والتمادى في الظلم .. والاهانة ودوس طرفى ، لأنى أبغض الذل والمهانة . وأنا الذى يردد : "ذل من يحسد الذليل بعيش" . وعند الله لايضيع حق . وأعلن اليوم تسامحى وتنازلى عن حقى ، اتباعا للتوجيه الكريم في قول الله عز وجل : "ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور" ، والرجل في دار الحق . وأوقن أننا كلنا خطّاؤون ، كما يقول الحديث الشريف ، وقد عوضنى الله خيرا مما كنت فيه .

أما تجربتى في النادى ، فكثير منها موجود في كتاب .. قيد الدرس ، وإضافة ما لم أرصد منذ سنوات ، لانى شغلت عنه .. بشواغل النادى ومسؤولياته ، ولعلى أستطيع أن أضيف ما لم يسجل ، وأقول كذلك ولى خمسة

عشر ربيعا ، فلم أفتش في ملفاته لأقف على ما كتبه الأستاذ العواد ضدى لسمو الرئيس العام لرعاية الشباب ، ولم أفكر في ذلك لتبقى شخصية الرجل كبيرة في نفسى .

وحين آل إلىّ رئاسة النادى الأدبى الثقافى بجدة ، شمرت كعادتى عن ساعد الجد . وأكرر القول .. بأنى أعشق عملى ، ولايهدأ لي بال ولا حياة حتى أنجز عملى ، وعملى الذى يوكل إلىّ وأتولاه .. يصبح هاجسى .. وشغلى الشاغل . وأشعر على الدوام ، بكل ما أقدم وأحقق ، أنني لم أصل إلى أبعاد ما أريد ، ولم أحقق أحلامى في الارتقاء بما أنجز ، ومازلت أشعر أن النقص يلازمنى ، فأنا أتطلع .. إلى ما هو أكبر من إمكاناتى .. جهداً ومادة وطاقة وقدرات ، وماذا أصنع .. وأنا هكذا خلقت ؟ القلق يساورنى طوال سعيى وعملى !

وأقول صادقا .. كما كان يقول الأستاذ العميد ، إنني لا أريح ولا أستريح ، لا أرحم نفسى .. ولا من يعمل معى ، ذلك أنني أشعر بالتقصير ، وأريد المزيد من العطاء والانجاز .. بلا حدود !

وأخى الدكتور الغذامى .. حين كان معنا في جدة ، ونحن نقيم النشاط المنبرى كل أسبوع ، كان يقول لي :

ذبحتنا ، وأنا أقدر ما يقول ، لانه مسؤول عن بناء أجيال في الجامعة ، والنادى يأخذ جهداً وتفكيراً وزمناً ، ولم أكن ألقى بالا لهذه الشكوى والجأر بها ، لأن من يشكو كان سعيدا بما حققه النادى من نجح على الساحة الثقافية العربية ، وليس المحلية فقط .

والذى يتابع مسيرة نادينا الثقافية ومشروعه الطموح ، ولا أزعم أنه وليد تخطيط أو خطة دقيقة ، ولكن وراءه دوافع لاحدود لها .. في مقدمتها – إدارة – واعية ، تنجز وتعمل وتتابع ليل نهار ، فالعمل هاجسها وهو بعد عون الله ، طريق النجح والتفوق ، بهذا الارتقاء في العمل الذى لا يتقيد بوقت ولا بزمن ، والثقافة عطاء بلا حدود ، دون انتظار أخذ شيء ، وأنا أسميها مغرماً ، وهو أن تعطى ولا تأخذ شيئاً ، وقليل أولئك الذين يصبرون على المغارم ويمضون فيها .. ويحتملون أثقالها وأثقال أثقالها !

ولعلى كنت أنظر من خلال الغد المجهول ، وهذا كان يدفعنى بلا حساب .. إلى العمل ليل نهار ، لإنجاز ما أمكن .. كاستقطاب أعلام المفكرين العرب .. ليتحدثوا عبر منبر النادى ، وطباعة كتبهم ، والتقاؤهم في ندوة يقيمها النادى ، تضم واحدا وعشرين مفكرا ، من المحيط

إلى الخليج ، وهو استقطاب ثقافى كبير في موازين العارفين ، ونتج عن هذا الملتقى .. مجلدان فيهما ألف صفحة ، لكل البحوث ومداخلاتها ، ولاينهض بهذه الندوة جامعة أو وزارة ثقافة ، وإذا قدر لها ذلك ، فسوف تصبح البحوث حبيسة الدواليب وأشرطة التسجيل .

والحديث عن مائة عنوان .. أصدرها النادى .. متميزة ليس بالشيء اليسير خلال أربعة عشر خريفا .. لوجوه كتاب العربية ، ثم إصدار " علامات " .. في النقد الأدبى ، الإنجاز الفصلى ، الذى صدر منه (١٨) ثمانية عشر جزءا ، ليس إقليميا ، وإنما يشارك فيه نخبة من مفكرى العالم العربى ، ويصل إلى أقطار الوطن العربى وفرنسا وأمريكا ، وأصبح معروفا ، يبحث عنه ويقرأ ، وهو منتظم في صدوره ومواعيده .

كل هذا النجح بفضل الله ، وأعود إلى القول ، إن هذه المشروعات المعرفية التى نهض بها نادى جدة الأدبى الثقافي .. بامكاناته المحدودة ، لو لم يكن وراءه طموح يدفعها وسهر وتضحية وإخلاص ووفاء للادب والفكر لما استمر النجح ، ولما استمر الجهد يعطى بلا حساب .. وبلا إدعاء ولا من .. ولا إعلان ، لان العمل الجيد

الناجح .. يعلن عن نفسه ، ويقدم نفسه بنفسه .

والمفكرون في العالم العربي .. يعرفون نادينا ، ويتحدثون عنه باطراء وثناء ، وذلك حافز لي ودافع إلى المزيد من العمل والعطاء والتحدى . وأنا لا أتحدى أحدا ، وإنما أتحدى نفسى .. وقدراتها المتواضعة ، لتعمل وتعطى ، مادام في الصدر نفس وفى العمر بقية ، وفى البدن طاقة ، لانى أومن وأنفذ قول الله عز وجل : "وقل اعملوا" .. وأوقن بصدق قول الحق : "ومابكم من نعمة فمن الله" وأؤكد أن عون إخوتى حولى ، ودعم أخي الدكتور الغذامى بفكره ومشوراته وجهوده ، غير المحدودة ، وعون أخي الوفى الأستاذ عبد الله الشهيل مدير عام الأندية الأدبية ودعم سمو الرئيس العام لرعاية الشباب للاندية الأدبية جميعها ، هو ما حققنا من خلاله نجحنا وكسبنا بالأمس .. قبل أن نفكر في اليوم والغد ، ذلك أننا في تصورى على الأقل ، لانملك الغد ، واليوم غد للأمس ، ولو لم نعمل فيه حين جاءنا ، وأتيح لنا أن نعمل ، لما كان هذا الإنجاز . الذى يشيد به عارفوه ومقدروه . والفرص تواتى أحيانا .. أو مرة واحدة ، فمن اقتنصها فاز ، ومن نام عنها تجاوزته إلى من يعمل ويجد ، لأنه يملك

اللحظات التي يعيشها ، فأمسه قد مضى بسلبياته وإيجابياته، وغده مجهول ، لايدرى ماذا يكسب فيه ، وليس له إلا الساعة التي هو فيها .

وأنا دائب ترداد المثل العربى السائر : "عند الصباح يحمد القوم السرى" ، ويحمده الذى حقق الطموح والنجح ، وعمل وسهر وجد وصدق ووفى ، أما الراكن إلى الدعة والاحلام ، فإنه كقابض الريح ، كأنه نائم ، ولعله إذا استيقظ .. يجد نفسه قد فاته الركب ، وضاعت منه الفرص ، ويندم ، ولسان حال الواقع يردد على أسماعه : "ولات ساعة مندم" .

ودئبت ترداد قول الشاعر الاندلسى ابن زيدون ، من قصيدته المشهورة .. التى قالها في السجن !

واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس

وقد صحبت أخوة في هذا النادي أعزاء ، كالشيخ أحمد بن علي المبارك الأديب والسفير ورجل التربية والتعليم ، والدكتور الغذامي ، والأستاذ المفن الأديب الشاعر .. مطلق مخلد الذيابي رحمه الله ، واخترت الاخوة الدكاترة سعيد السريحي ، وعبدالمحسن

القحطاني ، وعبدالله المعطاني ، وأخي الشاعر الوفي المحب الأستاذ يحيّ توفيق حسن . فكانوا خير عون في مجلس إدارة النادي نُصْحاً ووفاءً ومشورةً وصدقاً ، ورفاقاً كراماً واعين .. سماح الطباع .. في دماثة خلق ، وهم مكاسب للنادي وعطائه ودوره . وحين بعدت عن النادي بعض الوقت أيام الأستاذ العواد .. دخله الاخوان الشريف منصور بن سلطان ومحمد علي قدس .. ومضيا مع مسيرته ونشاطه وأدائه وارتقائه ونجحه ، ولله الثناء الجميل .

• • •

ويوم نجح ابنى وديع في الشهادة الثانوية ، في مدرسة الشاطيء بجدة ، وكان مديرها رجلا حازما ، وله من اسمه نصيب – جميل عبد الجبار – وقدكنت مشفقا عليه ، فرغم أنه تخصص علوم ، إلا أن ذلك الشعر الجاهلى وغير الجاهلى ، من ذى الألفاظ الثقيلة حتى في نطقها .. كانت مقررة عليه ، وكنت أراه يحفظها ويرددها ، وبعضه لم أقرأه ولم أدرسه ، وهو شعر صعب النطق .. لأنه صعب الالفاظ ، وبعضها حوشي غليظ ، وأنا لا أنكره كتراث ، ولكنى أنكر أن يدرسه طالب ثانوى في تخصص علمي وليس في أدبي ، وهذا الشعر الثقيل يكرّه الطالب في

الأدب .. حتى المتخصص فيه ، وكان ينبغي أن يختار له السهل الرائق ، وفي الجامعة ، حيث الارتقاء سنا ومحاضرين أقوياء .. من ذوى التخصص من حملة الشهادات العليا الاكفاء ، فإن الطالب .. من خلال التحليل والشرح .. يستطيع فهم هذا الشعر ، ويتاح له .. أن يقرأ الدراسات لهذا الشعر ، التي قربته من الاذهان ، وفتت الفاظه ، وشرحت معانيه .. ودللت عليها بشواهد وأدلة .

واشفاقي على ابني من جهة أخرى ، أننا كنا نسكن في عمارة الاوقاف – وقف الباشا بسوق الندى ، وكان الماء ينقطع ، وهو شريان الحياة ، والمصعد معطل ، أو قد وقفه – عمر شاكر – ويذهب الابن بالسيارة ليرد الماء ، ويعود ، ليصعد إلى الدور السادس (١٣٢) درجة ، وفي يديه جالونان كبيران . إنه الارهاق والتعب والعناء ، وإدارة الاوقاف .. لاتحرك ساكنا ، ولاتعمل شيئا ، كأن الأمر لايهمها ، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وحين نجح الابن بتفوق ، بفضل الله ، ثم جده واجتهاده ، كانت جامعة الملك عبد العزيز برئاسة الدكتور محمد عبده يماني .. قد ردت نحو ألف طالب ، لعدم وجود امكانات لهم . فكتبت في ذلك مقالا في مجلة اقرأ ،

أشرت فيه إلى الحد من البعثات ، وعدم إمكانات الجامعة ، ونحن قادرون ولله الحمد ، فما هو مصير أولئك الطلاب .. الذين أغلقت في وجوههم أبواب الجامعة ، أهى المقاهى والتسكع في الشوارع ، وقد بادر ولى الأمر فأمر الجامعة بقبول الطلاب ووفر لها ماتحتاج .. من إمكانات مادية ومعنوية .

لكنى قلت لابنى إذهب إلى أمريكا وادرس هناك ، حتى لا يقال إنني كتبت مقالى .. من أجل ابنى ، لأن الجامعة .. لم تستوعب الطلبة ، وابنى لم يقدم اوراقه للجامعة ، ومجموعه يؤهله للقبول والدرس .. فيها ويقدمه .

وذهب ونجح بفضل الله ، وأصبح مهندسا مدنيا ، وكسب لغة إنجليزية واسعة ، والجد والتصميم مفاتيح إلى النجح والارتقاء في أي مجال يخوضه الإنسان ، وربه معينه بفضله .. إذا استنفد أغراضه .. وأخذ بالأسباب ، ثم يترك الأمر للمسبب .

• • •



الفصل الحادي عشر

بقيت موضوعات ، أحسب أنها قصار .. لم يأت عليها السياق التسلسلى في التناول ، فوددت أن ألم بها قبل الانتهاء من التوقف في تسجيل هذه الورقات .

جوازات السلوم .!

فى شهر شوال عام ١٤١٢هـ ،كنت في القاهرة . وهاتفت بيتى ، فقيل لي : إن الأستاذ الكاديكى يبحث عنى ، وهو في – قبرص – ، فهاتفت الأستاذ عبد العزيز لملوم في القاهرة ، وهو ابن اخت الكاديكى ، فاعطانى رقم خاله هناك ، وهو ينزل في بيت أحمد لملوم ، شقيق عبد العزيز ، فهاتفته ، فوجدته بخير ، ودعانى أن الحق بهم ، فقد كانت زوجه معه وشقيقته ، والدة عبد العزيز وأحمد لملوم وبقية أخوتهما . ومكثت في مصر ، وبعد يومين .. جددت المهاتفة بالأخ عبد العزيز لملوم ، فقال لي مكتبه إنه ذهب إلى قبرص لأن الحاج الكاديكى توفى . فكان النبأ بالنسبة لي صدمة ، وأسرعت إلى منزل عبد العزيز لملوم في مصر الجديدة ، بعد أن وجدت بعض أقاربه .. أفادنى بأن المتوفى دفن في قبرص ، وأن الرجال والاسر سافرت إلى بنغازى لاقامة المأتم في منزل المتوفى ، وان ابنه قادم

من امريكا بعد ساعة ، وثم سيارة سوف تتحرك في المغرب إلـى بنغـازى ، ويمكننـى أن ارافـق مـن فيهـا ، بمـا فيهـم " يوسف " ابن أختى .

وتوجهنا إلى بنغازى ، لأن الحظر الجوى قد اتخذ ضد ليبيا منذ أسبوع . ومشينا ليلنا ، حتى وصلنا إلى الحدود .. المصرية – الليبية – ، ومددنـا جوازاتنـا إلـى الواقـف علـى البوابة ، والدنيا ظلام ، فظن أن كل من في السيارة ليبيون ، وأنـا لا أدري مـن الأمـر شـيئا ، وعلمـت فيمـا بعـد أن الجـوازات الليبيـة وسـياراتهم .. لهـا مسـار خـاص مثـل المصريين الذاهبين إلى ليبيا ، ولاتختم عند الخروج .

وصلنا إلى بنغازى ظهر اليوم التالى ، بعـد تعـب وعنـاء وسهر ، والمسافة بين القاهرة وبنغازى نحو الـف وثلاثمائـة كيلومتر "١٣٠٠" .

وبقيت في بنغازى نحو عشرة أيام ، ثـم قـررت العـودة إلى مصر لاعود الى جـدة ، واسـتأجرت ورفيقـى .. ابـن أخ المتوفى ، ناصر بن موسى الكـاديكى .. سـيارة خاصـة إلـى القاهرة ، بنحو مائتى دينار ، وكنـت قـد اشـتريت دينـارات ليبية .. قبل الخروج مـن الأراضـي المصريـة،وسـوق النقـد هناك رائجة ، دولار وليبى ومصرى .

تحركت سيارتنا في الصباح الباكر ، وكنت أتوقع .. أن نصل إلى الاسكندرية مبكرا ، وكان ذلك ممكنا .. لولا عنت وسخافة عقلية مدير الجوازات المصرية في السلوم العقيد "مصدّق" ذلك أني حين قدمت جواز سفرى هناك ، رأى الموظف ، أنني دخلت القاهرة ، وسجلت خلال المدة المسموح بها للتسجيل ، لكن لم يختم جوازى .. وأنا ذاهب إلى بنغازى ، وسئلت : أنت ذاهب إلى اين ؟ فقلت إلى مصر ، قالوا لي إن جوازك لم يختم ، وأنت خارج من الحدود المصرية ومتى كان ذلك ؟ فحدثتهم بما كان ، وذهبوا بى إلى ضابط ، وذهب إلى رئيسه يسأله العمل ، فقال : اتخذوا محضرا في المخالفة ، وحاولت أن أبرر .. أنني لم أخالف ، وأنا حريص على الإجراء النظامى ، وذهبت لمدير الجوازات ، ولكنه رجل منغلق ، حاولت شرح الحالة ، لكنه مازال يعدها مخالفة وأنا مسؤول ، وأخذت أقول له ، لاتختموا جوازى ، وكأنى مازلت في الأرض المصرية ، وما يعين على ذلك .. أنه لا توجد جوازات ليبية على الحدود ، أي أن جواز سفرى لم يختم أنى دخلت الأراضي الليبية ، لكن مدير الجوازات متعنت ، وقلت له اختم لى .. بأنى ذاهب إلى ليبيا ، وأرجع

إليك بعد ساعة بأنني عدلت عن الذهاب ، لتختم لي بدخول الأراضي المصرية ، ولكنه لم يقتنع ، ولم يسمعني ، فقلت له : إن النظام مطاط ، تسيرونه كما تشاءون ، لاني يئست من الحوار غير المجدى !

وكان في نية السيد العقيد المبجل مدير الجوازات أن يبعث بى مع جندى إلى مرسى مطروح ، مرجعه الادارى وبالمحضر الذى اتخذ بمخالفتي كما أسماها ، والمسافة نحو "١٣٠" كم ، وسيطول الإجراء ، وأبيت هناك في مطروح بخفارة على الأرض أو على كيس رمل ، أو حصر على الأرض ، أو في السلوم على البلاط أو في صندقة فرشها قطع كرتون ، وسط الذباب والناموس والقذارة ، ورأيت أن كثيرا من المسؤولين على الحدود في الوطن العربى حاكمون بأمرهم ، لأنهم بعيد عن عيون الرقيب والمسؤول ، وليس الحال في المداخل الجوية مثل ذلك !

وتدخل رجل كريم اسمه "طارق الزواوى" من مباحث أمن الدولة وأخذ يتصل بمطروح بالمسؤولين ، ويعلن لهم ، أنني لست وجه شبهة ، وأن لشخصيتى الاحترام ، ذلك أن مدير الجوازات خلال حوارى معه ، قال ، ويا سخف ما قال ، إن قاتلا يرتكب جريمة ويفر ،

حيث كنت أحاوره بالإجراءات التى يمكن أن يتخذها كحلول ، ليتركني أذهب ، ولا يعطلني ، ورددت عليه أن المجرم ليس مغفلا حتي يسلم نفسه بهذه السهولة ، فهو مريب وخائف ، فكيف يقدم إلى السلطة .. لقمة سائغة ؟ غير أن عقلية العقيد عجيبة .

وانا أعجب كيف تضع السلطات رجلا تريد نفيه ، ليتعب الناس ، لانه معقد ، أو مغلق التفكير . والأصل أن يوضع .. في الحدود البعيدة ذوو الخلق والإنسانية والمروءة ، ليكونوا واجهة كريمة للبلد ، وأن يُقدَّروا حتى يصبروا على البعد .. في هذه الأماكن النائية ، والحياة فيها صعبة عسيرة ! ولكن .. كما يقول أبو العلاء : "غير مجد" فالاختيار شيء . والوساطة والسلبيات والتصرف المعقد أو الإجراءات الادارية في التنقلات ، قد لايراعى فيها المسؤولون بالتسلسل .. القيم والإنسانية والرفق ، وإنما هو – روتين مريض – ، يسير أو يسير بفتح وكسر – السين – .

وأخذ الرجل الكريم طارق الزواوى ، جزاه الله كل خير .. يواصل الاتصال بالمسؤولين في مطروح ، يبرر براءتى وسلامتي من أي اتهام بوسائله المنطقية ، أما مدير

الجوازات ، فقد انصرف ، عليه من الله ما يستحق .. إلى استراحته ، وبقيت محجوزا إلى السابعة مساء ، وقد نجح الساعى الكريم في اقناع المسؤولين ، بأن شخصيتى اعتبارية ، وأنى كاتب وأشغل مركزا ثقافيا في بلدى إلخ ، وأرسل بالورق إلى مدير الجوازات النكد حيث ينام ، والجندى رجله في الماء ، يتوقف في الطريق ليأكل ويشرب الشاى أو يتحدث مع من يعرف ، وأنا على نار ، واستعنت برفيقى سائق السيارة ليدرك الجندى حتى عاد بالورق ، فخلى سبيلى بعد أن وقعت على محضر ، وشكرت الرجل الشهم .. الذى سعى وجد وتعب .. لاقناع المسؤولين ببراءتى ، فشكر الله فضله وعونه ومروءته وإنسانيته !

وانطلقنا .. حتى وصلنا الاسكندرية مع أذان الفجر ، وكان يمكن أن نصلها بعد العشاء أو بعد المغرب !

وحين وصلت القاهرة في اليوم التالى ، كتبت رسالة إلى السيد محمد عبد الحليم موسى وزير الداخلية المصرية .. شرحت فيها ما حدث ، وبعثت بها مسجلة .

وحين عدت إلى – جدة – كتبت رسالة للسفير ..

القنصل العام لمصر الأستاذ أحمد الغمراوى .. ومعها نسخة من رسالتى إلى وزير الداخلية ، وكان السفير الغمراوى ، يحضر بعض نشاطات النادى الأدبى الثقافى المنبرية ، لاسيما حينما يكون المحاضر مصريا ، أو شخصية مشهورة ، وظروف الرجل تسمح بالمجيء والحضور ، وكنت القاه .. في اثنينية أخي الأستاذ عبدالمقصود خوجة ، ونتبادل التحايا وكلمات الاحترام والتقدير . وأخبرنى بعد ذلك .. أن مدير جوازات السلوم قد نقل من مركزه .. لقاء ذلك التصرف المسيء معى ، فشكرته ، وجزاؤه بعد ذلك وحسابه على الله تعالى . وأنا حين أنتقد تصرفاً خاطئاً من بعض الموظفين في الجمارك أو الجوازات أو غيرهما ، فأنا لا أنتقد النظام والدولة ، وإنما أنتقد ممارسات عوجاء وتفسيراً خاطئاً للوائح والنظم ، وفهماً قد يحكمه تصلب رأي ، لأن مَنْ أمامي بشر خطّاء ، لا سيما البعيد منهم .. من مراكز المسؤولية المباشرة ، التي تقدر ، وتذلل الاجراء .. وتيسره .

الشيخ اسماعيل حمدى

ممن عرفت في بنغازى فضيلة الشيخ اسماعيل

حمدى ، وهو من الاسكندرية ، دلني عليه الأخ محمد عبدالمجيد ماضي ، وهو يعرف أنني حريص على متابعة خطباء المساجد في أيام الجمع ، الذين يعجب بهم سامعوهم ، لبلاغتهم ، وقدراتهم ، وحسن تناولهم للموضوعات ، والخطابة موهبة وشجاعة . والناس أخياف ، والصرحاء قليل ، وهم الذين يفتش عنهم ، والشيخ اسماعيل : جاء به الأستاذ رجب بن كاطو .. من أهل بنغازى ومن وجهائها يعمل بالتجارة ، وكان في وقت ما .. في حكومة الملك إدريس السنوسى وزير اقتصاد .. كما سمعت ، وقد بنى مسجدا ، وتولى الشيخ اسماعيل حمدى الإمامة فيه ، ومنها خطبة الجمعة .

وذهبت إلى مسجد بن كاطو ، وسمعت الشيخ اسماعيل ، فأعجبت بمنطقه وحديثه ، وبعد الصلاة .. سلمت عليه ، وعرّفته بنفسي ، ثم أصبحنا أصدقاء ، وكنت أدعوه في بعض الأيام ليأتى معى ، ونتناول غداءنا في بيت أخي حسن عقيلة العريبى ، وقد أحبه الشيخ اسماعيل ، وأحب أبو حسين الشيخ ، خلال إقامة أسرتى في دمشق .

وغادرت بنغازى ، بعد استقالتى من العمل في السفارة السعودية .. والشيخ اسماعيل باق ، ثم عاد إلى

الاسكندرية ، وكنت أزوره هناك ، وقويت العلاقة وطلب إلي توظيف ابنه حسام ، فكان ذلك له . ومازال حسام في مؤسسة البلاد للصحافة والنشر منذ (١٥) سنة .

ودعوت الشيخ اسماعيل مرتين ليحاضر في النادى فاستجاب ، ونشرت محاضرتاه في المجلدين (٤) و (٥) من إصدارات النادى .

ويوم كنت أدير العدد الأسبوعى من عكاظ ، استكتبت الشيخ اسماعيل ، فكتب عدة موضوعات .

والرجل صريح ، وذو بيان جميل ، وهو متخصص في أصول الدين والدعوة ، وهو مشرق الديباجة ، يجيد سبك الحديث الطلى ، وخطيب مقنع ومفوه وبليغ . وكاتب مجيد . وكان يرتجل خطبه المنبرية .. في الموضوعات التي يختار . وكان كذلك في محاضرتيه اللتين القيتا في النادى . ولم يكن يحمل في يده ورقة ، ولاحتى رؤوس اقلام ، وتلك قدرة ، أختص الله بها من شاء وهى هبة من عطاياه .

وأقرر أن هذه السطور القصار .. لا تكفى للحديث عن رجل عرفته نحو (٢٢) اثنين وعشرين عاما ، وتصادقنا

، وكنت أتلقى رسائله ، وهى قطع فنية أدبا وجمالا وسبكا واتقانا ، وقد نشرت بعضها في وقت ما ، وقد توفاه الله في شهر نوفمبر من عام ١٩٩٢م ، يرحمه الله برحمته التى وسعت كل شيء ، ومن المؤسف .. أن الشيخ اسماعيل لا يكتب ، وحتى حين كان رجل سوري يسجل خطبه المنبرية في بنغازى ، وكون منها كتابا "شرحا وتفسيرا" لسورة – الفرقان – وأعطاه لي لنشره ، استأذنت الشيخ في ذلك فرفض ، وأكد على عدم نشره ، وأبى أن ينظر فيه ، ليعدل ويصلح .. لكي ينشر ولكنه أبى ، رحمه الله . وهو صلب في آرائه ، وقليل التراجع .. فيما يرى التمسك به .

الكاديكى في أمريكا

الأخ الكاديكى ، ترك شركة شل في طرابلس مكرها .. بعد تغير الأوضاع في بلاده وأنشأ مع بعض الشركاء مصنعا ، يطبع .. ألواح الزنك ، وينتج أعمالا أخرى مثيلة ، كلف مع أرضه نحو ستة ملايين دولار ، صادره النظام هناك ، الذى صادر أموال وممتلكات وأملاك المواطنين .

وحين ضاقت به الحال .. رحل إلى الولايات المتحدة مع غيره من الذين آثروا الحياة هناك . ومكث في امريكا ، ووكل محاميا .. ليدافع عنه لكي يحصل على اقامة ، ومرت شهور وربما عامان ، والحكومة الأمريكية تحاول ترحيل هؤلاء المهاجرين ، ولكنهم كانوا متمسكين بالبقاء والحياة هناك .. وقد نجح أكثرهم .. وحصل على إقامة ، مثل غيرهم من المهاجرين .. من أرض الله الواسعة .

ثم حصل الكاديكى على الاقامة ... هو وأسرته ، وقد سبقه ابنه يوسف إلى هناك ، حيث ارسله والده .. بعد حصوله على الثانوية للدراسة الجامعية ، نحو عام "١٩٧٥" . وأقام في "أستين" ، والأسرة تتردد على جنيف ، حيث يملك الكاديكى "شقيقة " في موقع جميل .. يطل على بحيرة – ليمان – الجميلة ، ويشارك أبناء اخته في تجارة ، لها فرع هناك ، ولبث في امريكا .. زهاء عشر سنوات ، ثم قرر العودة إلى بنغازى نحو عام "١٩٩٠"م ، وله فيلا في – الفويهات – ، جنوب بنغازى .. بنحو (٨) كم ، في موقع طيب ، ولبث هناك .. حتى قاده أجله إلى قبرص ، بعد عيد الفطر .. سنة "١٤١٢"هـ ، حيث قضى فيها خمسة أيام ، ثم توفاه الله ،

ودفن في "ليماسول" وصدق الله العظيم القائل: "وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير" .. وكتبت بعد وفاته هذه الكلمة السريعة .. التي لا تفي ببعض حقه وواجبه عليّ ، لأنه كان باراً بي ، يؤثرني ويقدرني ، حفياً بي.. في البعد والقرب ، رحمه الله وأرجوه أن يرطب ثراه.

وكان رمزاً وقيمة !

لكل بداية نهاية ، ذلك هو قدر الحياة والأحياء فيها ، وهي مرحلة يعيشها المرء يطول عمره فيها أو يقصر ، فهي أشبه بمن يدخل إلى مبنى من باب ويخرج من آخر . والحياة كدح ونصب وكبد . قال الله تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبدٍ﴾.

وهي دار امتحان وبلاء ، تسر قليلاً وتجر هماً كثيراً ، كما قال الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ، يصيب فيها الإنسان ويخطيء ، ويغنى ويفقر ، ويمرض ويعافى ، إنها متقلبة .. لا تثبت على حال واحدة ، فسبحان مدبر هذا الكون ، الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

والإنسان آماله طوال وأحلامه لا حد لها ولا نهاية ، ومن لطف الله به أنه ينسى ، لكي ينسى همومه وأحزانه

وآلامه ، وما ينتابه في هذه الحياة من هموم وأوصاب وأتراح . والإنسان في هذه الحياة غريب ، لأنه عابر سبيل، ولأنه راحل عنها ، شاء أم أبى ، وفي كل الأحيان هو يتشبث بدار الفناء ويكره الموت ، يحب الباطل ويكره الحق .

وراحلنا محمد بن عيسى الكاديكي ، لقي وجه ربه غريباً ، وهو معافى ، ولكنه الأجل المحتوم ، الذي إذا حان فلا يجدي فيه شيء ، ذلك أنه قدر كل حي .

كان العزيز ملء السمع والبصر .. حيوية ونشاطاً ، وعلاقات اجتماعية ، وكان خلال أيام عمله شعلة من النشاط والحركة ، يحب عمله ويتفانى فيه ، وكان دقيقاً في مواعيده وأدائه ، ولعله اكتسب ذلك من الخبرة التي نالها من عرك الدهر والاختلاط بالأجناس البشرية ، والأعمال التي تقلب فيها . ولا شك أن العمل رحمة وعبادة ونعمة من الحق تبارك وتعالى ، وهو يحث عليه لعمار الكون بقوله : ﴿ وقل اعملوا ﴾.

والفقيد الغالي عاش الحياة بأبعادها خلال عمره كله ، يمارس حياته ، لا يشكو ولا يضيق بالحياة ، ولكنه كان ذا

احتمال وصبر ، لا يبالي بأوصاب الحياة وما تأتي به من هموم وعلل وتقلبات ، وكنا نغبطه على احتماله وعدم مبالاته بما يصيبه منها وفيها.

وعاش حياته مرحاً ضاحكاً ، له من الصداقات والمعارف في كثير من أرجاء الدنيا .. القريب منها والبعيد، يتواصل معهم بالمكاتبات وعبر الهاتف والترحال ، وكان محبوباً ، لأنه لا يعرف العقد والمستحيل وإنما ألف البساطة فكانت ديدنه .

وكان محدثاً لبقاً ، في ذاكرته يختزن المواقف وما مر به في حياته من تقلبات ومتغيرات ، منذ أن وعاها إلى أن تركها ، لا ينسى حتى اليسير منها ، لقد كانت ذاكرته حافظة قوية ، تختزن النادر واليسير والمهم ، ويمتعك ... وهو يسرد عليك بأحاديثه ما رأى وعاش وسمع وقرأ ، بالعربية والايطالية والانجليزية ، والحياة مدرسة كبرى ، وقد وعاها بالأبعاد التي أتيح له أن يعيشها ويلم بها .. بكل أشكالها ونماذجها وتقلباتها ، وما تحفل به ، سواء في بساطتها أو مركباتها ، ومن خلال معارفها الكثيرة الواسعة ، وكان حريصاً أن يلم ما تقع عليه عينه ، فيجمع

القصاصات، ويترجم ما كتب بغير لغته ، ويبعث لأصدقائه ما يرى أنه يهمهم ويحفلون به .

لقد احتمل الكثير من المصاعب وضياع ما يملك وما أخذ عنوة ، وعاش الغربة .. وهو رضي النفس ، ناعم البال، لأنه مدرك أن كل شيء على هذه الحياة إلى زوال ، فلماذا يشغل نفسه بهمومها وعنائها ، وما يكتنفها من ويلات وصخب ، ذلك أنه ما قدر يكون . وكأني به يردد قول القائل :

نفسي التي تملك الأشياء ذاهبة

فكيف أبكي على شيء إذا ذهبا ؟

وكان رحمه الله .. حريصا ودءوباً على العبادة ، خاصة الصلاة ، التي هي عمود الدين ، يحافظ عليها ، ويؤديها في أي مكان هو فيه .. إذا حان وقتها ، وكنت أغبطه على هذا الحرص ، وهو توفيق الله سبحانه وتعالى ، وهنيئاً له بما حقق وحرص وأدى ، وفق مراد الله ووصايا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة .

وكان الفقيد خير رفيق في السفر ، فهو الرفيق المطاوع الذي لا يجنح إلى العنت والاعتراض ، ولكنه

يميل إلى اليسر وعدم التعقيد ، والسفر يحتاج إلى التسامح والتجاوزات اليسيرة ، ليستمتع به المسافر والرفاق . وكان الفقيد من واقع حرصه واحترامه لمن معه يُنصب مَنْ يتوسم فيه القيادة شؤون الركب في السفر ، ويعلن ذلك لمن معه لاحترام رئيس الركب وأميره ، وكان ينصبني لإمارة الركب ، رغم أنه أسنّ مني وأخبر ، ذلك أنه كان يقدرني ويقدمني . وأنه لخير رفيق في السفر ، ثم اخواني : عبدالله الغذامي ، حمدان صدقه ، وفيصل الملص ، وأحمد العلمي، وسعيد السريحي ، وعبدالسلام المسدي ، وحمادي صمود ، والحسن بن زين ، وصالح أدهم ، وعبدالغفار أمين ، وممدوح فهمي ، وغيرهم .

وكان الغالي وفياً كريماً وسمح الأخلاق في تعامله وعلاقاته الخاصة والعامة ، وكان قليل أو نادر الغضب ، إلا إذا بلغ السيل الزبا ، كشيء يتعلق بكرامة الإنسان وجرحها ، أو الحط من قيمه التي يلتزم بها ، وكان كريم المعشر والمخالطة والحرص على الاحترام المتبادل ، لأنه ملتزم بالقيم الأخلاقية التي وعاها وورثها من الإسلام والعروبة .

وكان يغار على الإسلام ، ويحزن لما يلحقه من تردٍ على أيدي أعدائه وشيعته ، ويتألم ويحزن ، ويقضّ مضجعه ما يرى ويسمع من تدهور حال المسلمين وعدم غيرتهم على عقيدتهم .. والتردي الذي يعروهم في أي مكان من أرض الله الواسعة .

والمثل كثيرة التي كان يتسم بها فقيدنا ، وما أجمل أن ترافقه ، وأن تستمع إلى أحاديثه ، فهو محدث بارع ، يغريك بالانصات إليه والاصغاء لما يقول ، وتتمنى ألا يصمت ولا ينتهي حديثه ، لأن فيه درساً وتجارب عريضة وخبرة وتحليلاً لما رأى وعاش وقرأ ودرس وسمع .

والحديث عن العزيز الراحل يطول ، لأنه حديث محبب إلى النفس .. التي عايشت الرجل وعرفته عن قرب ، والتأثر مرده التأثير من المخالطة والمعايشة عبر عقود ، وذلك محك المعرفة وبرهانها والدليل عليها .

ولقد كانت وفاته مفاجأة في ظاهرها ، ولكنها بالقياس إلى المؤمنين ... شيء طبعي ، لأن الأجل محدود بساعة لا يتجاوزها ، وبأرض لا يحيد عنها ، ولا راد لقدر الله وحكمه ، وإنما ينبغي التسليم بذلك والصبر على المصيبة ،

والقول بإيمان صادق لا ريب فيه : إنا لله وإنا إليه راجعون.

وليرحم خالقنا بفضله الفقيد العزيز ، فقد كان ملء السمع والبصر ، في قربه وبعده . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد قال لي في آخر رسالة تلقيتها منه تاريخها ١٤١١/١١/١٣هـ الموافق ١٩٩١/٥/٢٣م : "لقد رعاني خالي صغيراً والآن يعطف عليّ ابن الخال كبيراً ، ولم يبق من العمر إلا أيام .. جعلها الله في طاعته ، وقال : تأثرت كثيراً للذوق الراقي وللشعور وللحنان ، لا حرمنا الله منكم ، ومتعكم بالصحة والعافية ، أصبحت العافية في سن (٧٥) تفتر ، ولم أعد أعهد نفسي بالنشاط المعهود". وقد هزتني كلماته .. التي ترمز إلى وداع الحياة الدنيا، رحمه الله .

وبعـــد

فربما نسيت أشياء ، وتركت أشياء قد لا تستحق الذكر ، مثل دراستى للصحافة بطريق المراسلة مع مدرسة في مصر ، لأن هذه الدراسة لا وزن لها عندى اليوم ، أما قبل ذلك ، فكانت طموحا ورغبة شاب ، ربما ليعوض ما فاته .

وثمة أشياء أخر .. احتواها كتابى في معترك الحياة ، الذى صدر عن النادى الأدبى الثقافى بجدة بتاريخ ١٤٠٢هـ ، "١٩٨٢"م . وقد تحدثت عن الاديب الكبير

عباس محمود العقاد ص "٣٣١" ، وأنا قد كتبت عن ندوته صفحات ، حين كنت أحضرها ، مع صديقى المرحوم عبد العزيز الربيع ، بدءا من يوم الجمعة ١٢/٣/١٣٨١هـ .

وقابلت وتحدثت مع الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات ، وقد أشرت إلى ذلك في ص "٣٣٩" ، من – معترك الحياة – وفى ذلك الكتاب قراءات ووقفات شتى .. ربما فيها شيء يستحق القراءة .. بالقياس إلى طالب القراءة .. من شداة وعشاق الأدب . وفى بطون الصحف ، الأضواء والرائد ، والبلاد ، وعكاظ الأسبوعية واليومية وإقرأ المزيد من الموضوعات الأدبية والاجتماعية وقضايا الناس . وكل ذلك جهد المقل ، ولا أزعم أنها موضوعات فيها عمق ، ذلك أن العمل في الصحافة ، يفرض الوانا خفيفة لقرائها ، والصحافة تصرف عن الدرس المتقن ، ولا أدعيه . وأخطر شيء على الأدب هو السرعة .. كما يقول الأستاذ العميد . والذى يتعلق بالصحافة ويغوص في اوديتها .. تبعده عن الأعماق ، وتصرفه عن اتقان ما يكتب ، لانها تلزم كاتبها بالسرعة .. التى هى طابعها ، وتقدم ما يلتهم في سرعة كذلك ، وهى تجنى على الأدب والفكر ، وتطحن بكلكلها من يدخل

ساحتها وتغريه ببهرجها ، وتخلق له شهرة واسما ، لانها بهرج براق ، ينتهى مجد صاحبها مع غروب شمس كل يوم .. ما لم يجدده بالتواصل ، أو مع نهاية كل أسبوع .. بالقياس إلى الأسبوعية ، وهكذا الشهرية ، ويبقى ماعداها ، من كتابات الدرس العميق المتقن ، لانه باق ، ولأنه ينفع الناس ، وماعداه .. يذهب جفاء .

وضممت إلى " حكايتي " بعض الورقات المتعلقة بمن عرفت ، والخاصة بخالي ، لأنها ترتبط بي ، وتمثل علاقتي وشيئا من حياتي ، وليس ذلك بغية تضخيم هذا الكتاب ، وإنما .. حتى لاتنعزل تلك الورقات عن سياق هذه الاوراق ، التي قبلت كتابتها .. كما أريد منى ، ولم أقل فيها إلا الحق كل الحق ، وما نسيته يسقط من حساب التاريخ ، إلا إذا سجله أحد ، من الذين يهتمون بالدرس .

وقبل طي الصفحة الاخيرة مما أسجل ، ربما حسب .. لي الجهد المتواضع ، ما حفل به نادى جدة خلال (١٥) سنة وإصداراته ، ونشاطه المنبرى ، وكتابه – علامات – ، كل ذلك من أجل المشاركة في تأصيل ثقافة ، أرجو أن ينتفع بها ، وهى لبنة في صرح المعرفة الكثيرة والعريضة ، التى يحفل بها عالمنا العربى . والثقافة جهد وعطاء بغير

حساب ، وهو عطاء بغير عائد ، ذلك أنك تعطى ولا تأخذ . والذى يصبر على العطاء ..فإنه إن شاء الله لن يخسر ، وإنما قد يصل إلى نجح . ولايصبر على ذلك .. إلا من كان ذا عزم صادق جاد فعال - وصدق أبو الطيب القائل :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم

وتأتى على قدر الكرام المكارم

وأكبر الظن أن الذى يعمل ، ينجح ويخفق ، خير من الذى لايعمل ، وعندى أن الذى يعمل .. مثل المجتهد ، إذا وافق الصواب كان له أجران ، وإذا اخطأ .. كان له اجر واحد . فهو في كل الحالات له مكاسب ، لانه عمل وجد واجتهد ، والذين يعملون هم الذين يخطئون ، أما الذين لا يعملون .. فهم الاموات ، أو الذين يريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وكذلك .. الذين لا يعملون .. ويسيئهم أن يعمل غيرهم ، حسداً من عند أنفسهم .

والله نسأل أن يسدد على الخير خطانا ، وأن يعيننا على أنفسنا حتى لا نضل ، إنه سبحانه لا يضيع أجر من احسن عملا .

والحمـد للـه رب العـالمين ، المعيـن والمجـازى علـى الأعـمال كلها ، لانه لايظلم أحدا.

تونس : ١١/٧/١٤١٥هـ

: ١٢/١٢/١٩٩٤م

الهوامش

١ – طه حسين ، في – الوعد الحق – .

٢ – ايمان الدريهم .

٣ – أستاذ بكلية الاداب ، بجامعة الملك سعود ، وناقد بصير ، بعيد الصوت .

٤ – الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين ، أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والمشرف على رسالة الطالبة .

٥ – مدينة بنغازى ، كانت العاصمة الثانية لـ – ليبيا – وهى تبعد عن العاصمة طرابلس شرقا" الف كيلو متر" وبالقرب من بنغازى الجبل الاخضر المشهور ، ويبعد عن الاسكندرية بنحو"١١٠٠" كم .

٦ – وقد ألف شيخ الازهر عبد الحليم محمود كتابا – عنوانه – بومدين الغوث – .

٧ – الوجاك : بناء من طوب في ركن في المقهى ، حيث غلاية الماء وصنع القهوة والفحم الموقد لهذه الاغراض .

٨ – برقة تمثل الجزء الشرقي .. من ليبيا .

٩ – السكة: حديدة لها رأس مدبب ، تثبت في رأس المحراث ، تنغرز في الأرض فتشقها ليدخل فيها البذار .

١٠ – مكيال معروف هناك ، ستة منه تملأ كيسا كبيرا .

١١ – تقع غرب بنغازى مسافة"١٨٠" كم ، بين الصحراء والبحر .

١٢ – جنوب البركة بنحو "١٥" كيلا .

١٣ – غرب البركة بنحو "١٢" كيلا .

١٤ – القربة التى يمخض فيها اللبن ، من جلد الماعز المدبوغ .

١٥ – القدح : الزبدية الكبيرة من الشينكو أو من شجر الزيتون .

١٦ – سبت من البوص ، منه الكبير والصغير .

١٧ – البطوم شجر طيب الرائحة ، اوراقه صغيرة غليظة ، وله حبوب تشبه حبة الفلفل الاسود زيتية . تحمص مع الحب ويسمى قليّة ، بكسر القاف واللام .

١٨ – يعنى : ارو الضيف باللبن وهو اصطلاح .

١٩ – أصبح وزير خارجية ليبيا في حكومة الثورة وللرجل .. تاريخ معروف ، مات في حادث الطائرة الليبية التى اسقطتها اسرائيل فوق الأرض المصرية .

٢٠ – وسط مدينة جدة ، في طرف السوق ، من جهة حارة البحر .

٢١ – راجع مقالتى في علامات الصادرة عن النادى الأدبى الثقافى بجدة الجزء – ٣ – .

٢٢ – ص ص ١٨٥ – ١٩٥ وتلك الأيام . تفاصيل الحادث والسجن إلخ .

٢٣ – اشرت في صفحتى ٢٠٨ ، ٢٠٩ من : وتلك الأيام إلى طلب الاجازة لدراسة الانجليزية إلخ .

٢٤ – راجع ص "٧٦" من كتابى وتلك الأيام .

٢٥ – راجع ص ٢٠٤ من : وتلك الأيام وما بعدها .

٢٦ – راجع: وتلك الأيام صفحات من ١٧١ إلى ١٧٤ .

٢٧ – تاجر يهودى كبير ، كان في بنغازى مشهور .

٢٨ – راجع الصفحات من "٢١١" إلى "٢٣٥" من : وتلك الأيام .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مؤلفات الكاتب !

لصاحب هذه الحكاية مؤلفات أدبية .. هي :

* أمواج واثباج – نقد أدبي –.

* فى معترك الحياة – موضوعات ادبية مختلفة .

* وتلك الايام – تجربة صحافية –.

* الحياة بين الكلمات .. نقد أدبي، – تحت الطبع – .

يا أبا مـدين يارمـز الشـمم
يارفـيق الدرب في دنيـا القلم
كل مـا قـد قلتـه بعض الأهم — فـجـزاك الله أضـعـاف الجـزاء

***

يوم تـكريمك عـيـد الأصـدقـاء
في مـقـام الحب طاب الأحـتـفـاء
والذي في القلب من عمق الإخاء — هو مـن عـرسك في حـقل الأدب

***

حـفلة التـكريم في دارة خـوجـه
مـوجـة مكرمـة تلحق مـوجـه
آثر القـائد بالزفـة فـوجـة — وهو بالـتـكريم عـزٌ الأدباء

***

جدة : محمود عارف

أنت قـد اسـهـمت في مـعـتـرك
بيــــراع وفـم مــــشـــــتـــــرك
في حــــيـــاة من مـــدار الفلك   يلتقى فـيـهـا حـسـاب القّـدر

***

يا أبا مـــدين مـــاكنت أريدْ
أن أخوض اليوم فيما قد يزيد
لكن الإنصـاف أحرى بالمجيـد   لايضـيع الحق عند المنصــفي

***

الدواوين التي قـــد طبـــعت
في كـتـاب واحـد قـد أنجـزت
أنت أصـــدرت ومـــا زلت تبت   شكر الله لك الفـضل الكبـيـر

***

يا أبا مـدين أعطيت الكثـيـر
صـــورة الواقع مـرآة الصـدور
وعلى رسلك فـالدْين عـسـيـر   وإذا أمـــهلت يأتيك الســداد

***

وإذا القـاعـد اعـيـاه القـيـام
فـهـو لا يعـدم أسـبـاب الكلام
حين عـاد الشيخ يزهى كالغـلام   راح يســتـذكـر أيام الشـبـاب

***

كنتَ في ماضيك موفور الطلابْ
تتوخى الصـدق في نيل الرغـاب
وإذا المضـمـون في شكل كـتـاب   فـيـه أفـضـالك تبـقى للخلود

كــــانت الرائد فـــينا ندوةً
تنشـــر الرأي . تتعالى جـــرأة
هكذا مـا كنت تخـشى جـفـوة حـينمـا كنت تنادي بالبناء !!

***

والذي تبـغيــه من أجل الهـدف
صـحـة المبـدأ والقـصـد الأعف
تتـــحــاشى كل أضـرار الجنف فاحتـذاك الجيل نهـجا وشعـاراً

***

«وعكاظ» لست أنسى فــتـــرة
كنت فـيـهـا مستـفيـضاً صحوة
حين خطـطت وجـــدنا.. وثبـــة صوب أسبوع عكاظٍ في امتداد

***

دعـــوة وجـــهّـــهـــا للأدباء
فـاستـجاب الكلُ حتى الشعـراء
حين أعـطوا طـاب بالـكم الأداء غـيـر أن الكيْف قـد جاز الحـدود

***

ولك المعلم فـي دار البــــلاد
تتـوالى صـيـحـة عـبـر السـداد
خدمـة للشـعـب فـي درب الرشاد هـكذا كـنـت ومـــــا زلت تؤدي

***

والدراســات التـي أنجـــزتَهـــا
هي أمـــواج.. وقـــد ارسلتـهـــا
ضمن أثبـاج .. وإذ حـقـقـتـهـا جـــسَّـدتْ وعي الأديب العــربي

***

تحية تكريم !

صاحب الأضواء والرائد أهدي
لك من أعماق قلبي صِدْقَ ودي
جئتَ في تكريمك اليوم أؤدي
بعض أفضالك في حجم اختصار

●

« المزامير » اللواتي صدرت
باحتضان منك طابت واستعزتْ
لست أنسى اليوم إذ قد طبعتْ
قبل أعوام .. وقد كنت السبب!!

●

والذي أفضلتَه كان وفاءَ
من أخ طاب شعوراً وإخاء
والذي فيك تسامى وتراءى
صورة المخلص قلباً ولسانا !!

●

هذه الأضواء في دنيا الصحف
حققتْ أشياء من غير سرف
وانتهى الأمر بما لا يختلف
فيه شخصان.. فما كنت

●

عدتَ بالرائد أقوى جولةً
تنشر الحق ، وتعلو همة
كلما سطرتِ .. فيها صفحة
صفّق القراء شيبًا و